هاني فحص

ماضٍ لا يمضي

- ١ -

ذكريات ومكونات عراقية



اسم المؤلف : هاني فحص
عنوان الكتاب : ماضٍ لا يمضي
- ١ -
ذكريات ومكونات عراقية
الناشر : دار المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٨

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص.ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 of 7366 Tel: 2322275 - 2322276, Fax: 2322289
www.almada.house.com E-mail-madahouse@nets.sy

بيروت الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧

E-mail: al-madahouse@idm.net.lb

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٢ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail: almada112@yahoo.com

الإهــداء

إلى ما تبقى أمانة من محلة العمارة في النجف وساحة الطيران في بغداد وباب الطاق في الحلة وعصافير الجبايش وأكواخ الفلاحين في شغاف الجبال في كردستان إلى أحمد ونوري الحكيم وعلي مهدي بيات في طوزخورماتو وكاكاسروان الذي لم أره في حلبجة وعلي أبو طبيخ وهادي الخاقاني وهاشم الطالقاني وجميل حيدر وثامر آل حمودة ومهدي الظالمي وسركون بولص وعلي الوردي.. راجياً تسليمه باليد إلى كلّ علماء العراق وشعرائه وأدبائه الذين لم يستمتعوا بما استمتعنا به نيابة عنهم من حرية وانتظار حقيقي لعراق آتٍ وإن طال السَّفر.

هاني فحص/بيروت

في ٢١/٢/٢٠٠٨



إنّي عراقي أيضاً

بسم الله الرحمن الرحيم

حاولت جهدي أن ألتزم باختيار ما كتبته عن مكوناتي وذكرياتي العراقية، ليكون مادة هذا الكتيب الذي أقدِّمه للقارئ دليلاً على أنِّي أتعدى واجب الوفاء لهذه المكونات والذكريات، إلى ما يكاد أن يكون إشهاراً لمواطنيتي العراقية، التي لا تقل عن مواطنيتي اللبنانية عمقاً ووهجاً، بل، وأحياناً، وعندما يضيق بي لبنان أو أضيق بحاله التي لا تكاد ترسو على حال حتى يأتيها القلق من مكان ما ومن كامن ما، لتشعرني بأنِّي ربَّما كنت وكان غيري من اللبنانيين، يخلطون بين رغبتهم في وطن وبين مشهد لبنانيٍ متكرِّر يقول بلهجات وألحان مختلفة وخلفيات مختلفة، بأنَّ الوطن اللبناني بمعناه الكامل والناجز والدائم، لم يتبلور بعد، على الأقل في وعي كثير من اللبنانيين، الذين يحاولون بين محطة وأخرى، أن يفصِّلوا الوطن على مقاساتهم الخاصَّة، أي من دون الآخر أو الآخرين، فيلغون بذلك الوطن والمواطن وأنفسهم.. عندما يضيق بي لبنان، أجد احتياطي الذهبي الوطني في العراق، فأعلِّق آمالي عليه، حتى لا أذهب إلى اللامكان، ومن هنا

تمسي وطنيتي العراقية واجباً للعراق عليَّ، وحقاً لي عليه، من دون طموح أو طمع بأن يترتب لي بذلك أي نفع مباشر، لأنّ كلّ المنافع المشروعة على الوطن، أي وطن، لا يمكن أن تنهض إلى مستوى الخير الذي تمنحك إياه طمأنينتك إلى وطن تحبّه وتعمل كلّ ما بوسعك من أجل أن يحبّك.

حاولت وقرأت أوراقي اللبنانية والفلسطينية والإيرانية وغيرها، فلم أجد ورقة منها تخلو من واقعة أو حقيقة عراقية في نسيجي الروحي والذهني والمعرفي والأدبي والجسدي.. ووجدت الأوراق التي كان الحافز على كتابتها عراقياً محضاً ومباشراً كما في الذي كتبته عن علمين من أعلام العراق وعلامتين على عراقيتي في مستواها العلمي والأدبي والمسلكي، أعني المرحومين السيِّد محمَّد تقي الحكيم والسيِّد مصطفى جمال الدِّين، وفي الذي كتبته على المتحول العراقي من الاستعمار الوطني إلى الحرية الصعبة والمكلفة والضرورية والآخذة في تحققها وتبلورها ببطء لا يضارعه إلاَّ العمق الذي يقتضيه ويجعل الصبر عليه إعادة تأسيس أو تشكيل للمواطنة العراقية على موجب ثنائية وجدل الاجتماع والدولة.

يجعل هذا الصبر مقدِّمة لاستحقاق العراقي لوطنه وبشكلٍ نهائي هذه المرَّة، وهذا انبعاث عراقي ذاتي وإرادي على عكس البعث. وعندما قرّرت اختيار الورقة الأولى،

والتي غالباً ما تكون الشرفة التي يطل منها القارئ على هواجس المؤلف. اخترت ورقة لبنانية فيها محطة عراقية، وذلك لأنّني وجدت أنَّ لبنانيتي في الورقة منقسمة إلى قسمين، قسم ما قبل العراق، وهذا لم أكن لأستطيع أن أراه كما رأيته وأفهمه كما فهمته وأكتبه كما كتبته، لولا اللاحق العراقي في تكويني وذوقي ووعيي لذاتي، أمَّا قسم ما بعد العراق، فلم يكن ليكون لولا أنَّ المؤثرات العراقية في كياني قد تحولت إلى مورثاتٍ انتقلت من جيناتي ووعي وذاكرتي لتصبح بعضاً من جينات ووعي وذاكرة أولادي وأحفادي.

هذا لا يعني أني أسير العراق، بل يعني أنِّي نتاج عراقي أيضاً، أولاً أو ثانياً؟ لا أدري، ونحن لسنا أمام وصف لشأن مادي، هو شأن روحي ومعنوي، يصعب في وصفه أن نفرِّق بدقة بين اللبناني والعراقي، لأنَّهما يتمازجان ويتكافآن في إعطاء حبري لونه ودمي نكهته، ويضعانني في حالة من الالتباس اللبناني العراقي الجميل، والذي لا يلغي شيئاً أو ركناً من تعريفك عندما تبدو معه أنَّك أنت وغيرك في آن، وعندما يصبح المائز بين الأنت والغير غير ثابت على حال، فتارة أنت أنت، وتارة أنت ذاك الموصوف بالغيرية، وطوراً أنت الغير، وطوراً أنت ذلك الغير الموصوفة بالإنية، ويحتدم هذا الجدل العراقي اللبناني في ذاكرتي وحاضري وحلمي وفرحي وحزني ووجعي، لا أستقر على حال، ولا أريد أن

أستقر على حال، مخافة أن أخسر شيئاً من معنى المعنى في أن تكون ملتبساً بين نعتين كأنَّهما عيناك.

هل أبالغ إذا ما قلت بأنّ هذا العراق الذي أقوله ويقولني هو النجف بشكل شبه حصري؟ شبه حصري بلحاظ المكان أو الرحم المعرفي الذي أجنَّني، وهل كان يمكن لي أن أكون جنيناً للنجف لو كانت معزولة أو منعزلة؟ إذن لكنت مشوّهاً ومعاقاً، ولكني وجدت فيها العراق، كلّ العراق، ومنها ذهبت إلى العراق كلّ العراق، سكنت في حي كندة في الكوفة، حيث لعب المتنبي وظلّ يلعب بالتراب والدنيا وماء الفرات، حتى لعب بماء الشعر وترك لنا نهراً نرده كلّما أعوزتنا الحكمة والبلاغة وقلق الحياة والوجود والفن، قرب منزل عليّ (ع) أمير النحل، المعلم الصَّناع في معمل العسل نهجاً وسلوكاً، قرب ميثم التمار، الذي ارتقى روحاً وجسداً بالصلب إلى نسب النخلة.. عمتنا العراقية الباذخة. ومنها يومياً إلى النجف بيت العلم وخيمة الشعر ومحور الإيمان والشغب اليومي الذي يزيد العلاقات توتراً وحميمية وتكاملاً. ألست أصف العراق بهذا الكلام؟

ومنها، من الكوفة، إلى كربلاء مروراً بخان النص وطاسة اللبن الرائب البلدي غير المغشوش بالماء، والخير والدسم يتجليان فيها صفرة كصفرة الأقحوان، وبيضتين صغيرتين مع قرص من خبز العرب وفلاحة تستحي منك

عـندما تقاضـيك الـثمن، ولو زرتها في صريفتها لذبحت لك الـشاة والدجاجة والديك وأشعلت تنورها بعباءتها لتصنع لك خبـزاً وحـباً.. إلى الحـسين والعـبَّاس وكـثافة الـدم والحـق والحقـيقة والـريادة والشهادة وهذا الحزن الذي يجري مجرى دجلـة والفـرات إلى شط العرب مروراً بالأهوار حيث احتلب مظفـر الـنواب أحلـى شعره من رحيق البردي «وإيقاع حوافر المهـر الـذي يـتجادح بالحـنطة ويعلقهـا مناثر لعقال العريس المناضل المشرد بزبون الزفة».

ومـن الكـوفة إلى بغـداد.. إلى ساحاتها وسوق السراي والـشورجة ووزارة الـدفاع مقابـل لـبن أربـيل وسـاحة الوثبة وفـندق مـصطفى في شـارع الجمهـورية وفـندق شـهريار في الـسنك ووجبة قوزي في مطعم البيادر واشتهاء الفشافيش في بـاب الـشرجي حـيث أطـل أحـد الأشـقياء من شباك السيارة وصرخ في وجهك: ماكو نذر سيِّدنا؟

إلى اتحـاد الأدباء وشارع المتنبي ومكتبة المثنى ووجوه أدباء وشعراء وكتاب قصة، كلّهم مبدعون، وإن كان بعضهم قـد عـاف الإبداع والأدب إلى سوء الأدب، كما عبر أستاذي مـدني صـالح عـن أحدهم مرَّة.. ولن أذكر من يحسن ذكرهم مـن أهـل الاسـتقامة حـتى لا أذكـر مـن يـستقبح ذكرهم من جواري السلطان البائد.

إذن فقد كانت النجف مطلاً على كل العراق، وكادت سائر المدن أن تكون أوردة لها وشرايين، لولا أنّ كل مدينة عراقية بذاتها وفي أساسها بغداد، هي قلبٌ عراقي بحاله وكل المدن الأخرى أوردتها وشرايينها.. أليس من هنا قال السيّاب:

الشمس أجمل في بلادي من سواها

والظلام.. حتى الظلام

هناك أجمل، فهو يحتضن العراق؟

أقول قولي هذا لأثبت أن عراقيتي مركبة، استكملت آخر ملامح تركيبها عندما تعرفت إلى فخري كريم الذي كان يجب أن أتعرف إليه سابقاً لأرى العراق بكلّ شموسه وثلوجه وحرارته وحموضته وحلاوته وحيويته وشقاوته متجسداً في رجل.. دعاني فخري إلى أربيل وزرت السليمانية مروراً بالزاب وزرت شقلاوة وصلاح الدين، قرأت سمفونية العراق وسمعت موسيقاه الهارمونية التي مزق السلطان الغاشم نوطتها، ولكنَّها بقيت في آذان الجميع وأناملهم التي تعزف الآن لحناً عراقياً للآتي رافلاً بالحرية والتقدُّم والوحدة والتجديد والتعدُّد الجميل حيث يتكامل الناي مع الطبج والبيانو والزهيري والشالغي مع السوبرانو.

أذكر القارئ بأني انتقلت من قريتي جبشيت في جنوب لبنان مباشرة، ومن دون المرور بأي مدينة، إلى النجف مدينة

التاريخ والمستقبل الموصولة شكلاً ومضموناً، ذاكرة ورؤية، همّاً ودماً وحلماً وحبراً وتشريعاً بإبداعات العراق من حمورابي وصولون إلى بيت الحكمة وكوفة الصادق والبيوت المتواضعة لمراجع متواضعين فقراء إلاّ من علمهم وحكمتهم.

كيف يمكن إذن لهذا الماضي أن يمضي! نمضي ولا يمضي، لأنّه ماضٍ ومضيء.



أول الوعي.. أوائل الحروف

مـداك الحـيوي محـدود، أنت وثلة من أترابك اخترتم الـبراري والفـخ وأعـشاش العـصافير مـدى وراء شـتلة التبغ ومـرها، ولكن غيوماً وسحباً أخرى طفقت تذرع سماء القرية تغادرهـا سـراعاً؟ أو تمكث ريثما تجلب سمعك أو سؤالك.. إذاً فـلا بـد مـن بحـث عمـا تـتحقق بـه ذاتـك على مقتضى متغيرات جمة، منها أنك رأيت المدينة وحدك لا وراء أبيك، ومـنها أن الـراديو أخـذ في الانتشار، ومنها أن ريحان عذارك شـرع بالبـزوغ مـصحوباً بحـالات في مخيالك وبدنك أثارت فـيك رغبة حامضة وغامضة ومنحتك مفاتيح الكلام وجعلتك عرضة لكلام آخر..

إذاً فاقـرأ طالمـا أنـك مهموم بحالك وأهلك ومتاعبهم الـتي لا تنتهـي ومكاسـبهم التي لا تنهض إلاّ بالأشد ضرورة مـن شؤون الحياة.. أما المرض فعلاجه ببيع الأرض الموروثة قطعـة قطعـة.. إلى مـشاغل أخـرى أتتك من العدوان الثلاثي على مصر فعطفتك على أرض قريبة (فلسطين).. إلى الوحدة والـسد العـالي وأحـداث لبـنان والعطلـة المدرسية الجبرية..

وثـورة العـراق والجزائر. وأحياناً تمر كوبا بين السطور، وإذا قـرأت اسـتفزك نعـيمة وخالـد محمـد خالـد ومـارون عـبود وجـبران وغانـدي، أغـروك بالمـشاركة.. وآنست في داخلي حـساسية لغـوية أقـرب إلى الفطرة التي تكتمل بالوعي فتزهر وتثمـر، وكـأني تعرضت لاحتمالات المرض، فتحرك القلم بـين أصابع لا تشكو من بقايا الشوك وحليب التين، وعقل لا يقـوى علـى الارتقـاء ببساطات الأهـل إلى مـستوى معـرفي مفـارق، وقلب أخذ الدم فيه يشهر كرياته للهواء والهوى. ها أنـا إذاً على بوابة الحب الذي يولد كما يولد الشعر، أو يولد معه الشعر.. أو هو الشعر.. فلا بد إذن من اقتراف يحميك من الجفاف.. إذن فاكتب.

وكتـبت.. كانت المضامين أرقى من أشكال كتاباتي. إذا مـا كـان المعـيار في رقـي المـضمون إنـسانياً، أي كامـناً في المعـنى، في مـا تعنـيه ويعنـيك، لا في مـا يغـويك ويغويها ويغويهم، أياً كانوا.. أما إذا ما كانوا أهلك، وكانت بضاعتهم المعـرفية المـا فـوق الفطـرة والتحـصيل الموصـول بعـادات الأرض وأحـوالها، متواضـعة وباعـدت بيـنك وبيـنهم بقول يدهـشهم لأن مـداركهم لا تطالـه، فإنـك علـى حافة الخيانة وقطـيعة الـرحم.. لطالمـا غمـني أني أكثر معـرفة وعلماً من رهطـي الـساهرين علـى المـصطبة. الـذين علمـوني الحـب والعـشب والحلـيب والـشمس، والتـراب والحـزن والألفـة

والسهر الحميم في ليالي الشتاء واصطلاء الدفء من البطانية المشتركة، العتيقة. دفتري الذي سودته في القرية قبل الانتقال إلى مدرسة المدينة للدراسة المتوسطة.. كان غلافه أخضر وأوراقه أكثر أناقة من دفاتر المدرسة، وكان سرياً.. وعولت على مواضيع ودفاتر الإنشاء لأقول للمعلم والرفقة وبعض المهمومين بالعلم من أهل القرية، بأني أضمر لهم وعداً بعنوان من عناوين قريتهم واجتماعهم.. ولأن يكون واحد أو آحاد كتاباً أو أدباء أو علماء أو أغنياء في قرية.. فإنها تنسب إليهم كما ينسبون إليها.. وكان الشيخ علي الزين منذ أن سمع من معلمي أني أراهق للكتابة قد أخذ باستدراجي إلى حضنه، وعلى هزال بدنه والسل الذي تغلغل فيه عمراً، كان يتعافى بنا ويعافينا فلا نعافه ولا يعافنا..

قصرت ساقا الشيخ أن تحملاه إلى منزلنا الذي يرتفع قليلاً فوق الطريق العام، فأشار لي أن «هات دفترك واتبعني» وأوى إلى ظل حائط على قارعة الطريق، وقال لي: إقرأ.. شعرت أنه يتأله وأنه يرسلني.. فارتعدت وتلعثمت ثم نسيت فقرأت مرة ومرتين.. وعندما تأكدت أن ذهنه رحب وقلبه لأحب وأنه أحب ويحب للآخرين أن يحبوا قرأت له ما أحببت في ما كتبت وما كتبت في ما أحببت، فانشرح وقال لي ما كان يعني أني موعود بالكتابة، ولكن علي أن أضيف إلى مكوناتي الذاتية وعياً بالموضوعات، وأهداني كتاباً شعرياً

(أعاصير في السلاسل) لسليمان العيسى.. أراد أن يعديني بعشقه للحرية.. فلم أعتم أن تبعته.. وامتلأ دفتري الأخضر على أبيض بالأزرق والأحمر، كان فيه وجوه وعيون وقدود وجبال وأرز وفلسطين وفقراء وحرية ووحدة وعدالة واحتجاج وشوق واعتراض. وحملت دفتري إلى مدرسة المدينة.. إلى النبطية وهناك تلقاني معلمون وتلاميذ من مناشئ مختلفة.. ودار الجدل، وعدت إلى دفتري فوجدته بما فيه دون الأسئلة التي داهمتني والمعارف التي حاصرتني. فقررت أني وطالما أني وقعت في داء الكتابة فلا بد أن أعالجه بالكتابة، لأستقر على جدل جميل لا يخلو من وجع لذيذ، تداوي داءك بدوائك، فيزيد الداء أعضالاً، فتزيد جرعة الدواء، فيستحكم الداء وهكذا دواليك.

إلى ذلك أعدت ما حل بي لاحقاً من مضايقات وضيق.. استولى عليّ هاجس الإبداع، ووجدت أني لو فكرت بالمردود لما كتبت.. يعني أني كوردة أمي، لو كانت تفكر بما يُصنع بعطرها ولونها لما فاحت.. وذهبت في الكتابة والقراءة طولاً وعرضاً حتى أني تأخرت في مواد الدراسة وكنت في البداية مميزاً في كل شيء، واكتفيت بدفتر الإنشاء علامة على ذاتي.. وأغراني معلم الإنشاء الذي كان يقرأ إنشائي على الطلاب والمعلمين ويغدق علي العلامات ويزاملني ويستشيرني ويحكي لي ما يقرأ. ويشتد غضبه علي ويقرعني علناً عندما لا أوافيه بما يروق له.

كـتب لي مـرة علـى الدفتـر.. خـروج فاضـح عـن الموضـوع، ثم شطبها وكتب، فهم رائع للموضوع مع عرضه بإطـار فـني وجملـة تنساب انـسياب المـاء بـين الأعشاب.. وازدهـاني المـديح حـتى العجب والغرور واعتبرت الخروج علـى الموضـوع سـر الإبداع، وفي المرة التالية خرجت على الموضـوع فكـتب لي في الدفتـر (خدعـوها بقـولهم حسناء) ولكـن المـرحوم الأسـتاذ عـبد الحـسين حامد، معلمي، لم يعـرف ثم عـرف أني اكتـشفت الطـريق إلى التعبير من الحرية الـتي وصـفها لي بالخـروج عـن الموضـوع، غـير متناس أو مـتجاهل أن الحـرية قـد لا تـصيب ولكـنها تملـك بـذاتها وشروطها ما يؤهلها لتصويب مساراتها.. هذا المسلك أغراني في المدرسـة بـتجاوز عمـري الجسدي والمدرسي.. فأشعت بـين الطـلاب جـدلاً ولغطاً حول ما كتبت في أمور ممنوعة.. واسـتدعاني المديـر وقـرأ.. وقـال: هـذا ليس شأنك إنه شأن الكـبار ولا بد أن تكف.. ووافقت والتزمت وكأني أدركت أن مـا قـرأته متأخـراً في نهج البلاغة «ومجتني الثمرة لغير وقت أيـناعها كالـزارع في غـير أرضه» وأجلت اهتماماتي إلى آوان النضج.. وكانت رغبتي في الكتابة تسد عليّ آفاقي.. فاقترحت إصـدار مجلـة حـائط في المدرسـة وأخذت الموافقة وقدمت العـدد الأول لمعلـم الأدب للمراقبة. قرأ وضحك وقال: من عـشر موضـوعات لـك ثمانية والتاسع لتربك من آل فحص..

هـذا لا يجـوز.. لم أكن أنانياً. كنت أريد أن أكتب الدنيا كلها في يوم واحد وعدد واحد.. وما زلت كذلك.. حتى أني كلما تـضايقت مـن عدوان علي أو قمع لي أو تجاهل لحقي، أقوم إلى قلمي ودفتري وأكتب وأكتب وأشعر أني في مملكتي التي لا ينغص عليّ فيها سلطاتي الشرعية أحد..

عندما قررنا أن (نمدن) القرية فكرياً وأدبياً بأن نتمأسس لـبّاني علـي، تـربي المـريض بالحـبر مثلي، ولم يكن عدنان وجمـيل وجـواد ومصطفى بعيدين عنا. وأسسنا مكتبتنا العامة في (الخـشة) علـى حاشـية سـاحة الـضيعة.. وخطبـنا في عاشـوراء، وتقاولـنا شـعراً شـعبياً وتـتطاردنا في محفوظاتـنا الـشعرية. وكتبـنا مـسرحية ومثلـناها على أرض الحسينية قيد الإنشاء ونفحنا أهل الضيعة مكافأة عليها مئة ليرة.

المفـصل الـذي كـيفني خـلال هـذا المـسار مـع الحبر والطرس هو أن حساسيتي اللغوية التي حرصت على الحرص علـيها حـتى في يومـياتي وحديثـي العـادي، قدمتني لرفاقي الـتلامذة وكـأني مـن حـراس العـربية وأبـناء لغتها وجلدتها. فـسموني شـيخاً فأطلقـت مـا تيسر مـن لحيتي وذهبت إلى مسجدي وحفظت نص عاشوراء وأصبحت عريف احتفالات القـرية ثم ذهبت إلى النجف حيث قدمت نفسي معنياً مسكوناً باللغـة، فاحـتفوا بي علـى هذا الأساس.. وعندما كتبت أول مواضيع الإنشاء في المدرسة لم يعطني المعلم الشيخ علامة،

اعتبرني خارج سياق التلامذة، وهمس بجبران، والتقطها الزملاء مشايخ المستقبل، وكانوا فتياناً يتقنون الشغب الجميل، فأخذوا ينادونني (جبران) تقديراً وتنكيلاً ففرحت وبكيت وكدت أن أمتنع عن الكتابة. إلى أن تأكدت أن النجف يمكن أن تغفر كثيراً من هفواتك وتتسامح مع تقصيرك إذا ما آنست فيك احتمال إبداع.

النجف أسيرة الشعر وعلوم اللغة والقرآن والسنة، الحوزة المسورة التي تنفتح فيها كل يوم كوة على الآداب العالمية في الشعر والرواية والمسرح.. أسرتني ونذرتني للكتابة.

وها أنا الآن لا أكاد أغلق دفتراً حتى أفتح آخر وأكتب. وإذا ما أعوزتني الدفاتر كتبت على أكياس الورق.. وقد غادرني أولادي بعدما كنت أتسلل ليلاً إلى حقائبهم وأسرق دفاترهم وأقلامهم وأكتب، فإني الآن لا يلذ لي إلاّ أن أدخل خلسة إلى مكاتب الأصدقاء في الصفحات الثقافية في الصحافة اللبنانية لأسرق ورقاً كثيراً وأقلاماً مختلفة الألوان لأكتب ألواناً مختلفة من دون سرقة لأفكار الآخرين إلاّ في حدود الضرورات التي تبيح المحضورات، غير أن الدربة الطوعية قد مكنتني أن أموّه مسروقاتي القليلة.. ويوماً ضحك الصديق وقال: إنك تسرق أقلاماً فترتكب حراماً جميلاً فلماذا تسرق الأقلام الفارغة!. ودلني على أقلامه الممتلئة حبراً

لأسرقها في غيابه.. ولكني ما زلت أسرق الأقلام الفارغة لأني لا أستسيغ في العمل الفني والأدبي ولا أحب أن أكون إلاّ في الخاسرين أو المحرومين، لأن الخسارة والحرمان هما الحلال الوحيد المتاح الآن.. ولا أدري متى يتبدل الحال؟

ومن هنا فإني أعاند العصر والإنترنت والحاسوب.. وأتصور أني سوف أموت قهراً أو جهلاً إذا ما جاء يوم لا تضطرني فيه الكتابة إلى البحث الطويل والمضحك عن المصادر في مكتبتي العارمة بالفوضى، لأنتهي بعد البحث إلى اكتشاف أن المصدر الذي أبحث عنه أمام عيني وفي متناول يدي منذ اللحظة الأولى!.. وأكون قد استنفدت طاقتي وأعصابي فأكف عن الكتابة وأذهب إلى فراشي لأنام باكرا وأصحو باكراً وأكتب.. فلا أنام ولا أكتب ليلاً ولا نهاراً. أما أن لا يتكرر لدي ضياع أوراقي التي كتبتها لأجدها أحياناً في غرفة النوم أو في المطبخ، فإن ذلك يشعرني بأن النقمة هي معادل النعمة إن لم تكن الحرية شرطاً فعلياً ودائماً وغير مشروط للكتابة والإبداع.

سوف أكتب لأعالج مرضي، وسوف أحافظ على مرضي لأكتب، وأنا مطمئن البال إلى أن لي من الحب والإيمان ما يمنعني من أن أسبب للشعب والوطن أي أذية.. ولسوف أمضي أحب فأنقد وأنقد فأحب حذراً من النفاق ومن الكراهية البغيضة.

سوف أكتب وليقل أولادي ما شاؤوا أن يقولوا فيّ من قبيل: عذبتنا وأتعبتنا.. سوف أكتب لأقرأ وأقرأ لأكتب وأقرأ وأكتب لأعرف وأعرف لأتحرر وأتحرر لأحرر وسوف يبقى الشك يقيني. واليقين شكي.. إلاّ بالله فهو حسبي ونعم الوكيل.

قال لي صديقي يوماً وهو يتلوى من ألم في معدته لأنه يكتب على الريق.. إن أكبر خطأ يرتكبه إنسان عربي في حق أهله وعائلته هو أن يكون مثقفاً وكاتباً.. إن هذا الذنب العظيم يغريني بارتكابه لأنه يمنحني الفرصة للحط من قيمة الكسل والكسلاء والجهل والجهلاء.

قبل حوالي خمسة عشر عاماً اكتأبت عندما اكتشفت أن موقع الكاتب هو الأضعف في تسلسل إنتاج الكتاب وأعلنت ندمي على أني قررت ونفذت في حدود، تنظيم أسرتي لأتفرغ لإنجاب الكتب ولما خاب أملي في بلاد تكافئ البطالين قررت أن استبدل الأولاد بالكتب.. بعد المشيب أدركت أن هذه المستويات في حياتنا ليست متناقضة، وأن التنظيم أصبح لازمة في الأسرة وفي الكتابة تجنباً للأخطاء والغثاثة الفكرية وتجنباً للجهل الذي إن عالجته بالعلم في أفراد عيلتك واجهك قرار الإقامة في التخلف والفساد ليحبط أحلامك العلمية وآمالك المعلقة على إشاعة المعرفة. إذن غداً نبدأ مرة أخرى.

أنا الآن أفترض أن والدي وأكثر أرحامي لو كانوا

قـادرين على المشاركة في هذا الحفل(*)، لأصيبوا بالدهشة، لأنهـم مـا كانـوا يـتوقعون لمـنازلهم أن تتصل اتصالاً عضوياً بقـصور الـثقافة قياسـاً علـى قصور القاصرين من أهل الثروة الحـرام، كانـوا مجـبرين على القناعة بأن الثروة هي المجد، وأن قـصارى الثقافة أن تكون فرّاشة في القصر أو نادلاً.. غير ملتفـتين إلى أن الكـدح والـصبر والعفـة والـشراكة والقـيم والأخـلاق والإيمـان مـن شـأنها أن تغير المشهد والأعماق..
أيها الأحبة دلوني على واحد أو آحاد منكم الآن ومن أمثالكم مـن أهـل الفكر والأدب، من أهل الجودة، قد أتى من مكان أو تاريخ رخي هني «ألا وإن النبتة البرية أصلب عوداً». يقول علـي (ع).. بلـى أنـا أعـرف أن بيـنكم بعـضاً من أهل النعمة يـسهمون بـإخلاص وكفاءة في إبداع المستقبل، ولكني أعلم أيـضاً أنهـم اجترحوا مسافة ما بينهم وبين منابتهم الطبقية من دون خيانة، واندمجوا في فقراء لبنان، أي الذين يغنى ويغتني بهم لبنان، دماً وعرقاً وحبراً..

ورغـم ذلـك فإني لا أستطيع أن أمنع دهشة أمي، على رضـاها وضـناها. أمـا زوجتي فهي غير مندهشة لأنها شريكة العناء والدأب والخيبة والحصار، شريكة إلى حد أنها أخذت مـوقعها في الـنص ناقـدة على رضا من المنقود، وشريكة في الموقـف مهمـا يكـن الـثمن تشبثاً بالكرامة والدور، وإن كان

(*) ألقيت في حفل تكريمي أقامته الحركة الثقافية في انطلياس للكاتب.

هـذا لا يمـنع عتـباً أحـياناً علـى تضييع فرصة للراحة.. ولكن المـبدأ كـان يغلـب دائمـاً. وتناصـرني إذا ما كال لي الأولاد نقدهم القاسي أحياناً.. وبعد ساعة يأتون إلي قائلين: حسناً إن ارتفاع الرأس خير من اندلاع البطن.. أما الأصدقاء فأجمل ما فيهم أنهم لا تجمعهم طائفة ولا طبقة ولا قومية ولا كيان ولا مـزاج ولا حـساسية.. إني إبـن الكـتلة التاريخـية بمعـناها الحضاري التعددي.. وهذا مجدي وفخري ومنبع الحيوية في قـولي وفعلـي.. إني إبـن الجميع.. أي لست إبناً لأحد.. ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

لـيس كـوني هنا مكرماً من الحركة الثقافية في انطلياس الـتي تجـاوزت جغـرافيتها إلى الـوطن، دليلاً على أن نصاب المواطـنة هـو خيار الحركة، بل إن وجودي، كما كان وجود غـيري من أهل الطموح إلى العطاء والعناء، هو نتيجة طبيعية ومنطقـية لخـيار الحركة، الذي، وهذا مجد من أمجادها، لم نكتشفه لاحقاً، بعد الحرب، بل عرفناه على جفاء مرة وغيرة مـرة وحسد مرة وغبطة مرة، أثناء الحرب، وهذه هي العلامة الأولى والمميـزة لـسلوك الحـركة وتاريخها.. كان كثيرون منا أثـناء الحـرب، تعـبر في وعـيهم نداءات الاعتدال، ولكنهم سـرعان مـا يغلـبهم المـزاج أو الخـوف أو الطمـع، فيزينون البـشاعات أو يغـضون الطرف عنها، أما الآن والحمد لله فإن أهـل الاعتدال أسقطوا تحفظاتهم ومالوا جهاراً في السلم إلى الـنقد أو التنـصل مـن الحرب وبقاياها، تماماً كالذين أسلموا

بعد الفتح وهذه بركة ومرحباً.. غير أن الذين أسلموا قبل الفتح لهم ميزة ولهم حقّ لا يجوز غمطه، لأن ذلك يتصل منهجياً بأخلاقيات الحرب، لا بوظيفة ترسيخ السلم، أعني العيش المشترك، أعني الحوار، أعني قبول التعدد على أنه الأجدى والأغنى والأجمل. إذاً فللحركة الثقافية في انطلياس امتياز السبق، وقد أكدت تميزها عندما استنكفت أن توظف صوابها وشجاعتها في مكسب عاجل.. وها هي ماضية على ما تأسست عليه.. وها أنا الآن مكرِّم لا لاعتبار إلاّ ملتقاي على المفرق مع الناهدين إلى وطن لبناني ناهض بكلٍ أهله من أجل الكل.. وإني على هذا الطريق لا أحاول ملكاً وإنما أقول كلاماً «وللألفاظ سلطان على الإنسان» إذاً فأنا شريك الساعين إلى جعل المعرفة والحق والحقيقة تأخذ فرصتها في سلطتها الطوعية. سلطة الاحتكام لا سلطة الحكم والحاكم أو المتحكم.. أعتبر هذا تشريفاً يؤكد ويجدد التكليف.. ولا أنسى أني رجل دين مسلم شيعي جنوبي هنا في قاعة هذه الكنيسة على طرف العاصمة وبداية الشمال وحضن الجبل، هذا موقعي الذي حددته لي الحركة.. شكراً ولن أغادره، سأسهر معكم على حراسته من الفريسيين وأقف معكم على الباب لمنع الأشرار والفجار من هدم الهيكل، وتطهير بعض مساحاته. بعدما دنسوها.

٢٠٠٥/١/١٣

الخروج من القرية إلى بيئاتها القريبة (١)

أيام كان مدير المدرسة علماً وحجة

لم يتمكن المشرف على مدرسة الضيعة الأستاذ «مارون الحاج» من تهيئة الصف السادس، أي صف النهاية في الدراسة الابتدائية، فانصرف أكثر الطلاب إلى شؤون غير دراسية حسب المتيسر من عمل أو صنعة في الجنوب أو بيروت. والتحقت وقريباً لي بالمدرسة الرسمية في النبطية، وهي المدرسة التي كانت معروفة باسم مديرها الأستاذ أحمد جابر الذي يشفع اسمه عادة بوصف (البعثي) مقروناً بالشيخ علي الزين ومحمد وحسين سرحان ومحيي الدين محيي الدين وإسماعيل إبراهيم، وغيرهم من أبناء الجيل ممن تعلموا وبلغوا دار المعلمين، فخرجوا منها إلى السياسة والأحزاب..

قضى الأستاذ أحمد جابر عمره العملي كله تقريباً، في إدارة المدرسة التي أدارها بانضباط ونجاح.. ثم سميت في ما بعد، وتقديراً لتراثها ودورها «أم المدارس» نظراً إلى أنها المدرسة النظامية الأولى في مقابل الكتاتيب والحوزات

الدينية. وقد تأسست المدرسة في أوائل القرن بمساع من مدير ناحية النبطية، المرحوم الحاج رضا الصلح ـ قائمقام صور لاحقاً، والد المرحوم الرئيس رياض الصلح، أحد بناة الاستقلال ومبدعي الميثاق الوطني اللبناني، قبل أن يصبح الحاج رضا عضواً في مجلس (المبعوثان) نائباً عن الجنوب بإجماع من أهله من جميع الطوائف. إلى جانب كامل الأسعد (الكبير) بعد إعادة العمل بالدستور في السلطنة العثمانية، ليعود معتقلاً ماثلاً أمام المجلس العرفي الذي شكله جمال باشا (السفاح) بعد لقاء أقطاب المعارضة في منزله في صيدا، ممن اتهموا بالتآمر على السلطنة وأعدم بعضهم ومنهم (عبد الكريم الخليل)..

لقد انعكست علاقة الود والثقة بين جبل عامل (جنوب لبنان) وبين الحاج رضا وآل الصلح عموماً، على وضع نجله الزعيم الاستقلالي رياض الصلح الذي كانت لوائح المرشحين للانتخابات النيابية تتجاوز خلافاتها لتتفق فيه، فتترك اللائحتان الرئيستان أو الوحيدتان (لائحة عادل عسيران ولائحة أحمد الأسعد) مكاناً شاغراً للمرشح الصلح لينتخب بأكثرية ساحقة، وهو المسلم السني في منطقة يشكل الناخبون المسلمون الشيعة سبعين في المئة من مجموع ناخبيها..

لقد عرف عن رضا الصلح اهتمامه اليومي والتفصيلي بشؤون المدرسة، فلم يكن يغيب عنها إلاّ لظروف خاصة،

وكـان يـتفقدها ويـتعهدها مـن بنائها إلى طلابها إلى معلميها وإدارتها ويلبي حاجاتها.

ولأنهـا كانـت المدرسـة الأولى، فقـد تقاطـر علـيها الطـلاب من كل مناطق الجنوب، متحملين عناء المشي على الأقـدام من القرى القريبة، وعناء السكن ومتطلباته، حتى أن بعضهم آثر أن ينتقل من قريته البعيدة (في منطقة مرجعيون أو بـنت جـبيل مـثلاً) ليقيم مع أولاده التلامذة في النبطية.. ومن هنا شكلت النبطية ملتقى للذاكرة العلمية والأدبية في الجنوب عموماً..

ومـن النبطـية، وعلى المفاصل، تحرك الجنوبيون نحو الـشأن الوطني والقومي والإنساني من الانتداب الفرنسي إلى الاستقلال إلى احـتلال فلـسطين وثـورة مصر وحلف بغداد والعـدوان الثلاثـي، وتأمـيم القـناة والـسد العـالي والـوحدة المصرية ـ السورية ـ والمواجهة للقوى المعادية لها في لبنان، إلى الجزائر، إلى النكسة، إلى المقاومة الفلسطينية الخ..

كـان مـن دواعـي سـروري أن المعلمـين والـتلامذة، لاحظـوا وأقـروا بتميزي في اللغة العربية والإنشاء، ولم أعتم أن حـزمت أمـري وبـذلت جهـدي لألحـق بزملائي في اللغة الفرنـسية، وبـذلك نلـت شرعية مدنية من التلامذة ومن أهل المديـنة خففـت كـثيراً مـن شـعوري وإشعاري بقرويتي التي كانـت مثلـباً في مـنظور الـتلامذة المدنـيين، إلاّ إذا استقوى

التلميذ القروي عليهم بالعلم أو الشطارة فتصبح القروية ميزة. وهكذا عاجلتهم بمحفوظاتي الشعرية وخربشاتي الأدبية وحكاياتي عن صيد العصافير وأعشاشها وعن أغاني الحصاد وطقوسه وسهرات العمل في حقول التبغ وإغراءاتها البريئة، فاتسع صدرهم وأفسحوا لي محلاً في مشاركتهم اهتماماتهم المدينية من بعيد، لأني لم أستطع رغم الجهد المضني، التخلص من بساطتي وسرعتي في التصديق والاعتراف، ما جعلني أعيش حالة من القهر والندم المتكرر من طريقة تعامل بعض الزملاء الذين يطالون بالنكتة المقذعة والسخرية البالغة كل شيء صائب أو جميل أو بديع.. غير أني كسرت حدتي وحدتهم واندمجنا.

وأنهيت سنتي الدراسة بالنجاح في الشهادة الابتدائية، ولكن بعد أربعة أشهر من الموعد المعتاد، ذلك أن الحرب اللبنانية (١٩٥٨) اشتعلت قبل أن ننهي عامنا الدراسي، ودشنت على قاعدة الانحياز للوحدة وجمال عبد الناصر والمد القومي، في مواجهة مشروع حلف بغداد وسياسته المتبقية، بعد فشله بقيادة كميل شمعون وتيار يميني ملتبس بالمسيحية، في حين كان التيار القومي ملتبساً بالإسلامية.

وكانت الشرارة الأولى في الحرب هي مقتل الصحافي العروبي نسيب المتني (المسيحي) في ظروف غامضة جعلت التهمة توجه إلى أنصار شمعون، وكان عبد الحميد السراج،

بمقتضى الوحدة، قد أصبح السيد القوي في سوريا، فمد يده إلى المعارضة التي كان كميل شمعون (عام ١٩٥٧) قد تسبب في سقوط أقطابها في الانتخابات النيابية (صائب سلام وأحمد الأسعد وكمال جنبلاط وحميد فرنجية وغيرهم).

وإذا كان حميد فرنجية خرج من الميدان بسبب مرض (الفالج) فقد تصدى سلام وجنبلاط والأسعد لقيادة الثورة المسلحة من بيروت إلى الجبل إلى الجنوب، بالتعاون مع السراج، الذي أمدهم بالسلاح.. فكان شباب ضيعتنا يذهبون إلى الطيبة معقل الأسعد الذي يرسلهم إلى بانياس الجبل ـ السورية ـ ليعودوا ببعض قطع السلاح، أو من دونها، نظراً إلى أن ضرورات المعركة كانت تقتضي التركيز على مناطق أخرى غير الجنوب.

٢٠/١٠/٢٠٠٠م ـ ٢٢ رجب ١٤٢١هـ



الخروج من القرية إلى بيئاتها القريبة (٢)

محطات ما قبل النجف

.. وتعطلت الدراسة، فاغتنمتها فرصة لتعميق خبرتي في صيد العصافير على هامش العمل اليومي في التبغ زراعة وقطافاً الخ.. وبعد انتهاء مدة رئاسة كميل شمعون الذي رفض الاستقالة، وانتخاب فؤاد شهاب رئيساً بترشيح من جمال عبد الناصر، وقبول من الغرب والولايات المتحدة عادت الحياة إلى مجاريها، لكن الدولة لم تكن قد أعدت نفسها لإجراء الامتحانات الرسمية في الصفوف النهائية، فأجريت امتحانات الشهادة الابتدائية في شهر شباط، وكانت إحدى فرصي للنزول والمبيت في صيدا، في غرفة موظف في الهاتف، من قريتنا وفي منزل يهودي يدعى «موسى» أفلح في تعليم الموظف كيفية توفير عشرة قروش يومياً من ثمن إفطاره على الفول المدمس.

وتفكهت بحضوري فيلماً عربياً (ابن ذوات) لا أذكر من أحداثه شيئاً الآن.. ونجحت..

ولكـني لم أبـدِ رغـبتي في مواصـلة الدراسة، فأغريت والدي ووالدتي بالانتقال إلى بيروت، بعدما سبقني إليها اثنان مـن زملائـي الأقـارب، ذهـب واحـد مـنهما لتعلم ميكانيك الـسيارات والآخـر إلى الحـدادة، وأخـذا يحلمـان ويعدانني بـالحلم ويغـريانني بأجـرهما الشهري الذي يصرفان منه على شؤونهما الخاصة ويقدمان معظمه لوالديهما..

في غـضون ذلـك كانـت عائلة بيروتية مع فروعها، قد شاركتنا بيتنا الصغير طوال صيف الحرب.

وكـان فـيهم حفـيدة تـصغرني بـسنة واحـدة، افتتحت بالنظـرة الدالة على حياء وخوف ورغبة خالصة تمريني الأول علـى الحـب.. وكانـت آتـية مـن المديـنة عائـشة بـين صبايا ناضـجات، مـا جعلـها أكثـر خـبرة مـني وأقوى على كتمان مشاعرها نحوي، والتلميح بها أو التعبير مداورة عما يشبه في تعقـيده وكثـرة احـتمالاته المتناقضة، الكنية الكثيرة الوسائط الـتي يـصعب علـى غـير الخـبير واللمـاح والـيقظ والناضـج الوصول إلى حقائقها عبر مجازاتها.

وانـتقل الـوالد والوالدة مع شقيقتي برفقتي، وبالاتفاق مع زوج عمتي، معلم البناء، على أن يستأجروا معاً بستاناً في ضـاحية بيروت الجنوبية (سقي الحدث) يتولى والدي زراعته واستثماره لخبرته في ذلك، ويقضي أيام التعطيل الزراعي في العمل (فاعلاً) في العمارات التي يلتزمها صهره.

وبعد مشاورات ومحاولات عمل وتعلم مهنة (عند الكوى في إحدى المرات) استقر الرأي على أن أدخل إحدى المدارس الخاصة لأن المهلة في الرسمية انتهت، وذهبت إلى إحدى المدارس لأكتشف أني تأخرت كثيراً، وإن هندامي، بتواضعه، قد أثار ضحك التلاميذ وتعليقاتهم اللاذعة فقضيت في المدرسة ساعات ولم أعد إليها.. ووقع الاختيار على أن أتعلم مهنة (الخياطة) فانضممت إلى ورشة خياطة في رأس الخط في بيروت.. ربط المعلم إصبعي الوسطى مطوية إلى الداخل بخيط مدة أسبوع، لتعويدها على استخدام الكشتبان، وقضيت أسبوعين في (تطيير العصافير) أي إدخال الإبرة مع الخيط في قطعة قماش عبثاً لتعلم السرعة في استخدام الإبرة.

وقبل يوم عطلة الأسبوع الأول طلب مني المعلم أن أغسل سيارته، بعدما تكرر طلبه إلي إيصال الخضار إلى منزله، ولم يعطني على مدى شهرين أي قرش، وفهمت أن الأمر متروك لقدرتي على تحصيل «الحلوان» من الزبائن. ولم أفلح لأن رفاقي المتقدمين كانوا أشطر وأشد خبرة.

وذات مرة تحصل لدي مبلغ (٣٥ قرشاً) أي ما يعادل ثمن ساندويش فلافل و (كازوزة) حسب الحساب الذي أجراه لي جارنا «طوني» في البستان..

وأواخر الصيف كان خالي (حبيب) الذي عاد إلى المدرسة بعدما هجرها أربع سنوات وكان رفيقي الأكبر، قد قرر السفر إلى ليبيريا للعمل هناك وعز عليه أن يتركني ضائعاً، وهو يعرف قدرتي على التحصيل الدراسي، فأخذني من يدي وسجلني في المدرسة المتوسطة في النبطية، وأوصى بي المدير والأساتذة الذين كانوا يحبونه.

وقضيت أربع سنوات.. عرفت خلالها الأحزاب، ولم أدخل فيها. واشتهرت بـ «شطارتي» في اللغة العربية ومواضيع الإنشاء التي كانت تعاد قراءتها في الصف ما أغراني بتأسيس مجلة حائط للطلاب، وأغرى الطلاب بأن يسموني شيخاً، إذ أخذتها مأخذ الجد، اغتنمت مشيختي لأتهرب من الانتماء إلى أحزاب الطلاب.. في أثناء الدراسة قرأت نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبدالله وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة وسليمان العيسي وجبران وخالد محمد خالد وآخرين.. وغاندي.. و «خربشت» مسرحاً وقصة ورواية وشعراً يشبه الشعر في القليل من شروطه.. وما زلت مسكوناً بكتابة الرواية، ولكني محجوب عنها لأني أعرف شروطها الداخلية وشروطها الحرة المفتوحة على كل الآفاق والمحرمات، وأنا شيخ لا يمكنني أن أرتاد كل الأصقاع التي أعرفها أو أتخيلها أو أختلقها.. وهكذا حاولت التعويض بالقصة القصيرة، وعندما اكتشفت إشكاليتها المركزة والمتأنية من سياق

إشكالية الرواية عينه، رحت أركّز على السرد والحكاية في كل ما أكتب وأخطب وأقول.. ما أعطاني فرصة للتعبير عن حساسياتي ومطامحي الدرامية، ومن المدرسة المتوسطة ذهبت إلى دمشق بصحبة التلاميذ وبتشجيع من عدد من المعلمين للمشاركة في أعياد الوحدة ومشاهدة جمال عبد الناصر، الذي شاهدته ولكني انزعجت كثيراً من الخلاف الذي وقع بين البعثيين من التلاميذ والقوميين بعدما دبكنا معاً وغنينا (حموي يا مشمش)، ويومها قررت ألاّ أتعصب وأن اعتدل وأسعى إلى التسوية.. ومن المدرسة انتقلت إلى النجف بقرار هو أقرب إلى الصدفة أو المفاجأة منه إلى التصميم.. وما زلت حتى الآن أحس بأني أتورط في الخير مع حذري الشديد من التورط في الشر.

٢٣/١٠/٢٠٠٠م ـ ٢٥ رجب ١٤٢١هـ



أضغاث أحلام بين اليقظة والمنام (١)

وصلت النجف الأشرف خريف عام ١٩٦٣م، وأنا في الأشهر الأولى من العام الثامن عشر من عمري. وكنت قبل سفري إليها طلباً للعلوم الدينية، قد أحببت، في أول البلوغ أو قبيله بقليل، أحببت كثيرات، وأحببتهن كثيراً، أحببتهن حتى الحذر الشديد من أن تلامس يدي يد إحداهن، خوفاً عليها من الأذى! وكنا قد تربينا على أن القيم والنوايا لها معادل مادي لا يفارقها. عندما سافرت حزمت أمر القلب، وكأنه بيدي!. وقررت أن أقطع بينه وبين منازعه وعاداته، توهماً مني بأن الدين، الذي التقطت بعض مظاهره الملتبسة بالنقائض والنواقص، والذي لم أكن أعرفه، اكتشفت فيما بعد أنه بحاجة إلى معرفة دائمة وإلى تجديد المعرفة به والتجدد بها، وإلى إنجازه دوماً على موجبات العقل والقلب..، إذن فقد قطعت القلب وقطعت معه. توهماً مني بأن الدين يقع خارجه، ولا يحفل بنبضه، وأن المعرفة الدينية لها مكان حصري هو العقل، الذي يعقل، ويمنع، (ويمنع القلب أول ما يمنع)، لأن القلب يشطح، ولا يتقن الحساب، وله حساباته التي لا يعرف قواعدها حتى صاحبه، لأفاجأ بأن

الحب في المفهوم النجفي، وبمقتضى الدين، هو شرط الدين وشرط العلم وزيت العقل، ومن دونه يصبح العقل عقالاً ويصبح الإنسان خراباً، وتصبح الأرض يبابا.

في النجف، رأيت الحجب، والقطع والفصل (إلاّ في حدود الضرورة)، بين نصف المجتمع ونصفه، متحدراً من العادة التي كثيراً ما تتخطى الدين إلى ما قبله، وإلى ضده أو نقيضه أحياناً، رأيته يشعل الرغبة، ويعيد للمرأةَ، من طريقٍ آخر، من طريق القلب عندما يصغي إلى الجسد ويصغي إليه الجسد، وتشتبه الحاسة بالخاطرة، أو الجانحة بالجارحة، يعيد للمرأة بعضاً من حساسية موقعها الطبيعي في نظام الكون والحياة والمعرفة. فلا تبقى وظيفتها الحصرية والمثلى هي خدمة علم الرجل، بل تصبح ضرورة توازن واتزان عصبي ونفسي وعلمي وأدبي واجتماعي وسياسي واقتصادي.. إذن لها المجد الذي لا يعترفون به إلاّ مداورة، ولا يلبثون أن يقصوها عن صعيد العلم، لتعود مدججة بمركزيتها وبمخزونها التكويني الفطري، الذي يعادل العلم كثافة ويتجاوزه أثراً، حتى إذا ما عاقرت العلم أثبتت أن خصب الرحم يفضي إلى خصوبة المعرفة.

ويأتي المناخ الحار جداً والبارد جداً، وشؤون الحياة اليومية، واقتصار نظام العلائق اليومية على نمط فئوي مشوب أحياناً بألوان خفيفة من طيوف فئات أخرى (مدنية).. لتضيف

إلى الرغبة المشتعلة حسابات عيش واستقرار وتفرغ أو فراغ، يبالغ فيها البعض للحصول السريع على الشريكة.

كتب أحدهم إلى والده في لبنان يقول له: إن القمح في العراق يزرع موسمين، فلم يفهم الوالد مراد ولده وحمد الله على النعمة، فعاد الولد وكتب إليه قائلاً: إن النعجة في العراق تلد مرتين في السنة، فرد الوالد قائلاً: تبارك الله أحسن الخالقين.. فضاق صبر الولد وكتب إلى أبيه قائلاً: زوجونا بسرعة. ولو بـ.. فزوجوه.

وكان صحبي من الشيوخ الشبان أو الشبان الشيوخ قد ضحكوا ذات ليلة وتهامسوا في وتغامزوا علي.. سألت: ما الخبر؟ فقالوا: أصدقنا القول، وإلاّ كان مصيرك إلى سفر: أنت لست من أسرة مشايخ، لم يرسلك أهلك إلى النجف تأميناً لاستمرار الأسرة وإكمالاً لمسيرتها وحفظاً لموقعها، إذن ما الذي أتى بك؟ لا بد أنك أحببت صبية من صبايا ضيعتك ولم ير فيك أهلها كفؤاً لها، وعدمت الطريق إليها، فأتيت إلى النجف، لتذهب منها باغراءات اللباس والملبوس من دين وعلم وموقع اجتماعي ويسر في حدود ما يتيسر، فتصل عن طريق النجف إلى مرادك ومرمى فؤادك.. سألت: وهل حدث مثل هذا مع غيري؟ قالوا كثيراً.. فأكبرت الحب وما يصنع، ثم قرأت قول الإمام الصادق (ع): «وهل الدين إلا الحب» وشعرت بأن ما في داخلي حق ومشروع وحقيقي

عندما قرأت قول الرسول الأعظم، المصطفى الحبيب (ص) «استفت قلبك، وإن أفتوك، وإن أفتوك».

وهكذا عشت سنتين أحلم بالزواج، بالثوب النظيف والطعام الشهي، والذي سوف يكون بالقطع شهياً بالمقارنة مع اللبن الحامض والبندورة والخيار.. خياراتنا الغذائية شبه الحصرية؛ إلاّ إذا كانت هناك مناسبة و (قيمة) ودعينا إليها وقضينا لبانات الروح والجسد معاً. وعدت في الصيف الأول إلى لبنان سعياً وراء الزواج فلم أوفق لأسباب عدة. وفي آخر الصيف الثاني حصل التوفيق.. وبعد الزواج أخذت أحلم بالولد، لم ينغص على حلمي ألاّ مترتبات الزواج من أجرة المنزل إلى المصاريف اليومية الراتبة. ولم أكن محظياً لأنال عطف اصحاب القرار في الشأن المالي في الوسط اللبناني، لأني كنت قادماً من غير سياق المشيخة التقليدية، كما كنت على قدر من النزوع إلى الاستقلال والحرية والأسئلة التي تظهر لأهل المجتمعات القارة، وكأنها انحراف يستدعي قمعاً ومنعاً لا حواراً.

وبعدما جاءني الولد صار الحلم يروح ويجيء بين سريره ومضجعي، بين صحته ومرضه، بين نومه وأرقي، بين ضحكه وبكائه وخوفي وفرحي، ويتجول مرتاحاً بين كلمة ملثوغة وكلمة مقلوبة تكسر نظام اللغة وعمودها وتعلن الشعر والورد.

في هـذا الجـو المفتوح على حوارات الحياة وجدالاتها وسـجالاتها.. حـدثت الحرب في حزيران عام ١٩٦٧ في يوم امتحانـنا في مـادة البلاغة (المعاني والبيان والبديع).. وكانت النكسة التي كانت قبلها النكبة.. فاستولى علي حلم التحرير.

كانـت زوجـتي صـابرة مقـدرة لظروفي وأحلامي، من دون أن تـشترط علـيّ تقديـر ظـروفها وأحلامهـا حتى إذا ما قـررت أن أقدر ظروفها، أي بعد خراب البصرة، وبعد أن لم يعد بإمكاني مراعاة ظروفها وتحقيق اليسير من توقعاتها فضلاً عـن أحلامهـا، كانـت الفرصـة قـد فاتـتني كمـا فاتتنا فرصة التحريـر.. وكانـت، أي زوجـتي، تمسك بي خشية علي من الـسقوط عـن الـسرير، وأنـا منتـصب القامـة مـرفوع الهامـة وسـطه، وسـط اللـيل، لـيلة بعد ليلة، وسبابتي تلعب بهواء الغـرفة الـضيقة كمـا يلعـب الـشاعر بهـواء الأحزان، وأعلن الجهـاد حـتى تحريـر آخر شبر من أرض فلسطين. ولا أنسى لـواء الإسـكندرون، كما أخبرتني زوجتي، ولا ارتيريا، وقد أمر في بعض الليالي على الأندلس «أندلس الأعماق، أندلس الطالع مـن دمشـق يحمل للغرب حصاد الشرق» ـ أدونيس ـ

أضغاث أحلام هذه الحياة السريعة (٢)

مع بدء العمليات الفدائية، وسماعنا الدائم الدؤوب للشيفرات في الإذاعة، ذهبت من الكلام في الهواء إلى التكنولوجيا الناجعة والعمليات المدبرة، صار حلمي أن أخوض عمليات عسكرية فدائية أخطط لها بسرية تامة وإتقان وإبداع لتدمير العدو في لحظة واحدة، لم أكن أعرف مصادر علمي العسكري، ولم أكن، بعد قد قرأت كلاوز فتز وكارلوس مارغويللا، وعندما قرأتهما كان أثرهما علي أقرب إلى أثر الشعر منه إلى أثر علم الحرب، «أو حرب الغوار».

وكانت الأهداف تتغير بين ليلة وأخرى، بحسب تصوري الساذج لمركزية الهدف «ما زالت كذلك» أو بحسب مزاجي، من الكنيست اليهودي إلى مجلس الوزراء العبري، إلى الهستدورت الإسرائيلي، إلى قيادة الأركان الصهيونية، إلى مستودعات الذخيرة، إلى المفاعل النووي في «ديمونة» وعلي وعلى أعدائي يا رب.

ولأن هذه العمليات تحتاج إلى قوة بشرية ماهرة ومعبأة ومدربة لا قبل لي بها، قررت ذات منام أن أختزل المسألة

وأختصر الطريق بأن أتحول بقدرة قادر، إلى إنسان «بالستي» إلى صاروخ هائل وخرافي (ربما كان ذلك مترسخاً من الحالة الكوسموبوليتية التي أتتني عدواها ممن عاشرت من القوى القومية واليسارية والأممية والإسلامية العالمية).. إذن صاروخ عملاق موجه، مطيع وطني وفعال، ينزل بدفع ذاتي، أول الفجر في ليلة قمراء، على قيادة الأركان الصهيونية فيدمرها حجراً حجراً، وخريطة خريطة، وإحداثية إحداثية، وفرداً فرداً، دفعة واحدة في ثانية أو أقل، قبل أن يرتد إليك طرفك.

ويعم الإرباك الشديد صفوف العدو، وعقله وجيشه وإداراته وأمنه، وجميع مؤسساته الرسمية والمدنية والأهلية، وآخذ أنا، على مهل، باصطياد المواقع الحساسة في الكيان الغاصب، وهي تتهاوى أمام ضرباتي وكأنها علب «كارتون» وأعصابي متماسكة وهادئة وباردة، تغمرني الثقة، ويجللني التواضع، والحرص الشديد على أن أبقى حياً لأرى أثر صنيعي في الناس والتاريخ، أو أن استشهد، إنما بشرط أن يكون بإمكاني أن أرى الاحتفاء بجسدي الطاهر، والاحتفال بفعلي الرائد، وأسمع الكلمات والقصائد التي تقال في.. وأستمتع بذهول العالم، وجهله اسمي، وكل ليلة، بعد العملية، كنت أعود إلى قريتي، لا إلى النجف، لأرى أمائر الإعجاب المرتسمة على وجه أمي وأبي وأترابي والمختار

وأعضاء المجلس البلدي.. الله.. الله.. إنهم لا يعرفون أني وراء كل هذا المجد القومي!! فما حالهم إن عرفوا؟!.

بعد مشروع «روجرز» والحرب بين المقاومة والجيش الأردني، أخذ الحلم يختلط بالمنغصات ولم يلبث أن أصبح ملتبساً بالكابوس، فقد حلمت ذات ليلة بأني جالس في الصف الأمامي في استاد عربي، والمناسبة هي احتفال عربي ـ إسرائيلي مشترك بالذكرى الأولى للوحدة الاندماجية، والعياذ بالله، وفجأة أخذت الطائرات الإسرائيلية من نوع «فانتوم» و «سكاي هوك» تغير على المكان وتدكه، وتسقط منشورات تعلن أن حركة انفصالية قد حصلت بقيادة موشي دايان!

أويت إلى عب زيتونة قرب منزلنا في جبشيت، كنت أختبئ فيها عن عيون أترابي لعباً، وعن أعين أمي خوفاً من عقوبة على إهمالي في نظافة البيت.

عندما تحولت أحلامي إلى كوابيس متصلة ومتواصلة، هربت إلى القرآن والشعر والتاريخ والحوار اليومي والجدل المتوتر، والمتابعة اليومية، ورفع منسوب الوعي السياسي الذي كنت أفتقر إليه كثيراً، وعندما تعاطيته لم أغتن منه أو به كثيراً، على عكس ما سجله علي بعض الإطلاقيين من خطباء الإسلام السياسي، من أني ذهبت إلى النجف على خلفيات

سياسية قومية واشتراكية، في حين كنت عروبياً بما هي العروبة انتماء ومكون ومسلماً بما هو الإسلام إيمان يذهب عميقاً في الداخل، ويزهر في الخارج، ويزدهر بالمعرفة والمحبة، ولم أكن أميّز بين حزب أممي وآخر، أو حزب قومي وآخر، أو حزب يميني وآخر، أو بين حزب إسلامي وآخر، كما لم أكن معنياً بالتمايزات من دون أن ينعكس ذلك موقفاً تفصيلياً من أهل الأحزاب وأفرادها.

إن السعي إلى تحصيل الوعي أفضى بي إلى أحلام اليقظة ربما لأن لها علاقة أقل تعقيداً وإشكالية باللاوعي والمكبوت والمسكوت عنه من الإحباطات، وبالطبقات الغائرة في التكوين والوجدان ومنابع الوجع والألم والتباريح التي لا تبرح وهكذا أخذت أختم صحواتي المكدرة بحالة بين اليقظة والمنام، وأخوض عملية التحرير يومياً بأشكال وسيناريوهات مختلفة وأحياناً متناقضة. وقد يتطور الأمر إلى وضع شروط على عملية التحرير، قد تطال السياسة اليمينية واليسارية والأنظمة التي أراها معيقة تهدف ـ الشروط ـ إلى القضاء عليها وتصفيتها سياسياً أو مادياً، إن اقتضى الأمر، لكن كراهيتي لمرأى الدم الداخلي كانت تجعلني أتراجع وأخفف شروطي.

بعد عودتي إلى لبنان عام ١٩٧٢، بدت لي الإقامة الطويلة في الأحلام أمراً مضنياً، فدخلت في مشروع أدبي

ثقافي «منتدى أدباء جبل عامل» لكن صاحبي أيقظني من نومي على أزيز الطائرات المغيرة على مخيم النبطية الفلسطيني، قبيل موعد على ندوة نقدية للشباب في نادي الشقيف، وأدركت أن الحائط مسدود فذهبت إلى مزارعي التبغ، إلى أمي، أعرض عليهم وعليها زيادة على الشراكة في الهم والتعب والسهر والمرارة وقلة المردود والشحوب والوهن، المطالبة بحقهم، فقتل بعضنا وسجنا، وأحبطنا، وتاجر بنا بعضهم وصادرنا آخرون، فقلت في نفسي: لنعد إلى التحرير مدخلاً إلى التحرر، وسبيلاً إلى الكرامة لأن إسرائيل هي العقدة، وفلسطين هي القضية، وانخرطت في المقاومة وفي الجدل اليومي بين الفعل المحرر والوجع المبرح وأصبحت قناعاتي مثالاً للتندر، حتى سألني زميل وصديق: وماذا تريد؟ قلت: يا أخي حرروا فلسطين بمساعدتي أو من دونها، وأنا أذهب لأشتغل مبيضاً للنحاس.. وبقيت موغلاً في أحلامي، وغير مواظب، أو قليل الاكتراث بشؤوني الخاصة، وبحاجات الأهل والجسد، أريد فلسطين وأنتظرها وأضرب لها المواعيد، ولا تصل ولا أصل. ربما كان هذا الآن كلاماً يندرج في قائمة الأدلة على (الفساد) لكن الوقائع والفتن والحروب الداخلية وداخل الداخل، وداخل داخل الداخل، والتكشفات

وظهور العورات البنيوية في عمارتنا الفكرية والسياسية، عادت فوضعتني على مسار الإحباط.. فماذا أفعل؟

أنـا مدمن أحلام.. حولت حلمي إلى اتجاه آخر، اتجاه تنموي نهضوي تربوي شامل، وتدبرت لي مشروعاً.

٣ رمضان ١٤٢٣هـ ـ ٨ نوفمبر ٢٠٠٢م



أضغاث أحلام بين اليقظة والمنام (٣)

تستمر، كما هو معروف، الأزمات والحروب والتراجعات والانكشافات السياسية والفكرية والاقتصادية والفنية والأدبية والسلوكية والقومية والطائفية والوطنية.. فماذا أفعل؟ قالوا لي: يا رجلٍ روح دبر حالك، كفاك وهماً وإهمالاً لشأن أهلك وغراماً بالفقر.. طاوعتهم.. فماذا فعلت: غيرت سياق الحلم مرة ثانية.. لأني مريض بالحلم.. شخصنته هذه المرة، خصخصته مع بداية الحديث عن الخصخصة، غير أني أبقيت على شيء من الرومانسية وعمومية المنفعة في البستان الواسع، الذي اخترت له أرضاً في «الوطى» بين قريتي وقرى حاروف والدوير وأنصار وعبا والزرارية، وهو مكان كنت منجذباً إليه، وعلي حب مشوب بالكره أحياناً، بسبب متاعب زراعة التبغ الليلية النهارية والتي تستغرق ١٤ شهراً من السنة الواحدة، لأنه وعلى مدى سنتين من فتوتي، استأجرنا رخصة تبغ من قرية عبا المجاورة وزرعنا، كما يقتضي قانون الريجي، زرعنا تبغنا في وطى عبا وكنت أراه ليلياً، وأنا أغالب النعاس فيغلبني وأنام على ظهر الدابة، أو في طرف الحقل، تحت شمس الصباح الحادة، ومرة أفقت

متورماً، ظناً أنها لدغة أفعى والله سلمني، وكنت أرى «الوطى» غابة من اللوكسات والأنوار المتصلة تتخللها أو تقطعها «العتابا والدلعونا والميجنا» تطلع من قلوب الصبايا القاطفات قبل حناجرهن، وتحمل تعبهن ورائحة أحلامهن بالخلاص والراحة والنوم الهانئ وبالفارس الآتي ولو على ظهر حمار أسود.

وأخذت أقضي ساعة أو ساعتين من ليلي قبل النوم غارقاً في شؤون بستاني المرتجى.

بيت جميل ومتواضع في الوسط أمامه مساحة مخصصة لسيارات الزوار، ومساحة أخرى بمثابة مصطبة للسمر وجلسات الصباح والأصيل، متصلة بمساحة خضراء (كازون) ومسيجة بأنواع من الورد، ثم صف من أشجار الظلال تليه مساحة مخصصة لزراعة الخضار الصيفية والشتوية والبين بين، من دون بيوت بلاستيكية، ونقاش طويل ذاتي حول المساحة المخصصة لكل صنف منها وللأصناف الفرعية.

ويلي هذه المساحة مساحات من الأشجار المثمرة خيمة من الكرمة، والسياج الداخلي من أشجار الرمان واللوز، تعرض أشجار الكرمة عليها وفيما بينها على الطريقة الريفية القديمة، أي الفوضى الجميلة، مع تخيل أو استحضار لخصل العنب الصغيرة المختبئة خلف الأغصان والمنسية

حتى الخريف، حيث يصبح الأبيض أحمر من شدة النضج وموشوماً بالسلاف بحيث يحسن العناء في البحث عنه والظفر به.

وبعد السياج نصل إلى مشكلة ترتيب الأنواع الأخرى، صفوفاً أو مربعات، وفي أولوية تقديم أو تأخير صنف على آخر، زيتون بلدي وطلياني وزغلولي، وتين عسلاني وبقراطي وبيضاوي وعصفوري وحمراني وسوداوي.. وإفرنجي مبكر وشتوي متأخر، وصيداني حرصاً على النكهة الحامضة، مع تنويعة من الخوخ والمشمش والزعرور والعناب والدراق والإجاص والتفاح والليمون والبرتقال وكم نخلة.. وهلم جرا.. وفي طرف من أطراف البستان بيوت صغيرة وشرعية للفلاحين مع تصور كامل لنمط العلاقة معهم، حياة مشتركة، كالعيش المشترك وحوار كالحوار الوطني، أو حوار الحضارات، وضمان صحي واجتماعي وكفالة بتعليم أولادهم حتى المرحلة الجامعية، من دون توقف عند مشكلة عدم إمكان اشتغال المتعلم الجامعي بالأرض، والسعي لتزويج البنات والأولاد وتجهيزهم، ومشاركة تامة في المأكل البلدي، والملبس والمشرب والشاي والعمل واللعب والنزهة.. وعلى مقربة من بيوتهم مع مراعاة الأمور الصحية والبيئية، مزارب للحيوانات اللبون (بقرة أو اثنتان) وقطيع أغنام وماعز.. وحملان وجداء كل سنة

مـع إمكـان ترطيب الجو بعدد من الأرانب وسعدان إذا أمكن الأمر وغزال وغزالة.. وعلى مقربة من عالم الحيوانات اللبون قفـص للطـيور الداجـنة، دجـاج بلدي بالدرجة الأولى وأوز وحمـام، ودجاج فرعوني، وحجل وترغل وحساسين وبلابل وفـري وسـلوى ويمـام وقطـا وكـناري وزوج مـن الببغاوات الرمادية الذكية، ورف من طيور الحب من كل الألوان.

وفي الخـتام لا بـد مـن اختـيار وسـائل الـنقل، دراجة هوائية أو أكثر، سيارة «بيك آب» وعربة خشبية «طنبر» يجرها حمـاران قويان مدللان ومذللان، وسيارة «فولسفاغن» بيضاء وعـدد مـن القطـط والكلاب البلدية.. أما الأيام فلي منها مع الفلاحـين في البـستان أربعـة ايـام صـافية، ويـوم الجمعـة للخـواص من الأصدقاء وأهل الفكر والسياسة، ويوم السبت للأهـل مـع لـيلة الأحد، للأولاد وللأحفاد ومن يتصل بهم، ويوم الأحد مفتوح.. ويرتاح الجميع في الطابق السفلي المدفأ شـتاء، وفي الخـيمة الـتي تلـي المـنزل صـيفاً متكـئين علـى الأرائـك مـستلقين على الزرابي، يروح عليهم ولدان مؤدبون بالماء والشاي والقهوة والزوفة والكاكاو والزنجبيل والزعفران وعـصير البرتقال والعنب والرمان.. وأمامهم الصواني حاشدة بالفواكه السائغة.

ويـأتي طعـام الفطـور متأخـراً قليلاً، طمعاً بالمزيد من الاسـتهلاك بيـضاً بلـدياً وعسلاً غير معلوف ولبناً ولبنة وجبنة

وكشكاً وزبدةوزعتراً أو سماقاً وزيتاً بلدياً مصفى، ومربى وكبيساً ومكدوساً الخ.. وبعد الآذان والصلاة وتفقد البستان، من أوله إلى آخره ومداعبة الحملان والجداء والببغاء والغزال والسعدان والأرنب والركوب في الطنبر، يأتي دور الغداء ويشتعل الحطب اليابس ويعلو الدخان مفعماً برائحة الشواء.. ثلاثة أيام هكذا.. وأنا أروح وأجيء بين الصحب مستبشراً ضاحكاً ممازحاً سائلاً عن الطلبات وعن الراحة، صحتين ويا هلا.. وقليل من الوحل الأحمر اليابس يزين قميصي وبنطالي الكاكي والجزمة الجلدية السوداء المعدة للخوض في الوحل. إبان السقي أو القطاف أو التعشيب.

وخلال تركيب الحلم أو تدبيجه أو نظمه أو تأليفه.. يمر ببالي الأدب والشعر والشعراء والنقد فأعين يوماً من كل شهريأتي فيه الشعراء والأدباء والفنانون والمفكرون من كل المشارب والمذاهب، توكيداً لحسن التعدد والحوار والعيش المشترك ويأكلون لبناً وبيضاً ولحماً بلدياً ويقولون قولاً وطنياً وذاتياً وزراعياً.

منذ سنتين وبعدما تبين للمرة السادسة أن السياسة في لبنان ليست استمراراً، بل هي قطائع يتخللها تصحيح بالخطأ الأكبر، دأب اليأس فينا، ولكني قررت المكابرة، فأخذت أحلم حلماً أكثر تواضعاً وخصوصية، ببيت في مساحة «دونم» واحد على مرتفع من مرتفعات ضيعتنا، مكون من

غـرفة نـوم فـيها مكتـبة صغيرة، وصالون متوسط وغرفة لنوم الـضيوف إن تأخـروا وكانـوا قلـة، ومـصطبة شـرقية صغيرة للعـصاري، وغربية للصباحات، وأمام البيت خيمة كرمة من نوع واحد وشجرة تين عسلاني، وعدد قليل من أشجار اللوز والـرمان، للأحفـاد، ومـساحة للنعناع والبقدونس والهندباء والبقلة الحمقاء (الفرفحين أو البويردة) وكفى.. ويوماً، خلال هـذه الـسنة الفارغـة والمغلقـة علـى الـسنة التي تليها، على المـستوى الوطني والقومي، كنت غارقاً في حلمي المستقبلي الأخـير، أو شـبه الأخير، والله يستر! فاقتحمت زوجتي عليَّ المكـان والـزمان والحـال وطالبـتني بمـبلغ مـن المـال وفـاء لاستحقاق مستعجل. فوعدتها أن أراجع في جريدة السفير ثم في الـنهار ثم في الحـياة لعلّي أجد شيئاً وإلاّ صبرت أسبوعاً، ريثما تكـون الاسـتكتابات قـد نـزلت وحـياً إلى الحاسبة في الجـريدة.. وكانـت الـرطوبة قـد بلغـت مـبلغها في بيروت، والغـبار المتصاعد من ورش الحفريات قد سد الأفق والرئة.. فقالت زوجتي: لو نذهب إلى الضيعة.. وتذاكرنا معاً أن موقع بـيت أبي في الـضيعة، في وسـطها قـرب الـساحة وضـجيج الميكـروفونات اليومـي لمناسـبة ودون مناسـبة، يضيق علينا فرصـة الـراحة والهدوء، فقضينا في النهاية شهراً من الصيف في الضيعة. ولكننا انتبهنا إلى أننا لو كنا انتبهنا لبنينا بيتاً صغيراً لنا مستقلاً في الضيعة لراحتنا.. وكان ربك يدبّرها.

وعـندما أخبرتها أني ما زلت أحلم بذلك البيت الصغير والبعـيد والجمـيل، قالت لي: أما أنا فإني أندم، وأجد مبرراً للاسـتمرار في ندمي، ولا أجد مبرراً لإقامتك على الأحلام، أنـا ماضوية أستذكر وأنت مستقبلي تتوهم ناسياً أنك «الصيف ضـيعت اللبن» وترجمتها بالعامية «قال عملناك مسحر» فقال: «خلص رمضان».

توقـف الحلـم الموصـول بالتكوين الريفي الذي يشكل بيئة ملائمـة للنوسـتالجيا المخـصبة بالإحباط والإصرار على اختـراع الفرص التعويضية بواسطة المخيال الذي لم يمرض، هـو المـرض، وقد عاد مخيالي منذ أشهر إلى عمله المعتاد، ولكـن علـى طريقة السبع الذي رأى ظله العظيم صباحاً فقرر أن يأكـل جمـلاً وأخـذ يـبحث عن الجمل، وكان حجم ظله يتـضاءل مـع مـرور الـزمن وارتفاع قرص شمس في السماء، حـتى كـان وقـت الـزوال واسـتواء الـشمس علـى عمودها، فاختفـى ظـل الأسد فأخذ يبحث عن فأر.. آخر أحلام يقظتي الـذي وقعت فيه هو أن اصبح فجأة، ومن دون لياقة بدنية أو تمـرين أو منـشطات كيميائـية أو إيديولوجـية عـداء أسطورياً فأحـصد كـل ذهبـيات الـدورات الرياضـية العربية والعالمية. ولكـن ولـدي الخـبير بـشؤون الرياضـة. أكـد لي أن ذلـك مـستحيل، لأنـه لا يجـوز أن أشـترك إلاّ في عدد محدود من سـباقات العـدو، حسب المسافات وتصنيفات دولية معروفة

وملـزمة.. إذن سـيكون بإمكاني الحصول على عدد محدود.. وإلاّ فقـد كـان في نيتّي أن أفتح الحلم على كل ألعاب القوى مـن الـسباحة بكل أشكالها، إلى رمي الكرة والقرص والرمح والقفـز العـريض والعـالي فـضلاً عن الأكروباتيك أو الجمباز الـذي أتقـنه مـن زمـان.. الجمـباز مصطلح يأتي من الفارسية واصـله: جـان بـاز.. أي اللاعب بروحه.. ومثله سر باز، أي جندي، أي لاعـب برأسه.. ربما أضيفت رياضة العض على الأصابع إلى المباريات وحينئذ بواقعية، يصبح فوزي أكيداً.

٤ رمضان ١٤٢٣هـ ـ ٩ نوفمبر ٢٠٠٢م



صورة النجف بين التاريخ والزائر والطالب(*)

(١)

كانت النجف، المدينة العراقية قد قامت على جيرة ضريح الإمام علي، والحوزة العلمية التي التمست البركة من ذكراه، فابتنيت في حيّيْن، الأعظم منهما حي الأموات، المقبرة، وادي السلام، وحي الأحياء، الذي كان إلى أربعين سنة خلت، أشعة من عمران، تشع من مركز الدائرة الضريح، تبدأ منه وتعود إليه، وتعلو القبة فوقه والمآذن حوله، شواهد للمدينة وشواخص، تطل من بعيد فتحدث أنساً في النفس وأماناً.

والنجف على مقربة من نهر الفرات.. ولكنها كانت تشرب من آبار مالحة، تنِز نزاً، حفرها النجفيون القدامى بأيديهم، لتكون مصدراً للرطوبة إلى «سراديب» بيوتهم، التي يصطاف أولو النعمة فيها، وعندما ضايقتهم الحكومات المركزية، برجال أمنها (العسس والعيون) وشرطتها، اتخذوا

(*) هذا النص بفقراته الأربع مكتوب في أيار سنة ٢٠٠٠ فأرجو أن يؤخذ ذلك بالاعتبار.

من هذه الآبار مخابئ، وهي، يقولون: موصولة في ما بينها، من قيعانها، بحيث تشكل شبكة من الدروب السرية تشبه أنفاق «المترو» الحديث، وتستعصي على غير ذوي الخبرة والسابقة والشجاعة.

وإذا لم تنز هذه الآبار بما يكفي، اشترى النجفيون ماءً من مكارين، يأتون به من الفرات (في الكوفة) على عرباتهم الخشبية التي تجرها الحمير، وسواء كان الماء المقتنى من نزيز البئر أو ممتوح النهر، فإنه دائماً يكون (خابطاً) يكثر فيه التراب، ويصبح غير مستساغ لأشد النَّاس ظمأ، ولذا كانوا يعالجونه بوضعه، ليوم وليلة أو أكثر، في «الحب» وهو وعاء عظيم من الفخار، وينتظرون إلى أن يرسو التراب وحلاً في قعر الحب، ومن أسعده حظه عجل صفاء الماء باستعمال مادة كيماوية ينقعها فيه (في الحب) تسمى «الشّبة».

كانت النجف كما هو واضح، أو قد يكون واضحاً، فيما تبقي، أن يكون قد تبقى شيء منها على قدمه الآن، كانت موصولة المنازل والحواري والأزقة، يضيع فيها الغريب، يعرف من أين يدخل فيها ولا يعرف من أين يخرج منها، وقد نصحني أحدهم ممن درس فيها قديماً، أن أستعمل الفحم في «تعليم» الحواري والمنعطفات التي أحتاج إلى المرور فيها، كان الرجل الطيب قد غادرها في أوائل الأربعينيات، ولم يعرف ما جرى عليها من تطوير، إلى ذلك

فقد عرفت أنَّه كان بسيطاً، أبسط مني، وضعيف الذاكرة، وأنا أرهقتني ذاكرتي بقوتها وحرمتني من كثير من النوم الضروري لصحة الروح والعقل والوطن والأمَّة والجسد.

أنا لم أحتج إلى الفحم، ولم أحرج إلاَّ مرات قليلة، قصدت فيها صديقاً مقيماً في القديم، يطل على الجديد، وضعت، وعندما حكيت لصحبي حكاية تيهي، حدثوني عن حكمة نبتت على شبكة هذه الحواري قالوا: كان في سالف الزمان طالب من أهل الشرق في العراق (شروقي) ضعيف الذاكرة بطيء الاستيعاب، درس طويلاً في كتب الحوزة ولم يفلح وظل يراوح، ولم يحسن حفظ الطريق المؤدية إلى منزله، فاشترى تبناً ورشه على طول الطريق، وعندما اكتشف أطفال النجف المشهورون بشقاوتهم، أمره، أتوا بتبن كثير، رشوه في كلِّ الحواري، وقضى شيخنا ليلته، وهم يراقبونه، يدور في المدينة دوران الناعور، ولم يجد سبيلاً في الصباح، إلاَّ أن يستنجد بأحد أصدقائه ليدله على بيته، بعدما التقاه صدفة ذاهباً إلى درسه مبكراً، حينئذٍ قرر الشيخ الكف عن طلب العلم، فحزم أمره وغادر النجف قاصداً أهله، وفي الطريق جلس يستريح ويشرب من بئر معمولة للمسافرين، فلفت نظره أثر عميق في «خرزة» البئر الصخرية، استطاع أن يعرف أنَّه من أثر الحبل عليها في صعوده وهبوطه. فتساءل/الحبل الضعيف يؤثر هذا الأثر في الخرزة، وأنا لا

يؤثـر فيّ الـدرس المتكرر! وهل أنا أصلب من الصخر؟ إذن أعـود وأصبر.. عاد وصبر وأصبح عالماً كبيراً، ويزيد بعضهم ويقـول: أصـبح مـرجعاً.. ويـستمع القـوم ولا يتغير في الأمر شـيء، يبقـى أهـل الجـد والمثابـرة علـى جدهم ويبقى أهل الكسل والفراغ على كسلهم!

لقـد عـنى لي هـذا الكـلام في مـا عـنى، أنّ البقاء في الـنجف، للدراسـة، مفـتوح علـى خمسين سنة، إن لم يكن أكثـر، المهـم أن تـصل في النهاية، في نهاية الطريق أو نهاية العمر، فإن لم تصل بالعلم وصلت بالتقادم ومرور الوقت.

وقالوا لنا: إنَّ النجف كانت حرّة حرّاء، جرداء، لا يمر بهـا طـير مهاجـر، أمـا الطـيور المقـيمة، كعـصافير الدوري والـيمام، فـإنّ أكثـرها كـان يصيف في الكوفة، والويل للقلة المتبقية إن خرجت في بعض ساعات النهار للنزهة أو الرياضة أو طلـب الطعـام أو الشراب أو العلم، فإنَّها سرعان ما تدوخ وتقـع في أيدي الأطفال الأشقياء، الذين ينتفون ريشها حية، لأنَّهـم متوتـرون من الحرارة، أو يسيّخون لها «قاراً» يشوونها علـيه بـبطء شـديد حـتى تـزهق أرواحهـا، كما يفعلون ذلك بالفئران وصغار القطط، التي تتحول كبارها إلى قطط وحشية جراء ما عانته من تلك الشقاوات. أمَّا الكلاب، فهي لا تخرج إلاَّ لـيلاً، إن ساء حظ أحدها واضطر للخروج نهاراً، فإنَّهم ـ الأطفـال ـ يدفعون به تدريجاً إلى زاوية من الزوايا يحاصرونه

فيها، ويقتلونه بالطوب. ولا ينجو من عذاباتهم إلاَّ حمام الحضرة الأزرق واليمام، لأنَّه مبارك بالحضرة وصاحبها، وهم لا يأكلونه خوف العار، وإن سوّلت لبعضهم نفسه المستهترة في وقت ضيق شديد، أن يذبح حمامة أو يمامة، فعل ذلك سراً حتى عن زوجته وأولاده، خوفاً من العار، ويتحدَّث النجفيون عن شخصيات مرموقة، كان قد وصل بها الفقر إلى حد أن أكلت من حمام الحضرة أو يمامها، يقدِّمون ذلك شاهداً على المعاناة وعلى النعمة بعد النقمة الشديدة.

حمام الحضرة ويمامها، يعشش في جدران البيوت وعلى أغصان الشجر القزم في حدائقها الداخلية، بحيث يكون في متناول الفتية، ولكنهم لا يزعجونه، بل ييسرون له المأكل والمشرب، وإذا ما اشتد الحر افسحوا للطيور أن تشاركهم ظلال الغرف، وتبرعوا بنقل فراخها إلى الداخل توسيعاً عليها.

عندما قصدنا النجف.. وجدنا مدناً أخرى، تقوم حولها مرتبة في مربعات تتخللها شوارع عريضة، «مبلطة» بالقار. وفيها ماء مسال «خابط» للحدائق الخضر، وصافٍ للشراب.. كانت النجف القديمة، وما تبقى منها، ومعلوماتنا أنه لم يبق إلاّ أقل القليل، كانت موصولة شكلاً ومضموناً، كالأواني المستطرقة، الفرح الخاص فيها عام وكذلك الحزن، والخاص عام، حزناً وفرحاً وزاداً، في السعة وفي الشدة، أما

الآن فلا يكاد الجار يعرف جاره، وإن عرفه وسألته عنه نفى علمه، والأفراح والأحزان زمّت، أصبحت تقام سراً، وكذلك أصبح الأكل سرياً.. وكانت النجف تنام على السطوح، هي سطح واحد، مفصول شكلاً بجدران خفيفة من الأجر، ومباح لليل والسماء والنجوم والقمر والحب السري، فإذا اشتد ضوء القمر كان لا بد من المبالغة في الستر حياء وخفراً، ولكن السمر يستمر على حاله، بل ويزيد حلاوة.

أحياؤها الجديدة الآن، موصولة في حدود المربعات، جدراناً وأسطحاً، ولكن أهلها لا ينامون على السطح خوف التواصل، يساعدهم على ذلك، الكهرباء وآلات التكييف.. النجف الآن تنام في المخادع على الهواء المجلوب مشبعاً برذاذ الماء، بعيداً عن القمر.. وسراديب النجف القديمة، إما أُزيلت وإما أهملت، ولا جديد.. لأنّ التكييف أيضاً ألغى الحاجة إليها.. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ أساليب الأمن وأجهزته قد تطورت كثيراً، ولم تعد السراديب والآبار الموصولة كافية لإخفاء المجرمين أو المجاهدين.. ربَّما تكون قلوب الناس أيضاً، بفعل الأمن قد تباعدت، فلم تعد بئر تفضي إلى بئر، ولا سرداب يدلف إلى سرداب.. ولا قلب يصب في قلب.. وتعطلت مجالس الشعر والنثر والمذاكرة في النحو والصرف والبلاغة والعروض والأصول والحديث

والرجال والهيئة والفقه، التي كانت تجد في رطوبة السراديب مـناخاً للخـصب والغنى والسجال الحار، الذي يشبه الشجار المتكرر كل يوم، ولكنه ينتهي بالمعرفة وموعد آخر للحوار.

٢٠٠٠/٥/٥

صورة النجف بين التاريخ والزائر والطالب (٢)

الصفويون . . ومشايخ جبل عامل

النجف تقع على بعد ستة كيلومترات غربي الكوفة، ومئة وستين جنوب غربي بغداد.. والنجف في اللغة المكان المرتفع الذي لا يعلوه الماء، ويسمى الطور والظهر (أي ظهر الكوفة) والربوة والغري والمشهد.. كان متنزهاً للساسانيين والمناذرة والعباسيين بعدهم، يقصدونه ربيعاً ـ حسب المسعودي ـ اكتشف فيها قبر الإمام عليّ (١٧٠هـ ـ ٧٦٨م) فغدت من وقتها مدينة مقدّسة. (علي البهادلي ـ النجف جامعتها ودورها ـ مؤسسة الوفاء ـ بيروت ١٩٨٩م).

وهي الآن بقية من حوزة علمية وأدبية، ازدهرت على مدى ألف عام من تأسيسها على يد الشيخ أبي جعفر محمَّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) في نهاية العهد البويهي وبداية السلجوقي (٤٤٨هـ ـ ١٠٥٦م). وكان تدريس العلم فيها، على رواية ابن الأثير، قد بدأ منذ القرن الثالث الهجري، وازدهر في عهد عضد الدولة البويهي (٣٢٤ ـ

٣٧٢هـ) وعلا شأن الحوزة بعد هجرة **الطوسي** إليها، واستمرت على هذه الحال، مقصداً لطلاب العلم من سائر أقطار المسلمين، حتى بلغ عدد طلابها قبل الاحتلال الإنكليزي (١٩١٤م) عشرة آلاف طالب.

خلال الألف عام من عمرها العلمي، انتقلت الحركة العلمية والمرجعية منها إلى الحلة في القرن السابع الهجري، بسبب قلّة المياه وهجوم الأعراب، وانتقال المرجع، الشيخ ابن إدريس الحلي إلى مدينته، ثم عادت النجف فازدهرت لتنتقل الحوزة ثانية إلى كربلاء، بسبب الصدام بين العثمانيين والصفويين، وانكماش الهجرة العادية والعلمية إلى العراق، متأثرة بالسياسة والأوبئة، وانتقال المرجع أحمد بن فهد الحلي إلى كربلاء، وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري، انتقلت الحوزة والمرجعية إلى سامراء لتعود إلى النجف بعد سنوات.

لقد أملت ضرورات الدولة على الصفويين في إيران، أن يؤسسوا حوزات علمية برعايتهم، فاستدعوا علماء من جبل عامل ملوحين لهم بإمكان إشراكهم في الحكم، فذهب عدد من كبار العلماء اللبنانيين وانخرطوا، فلم يلبث الصفويون عندما استحكموا، أن همّشوا دور العلماء الذين ضاقوا ذرعاً بمناصبهم الشكلية فانكفأوا، أو استمروا في غربة مزدوجة.. ومما يروى أن الشيخ حسين بن عبد الصمد كان

شيخ الإسلام في قزوين في عهد الشاه عباس، وقد طلب إذناً له ولولده العالِم المشهور والمتعدد المواهب، الشيخ البهائي، من أجل الحج، فأذن له الشاه ولم يأذن لولده، فسافر الأب ولكنه لم يرجع إلى إيران، بل رجع وأقام في قرية المصلّى في البحرين ومات ودفن فيها. ومن البحرين كتب إلى ولده يقول: إذا أردت الدنيا فاذهب إلى الهند، وإذا أردتِ الآخرةِ فالحق بي، وإذا لم تردِ لا الدنيا ولا الآخرة فابق حيث أنت.. لقد شاركت الحوزات الدينية في إيران الصفوية، النجف في وظيفتها من دون أن تزاحمها كما تحققت مشاركات محدودة في هذه الوظيفة في باكستان وحلب وطرابلس الشام وأفغانستان وجبل عامل، ولكن النجف بقيت على تميزها ومركزيتها. إلى أن تأسست الحوزة في قم على يد الشيخ عبد الكريم الحائري، أواخر العهد القاجاري (١٧٨٥ ـ ١٩٢٤م) بعدما خاض القاجاريون تجربة حوزوية واسعة، تقليداً للصفويين انتهت إلى فشل ذريع في ثلاثينات القرن التاسع عشر.

وأصبحت حوزة قم موازية للنجف إيرانياً فقط وجزئياً، إذ أن قلّة من الطلاب وفدوا إليها من باكستان والهند وأفغانستان، ثم أخذت حوزة قم تتحوّل تدريجياً إلى بديل للنجف بعد الثورة الإسلامية وتأسيس الدولة باستقطاباتها الكثيرة والشديدة التركيز، وبعد مضي النظام العراقي في

عملية تفكيك النجف حوزة وموقعاً ودوراً وتراثاً علمياً وأدبياً وجهادياً تبلور في ثورتها على الإنكليز وحصارهم لها عام ١٩١٨م وقيادتها لثورة العشرين، واحتلالها موقع الرقيب القوي على سلوك الدولة العراقية ـ مظاهرة الاحتجاج على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وسقوط القتلى برصاص الشرطة في فناء ضريح الإمام عليّ (ع)، والمشاركة المؤثرة في ثورة التنباك في إيران وقضية «المشروطة والمستبدة».. إلى ما تخرج منها من قادة ومفكرين تصدوا لقضايا كبرى في تاريخ العرب والمسلمين.

لقد ازدهرت حوزة قم، وأخذ الطلاب يتواكبون عليها من مختلف أوطان المسلمين الشيعة، وأصبحت الحوزات الفرعية في لبنان وغيره، بعد تخريب النجف، ممراً إعدادياً إلى قم.. وعلى مدى الألف من عمرها، كانت النجف من أهم المزارات التي ينشغل بها الوجدان الإسلامي عموماً والشيعي خصوصاً، وينطلق الزوار منها إلى سائر القباب في كربلاء والكاظمية وسامراء، انتهاء إلى خراسان.

أواخر الخمسينات، أخذت أذني تلتقط أطرافاً من الحديث عن النجف المزار، في مواسم محددة، يوم عرفة في التاسع من ذي الحجة، وفي العشرين من صفر ذكرى أربعين الحسين (ع)، وكان الحديث حديث زائر يذهب إلى هذه المدينة في أواخر عمره عادة، بعد أداء فريضة الحج،

وقبلها أحياناً، يصرّ زوادته ويجمع ما اجتمع له من أثمان البيض واللبن والقمح والعدس والذرة وهبات الأبناء والبنات، ويذهب، يمكث في العراق أياماً، يزور ضريح علي مرات عدة في اليوم الواحد، ويصلي واجباً ومندوباً، ويهدي ثواب صلاته وزيارته إلى أمه ثم أبيه ثم الصالح من أولاده ثم غير الصالح ثم الصالح من أرحامه ومعارفه وأنسبائه وجيرانه، ثم يجمل الباقين ممن لم يذكرهم، أو له عليهم عتب أو حق من الحقوق، في نيّة واحدة، ويرتاح صدره لقدرته على السماح، ويطلب المغفرة لغيره.. ويودع عائداً إلى بلده وأهله، يحدثهم أشهراً أو سنوات، ليل نهار، بإسهاب وتكرار، جواباً على سؤال ومن دون سؤال أكثر الأحيان، عما فعله ورآه وسمعه وفهمه أو لم يفهمه، منذ تحركت به وصحبه السيارة من ساحة الضيعة إلى صيدا فبيروت فالمصنع فدمشق فالسيدة زينب فأبي الشامات وصحراء الشام فالرطبة فبغداد فالنجف.. حتى صباح يوم العودة.. وربما توقف أثناء الحديث وسأل زواره الآتين رجاء نصيب ينالونه من الثواب والبركة والأجر، (ومن لم يزرني فليزر زائري)، ليسألهم عن أمور لم يروها، كالشرائط الخضر التي يبيعها بالإكراه، خدام الحضرة بزعم أنها تشفي المريض إذا ربطت في عنقه، وعن إلحاح هؤلاء الخدام على قراءة نص الزيارة للزوار، مقابل الأجرة، رغم أن الزوار في صحبة

معـرفيهم وأدلائهـم الوطنيين، ويتحدثون عن شيخ طوله كذا وعمـته بحجم كذا، وعباءته تسحب على الأرض، تثير غباراً وتمتلـئ بالغبار، وعن سيد مهيب يصلي في مكان كذا ويقبل المـصلون يده، وعن تاجر باع لهم الخواتم الفضية وفصوص العقـيق بأضـعاف ثمنها، وعـن معمـم (عجمـي) رحب بهم لأنهم آتون من جبل عامل، بلد الهواء الطيب والناس الطيبين والكـبّة النـية والتـبولة والعـوائل العلمـية والـشهيدين الأول والـثاني، وعـن الطالـب الذي زارهـم وعرض عليهم خدماته قـربة إلى الله، وآخـر سـألهم عمـا لـديهم من نذور وزكوات وخمـس وكفـارات وهـدايا مالـية أو عينـية، وعـن حمامات الحـضرة الزرقاء الأليفة، والحمامات التركية العمومية، وعن بائـع اللفـت المـسلوق (الـشلغم) وبائع الكباب.. وكل ذلك مقـدّس، تقـدّس بالشهيد أبي الشهداء، يعسوب الدين وقائد الغـر المحجلين، والقبة الذهبية والمنائر الشامخة، والضريح المـشبك بالفـضة وعـيون المحـبين ودموع الأرامل والثكالى والـشاكيات مـن مـرض الـولد أو الـزوج ومن جفاف حليب الجاموسـة وظلم الإقطاعي وأحياناً هجران الحبيب، أو زواج الـزوج ثانـية، أو عقـم الـزوجة، أو غياب الوحيد في حرب الحكومة مع الأكراد.. وسؤال لماذا؟

وزادت قداسـة بـوادي السلام، المقبرة الكونية، يرتاح الموتـى في كنفها واعدين أنفسهم أو موعودين بالتخفيف من

حساب القبر وبعض أثقال الذنوب، حسب بعض الروايات، ويجاورون ضجيعي الإمام (آدم ونوح).. ونسمع أسماء المراجع من لسانهم كما يحفظونها، فيصبح السيد محسن الطباطبائي (الطمطماني) والسيد محمود الشاهرودي (الشاروطي أو الفاروطي) والخوئي (خولي وخوري).. كانوا لا يعتنون بأسماء المراجع ولا بأسماء أولادهم أو أحفادهم أو أصهارهم أو وكلائهم.. بل بهم، بالمراجع، وبها، بالمرجعية، ببهاء وجوه المراجع والنور الذي يشع منها الإيمان، وبياض لحاهم ونعومة أيديهم، والأمنية بعد العودة هي العودة، رغم ما يعني ذلك من مشقة وسفر طويل وزاد قليل واحتمالات مرض.. لولا أن خير الزاد هو التقوى.

٢٠٠٠/٥/٦



صورة النّجف بين التّاريخ والزّائر والطّالب (٣)

عدتُ إلى قريتي . . إماماً

نجـف أخـرى، يتحدّث عنها رجال الدِّين، وهم أعمُّ مـن العلمـاء، والجامـع بين العلماء ورجال الدِّين هو اللباس ومقـدار مـا مـن العلـم، مـا زال يتـضاءل ويفـشو ضئيلاً في مـساحات أوسـع ومـستمرة في التَّوسـع.. غـير حفنة مقهورة بعلمها ممقوتة من استعراضية أهل البضائع النَزرة.. إلى هنا آل المـآل مِـنذ انفـتحت أبواب الحوزات على مصاريعها، وعلى رياح السِّياسة وإغراءات الحياة السَّهلة.

قـبل الانفـتاح المفتوح على مزيد من الانفتاح، إلى أن يـأذن الله بتبديل في الحال، كان علي أن أذهب إلى النجف، لم أكـن مجـبراً على ذلك، ولكني لم أكن مختاراً تماماً.. ولا أدري بماذا أسمي هذه الحالة؟

إذن وأنـت في مقتـبل العمـر، لن تكون زائراً عابراً إلى الـنجف، أنـت رجـل الـدين، أي مـا ستؤول إليه، إذن أنت مـشروع عـالم، بماذا؟ لا ندري، قد تنجزه، أو تقصر فتبقى

رجـل دين، وعلى الاحتمال الثاني ربما كان حظك من الدنيا والسمعة أكبر بكثير من حظك من العلم..

كـان رجل الدين أو العالم الديني، بالنسبة لي ولأترابي وعموم جيلي، إلاَّ أقل القليل، كائناً آخر، أقرب إلى اللغز أو الأحجـية، أو إلى نجـم غـامض وسـحري، محجـوب بغيوم كثـيفة مـن الأسـرار الـتي ترشـح رشحاً من حركاته وسكناته وكلماته. إذن فهو مختلف، أما كيف يختلف فلم أكن أعرف، وأكاد أقول: إني لا أعرف حتى الآن، فقد انتميت إلى الحوزة والتـزمتها، ولكني لم أدخل إلى أعماقها، ما دلني أحد، كل الـذين عاشـرتهم مـن الطلـبة والعلمـاء كانـوا مثلـي وإن عاد كـثيرون مـنهم فتغيروا على أساس أن الوظيفة تخلق أعضاءها (داروينياً) وحتى الآن لمَ أتقن تثبيت عباءتي على كتفي، تطير مـن نـسمة هـواء خفـيفة، ولم أتعـود تمـشيط لحيتي، لذلك تعتريها الفوضى عندما تطول فأعالجها بالتقصير، أما عمامتي فـإني لا أحـسن لفهـا ولا إصـلاحها، ولكنك تجد دائماً من يتقن اللف لنفسه ولك ولغيرك، عليك وعلى غيرك.

وأمـا دنـياي، فـإني أحـتاج إلى عمر آخر وخَلْق وخُلُق آخـر لأمحـو أميتي في شـأنها، وأما آخرتي، فقد عدت من الـنجف أشـد قلقـاً علـيها.. ربما كانت آخرتي أضمن وأقرب مـنالاً لـولا أني ذهـبت، ولذا حاولت الرجوع أكثر من مرة، وكانـت فجـيعة أبي، المـتوقعة، بقـراري هـي التي تعيدني،

ويبدو أن الأمان في الآخرة أيسر مع قلة المعرفة منه مع كثرتها، لأن العلم، والعلم الديني خصوصاً، كالثروة، كلما اتسعت احتاجت إلى احتياط وصيانة أكثر وخوف أكثر، والكل يحتاج إلى التقوى، في جمعه واستعماله، في كسبه وبذله والأكل منه، هذا ليس إغراءً مني لنفسي بالجهالة، وإنما هو تحسس مني لموجبات اختياري وموقعي ودوري، وفي أيِ حالٍ، فإنِ العلم وإنِ لم ينفع صاحبه، فإنه ينفع الآخرين، وانتفاع الآخرين به، قد يكون مدعاة للطمأنينة إلى تخفيف الذنوب، وهذا عزاؤنا، وما كنا لنعيش هذا القلق المضني، لو أنَّ النجف تناولتنا، منذ أيامنا الأولى فيها ومعها، ووضعتنا في بيت حسن الهندسة ليهندسنا.. ذهبنا إليها بذوراً بعلية، وعدنا منها شجرات بعلية، مثمر بعضها، وبعضها شجرات ظل للتظليل، كالأزدرخت، والعياذ بالله من التضليل! فإن أحسنا أحسنا بأنفسنا ولها، وإن أسأنا أسأنا لأنفسنا بأنفسنا ولها أو عليها، ولا تلومن نفس إلاَّ نفسها. لا ألوم إلاَّ نفسي على ما قصرت، وأحفظ لبعض من علماء النجف وأساتذتها، إرادتهم الجادة في الرعاية والتوجيه، وإن كان ينقصهم تنظيم إرادتهم وجمعها في إطار يمكنها أن تثمر ثمراً سائغاً ومرجواً.. وأعود إلى قاعدة ذهبية، معمول بها في العلم النجفي: (ما لا يدرك كله لا يترك جله أو كله) وأرضى، فالنجف أمي، رحمي، لا أشترط عليها ولا

أعاتبها، راعية كانت أم لم تكن.. جميلة كانت أم لم تكن.. جمالي وغناي في برّي لها وبها.

ولم تكن تساؤلاتي ذات منحى طبقي، لأن الأسئلة الطبقية لم تكن قد وردت على ذهني بعد، ليتها لم ترد، ليتني لم أقرأ لوتسكي وأنا طري العود، حتى أتاني هذا المصطلح الملتبس: الإقطاع الديني.. وبعد خسائر جسيمة اكتشفت أن المسألة لها نصاب آخر، شرقي، وأن هناك خطأ ما، وأخطاء وارتكابات، ولكن أمثال لوتسكي لا يعرفونها. وربما كنت قد تساءلت: هل ينام الشيخ كما ننام؟ وهل يحلم بما نحلم به؟ وهل يخاف مما نخاف منه؟ وهل يغضب وهل يبكي ويفرح ويضحك ويندم ويتوب؟ وهل يلعن الساعة التي ولد فيها مرة، وهل يشكو ممن ورطه ودفعه في هذا المنحى الصعب؟ شاهدته مرة يضحك، لم أدر ما السبب؟ وربما كان من غير صنف الأسباب التي تضحكنا، ربما كان يضحك منا أو علينا، ولم أشاهده يبكي إلاَّ في عاشوراء، كان يبكي وكأنه لا يبكي، ربما كان يتباكى، لأن قارئ التعزية الحسينية، الذي أعلن في بداية مجلسه أن الأجر سواء لمن يبكي أو يتباكى، احتياطاً منه لنفسه، وربما، لأنه لم يكن بنصه الذي يحفظه ويكرره، وبصوته، قادراً على إثارة الحزن فضلاً عن استجلاب الدمع.

هكذا إذن سوف أذهب، لأعود كهذا الإنسان الغامض والأليف، تألفه لاضطرارك الدائم إلى اكتشافه فتدمنه، فإن

انقطع عنك، أو انقطعت عنه، شعرت بفراغ ما.. وهكذا كانت قريتنا، وما تزال تنشغل بشيخها، بتفاصيله وتفاصيل منزله ولباسه ولحيته وعمته وأسرته وطعامه وشرابه وكلامه وصمته، حتى تؤذيه وتنكد عيشه، فإذا ما انفجر وهجرها، لم تترك وسيلة أو واسطة لتعيده إليها وتعود إلى أذيتها له.. (الآن أخذ الوضع يختلف بعدما أصبح الدين والعلم الديني ليس شأن علماء الدين حصراً، وإنما هو مشاع يستأثر به الأقوى سياسياً أو مالياً، ويفتي ويقرر ما إذا كان الشيخ صالحاً للإمامة أو لم يكن، وهو في كل ذلك ينوب عن الأهل من دون أن ينيبوه، لأنه نائب عنهم وعليهم طبيعياً).

إذن، على إشكالية لا حل لها كهذه أنا قادم، وقد كنت على شعور أولي بها، ولو كنت تبينت سرها قبل سفري إلى النجف، لأقمت بين الأهل مؤثراً موقع المأموم على موقع الإمام. عند عودتي صرت إماماً، وفي يوم، ذات مساء، كنت ذاهباً إلى المسجد، فما عتمت أن وجدت نفسي أسير في اتجاه الجبل، إماماً لأشجار التين والزيتون والسماق، أتوضأ بأشعة القمر، وأصلي الفرض والنافلة، ولم ينقض تعجب الأهل من صنيعي حتى الآن.. يذكّرونني دائماً يقولون: أتذكر كيف هربت من صلاة الجماعة؟

يا أهلي.. إني أحب أن أكون من عباد الله الذين يمشون

على الأرض هوناً.. ومن النجف إلى قريته ومسجده، جاء ذلك الشيخ العظيم الذي انقطع عن صلاة الجماعة، لأنه حانت منه التفاتة إلى الوراء، في أول الصلاة، استكشف بها عدد المصلين إجمالاً، فتأكد أنه بلغ المرتبة الخطرة من الرياء والعجب، فاحتاط لدينه بالانقطاع والانفراد، اللّهم نجنا.. وأنا ذاهب إلى النجف، لأعيش هذا الحوار الساخن الذي يصبح جدلاً لاذعاً مع الذات، داخلها، يشوش فيك رغبة الحياة، ولكنه يحييك، يجعلك تبدع ذاتك، كلما شارفت أن تغرق في وحل الطمأنينة المفرطة والأمن غير الأمين.

وأخذ الشيخ، في أيام عاشوراء، يحاضرنا على حجارة الحسينية قيد الإنشاء، إذن سوف أحاضر ارتجالاً، وسأعنى بالحسينية والمسجد الذي بناه جده الشيخ أيضاً.. ما هذا؟ كل هذا هو الشيخ.. لا يصبح الحبيب حلالاً على حبيبته إلاَّ إذا حضر وعقد، ولا ينزل الميت إلى قبره إلاَّ إذا جاء وصلى.. ولا نعيّد إلاَّ إذا حكم بشهر شوال الخ.. ونحن تعودنا أن نزرع في فصل وكذلك نحصد ونقطف الخ.. وسمعنا من الشيخ كلاماً لطيفاً عن الغيبة والنميمة والبهتان والصوم والصلاة والصدق والحج والزكاة ويوم الحساب والعدل والجور وأهل البيت، والتعاون على البر والتقوى، وحثنا على استكمال بناء الحسينية، بلغة عربية فصحى، كان الشيخ يلحن أحياناً ثم

يستدرك، ويثير عجبي في استدراكه، من أين له هذا؟ أما الشيخ الآن فهو لا يلحن أحياناً ولا يستدرك أبداً وأنا أموت غيظاً.

٢٠٠٠/٥/٨



صورة النّجف بين التاريخ والزّائر والطّالب (٤)

أمكنة نازعة إلى الأسئلة والشّفافيّة

لَـم يكـن أهلـي وأهل الضَّيعة يسعفونني بتعريف شافٍ للشيخ، ويكرِّرون الحديث كلَّما سألتهم، عن شيخ توفي قبل أن أولـد بخمـس سـنوات، وأنّـه كـان أعجـوبة في علمـه واستقامته، وقد عرفت من قراءتي اللاحقة في سيرته وتراثه، أنَّ إعجابهم به إنَّما كان يأتي من جديته وغموضه ومبالغته في التَّعفف عـن كـلِّ شـيء، بيـنما بقي مستواه العلمي والأدبي بمـنأى عـن بساطاتهم، واكتفوا بفرضية تدبروها عنه مؤداها: إنَّ هـذا المظهـر الجلـيل العظـيم، لا بُدَّ أن ينطوي على علم عظـيم، لا قـبل لهـم بمعـرفة تفاصـيله.. في حين أنَّ شيوخاً عرفتهم عرضاً، كانت إيحاءاتهم متواضعة، أو أنَّني كنت قليل الاحـتفال بهـم، إلى أن أتى شيخ ـ هو حفيد شيخها المثال ـ علـى قدر من الغموض والتباس الدِّين بالسِّياسة وعلى مسحة من حداثة في المظهر وطريقة الكلام ومفرداته، ترافقه ابتسامة جاهـزة تكاد لا تغيب.. هذا تعقيد آخر بالنسبة لي، خصوصاً وأنِّـي كنت في لحظة من عمر معرفة لَم يصل فيها إلى وعيـي

السِّياسي الأولي سوى رذاذ من كلام عن ثورة مصر والعدوان الثلاثي، أمَّا فلسطين قبل ذلك، فكانت جماعة من اللاجئين، من أهل هونين ليس إلاَّ.. وأمَّا أحداث لبنان عام ١٩٥٨ فقد وفرت لي عطلة صيفية مبكرة قضيتها في صيد العصافير وتمرينات الحبّ الأولى.

ثُمَّ حدثت ثورة العراق في تموز، لِماذا وكيف.. ومن؟ لا أدري. جاء شيخ جديد على هذا المفصل، وسمعت أنَّه منفي من العراق، بعد سجنه فيه، لأسباب قومية ونجفية.

نسيت النَّجْف أو تناسيتها عندما ذهبت إلى المدينة تلميذاً في المرحلة المتوسطة، على خشية من المدينة وأهلها، تغري بالنُّفور والعداء والاعتصام بلغة الضَّيعة، أخلاق المدينة مختلفة، وأبوابها غامضة فمن أين أدخل؟ ما لبثت النبطية أن شدتني إلى براحها، بعيداً عن الخصوصيات والأسرار، وعاينت اختلافات في السَّطح، افترضت أنَّ لها أعماقاً فاعتراني القلق، وأخذت أجتهد في التَّكيُّف، مصراً على الحفاظ على أساساتي وتسييج إيماني الفطري بالمعرفة، ومنه، من الإيمان أذهب إلى المعرفة ومنها أعود إليه، وأخذت أعمل لنفسي على خطَّين، خطّ اللغة العربيّة الَّتي عشقتها وآثرتها، وربيت سليقتي عليها، وخطّ الالتزام الدِّيني.. ومضيت حتَّى لقيت الشَّيخ.. فزاد ذلك من إغرائي بالمشيخة.. وعالنت أترابي وزملائي بالصَّلاة والصَّوم، وهم

كانـوا يعالنونني ببعض من ذلك، وبكثير من السينما والحزب والبـنات، ولَـم أكن بارعاً بل كنت مترعاً باحتمالات الحبّ، وللمـرأة في وعيي ووجداني صورة الشَّرط الإنساني والفني، أمَّا الفنون، فقد كانت جاذبيتها عظيمة، وكنت أراها مقامات معـرفية، لا فضلة.. وكان يشدني إلى الحزب الذي لَم أدخله ولَـم يـدخلني، أنَّـه يعين لك غاية، أمَّا صوبت إليها نظرك، كـان بإمكانـك أن تـضبط مـوقعك ومـوقفك وحـركتك على الأرض، في المجـتمع وفي المدرسة.. ولكنَّ المرأة قيمة من جـسدها إلى روحهـا إلى دورهـا، فلمـاذا التَّبـضيع والإبتذال والتواطؤ عليها؟

والفـن للإبـداع لا الاستهلاك، ولِماذا يقطعك الحزب عـن سياقك ومسارك الطَّبيعيّ؟ لِماذا يفضي بك حبّ القضايا إلى ألـوان مـن القطـيعة والكـراهية؟ مـن هـنا تحـصل لي أنَّ معتـصمي هـو المعـرفة العامَّة، ومعرفة الدِّين، وتمكينها من ذاتي.. أطلقـت لحـيتي فاعترض مدير المدرسة، على الزّغب المتناثـر بفوضـى وحـياء، بـسواده الخفـيف الشَّاحب وقال: «عندما تذهب إلى النَّجف تطلق لحيتك.. أمَّا هنا فاسمح لنا».

ولَـم أشـاكس.. وعـادت النَّجف تراودني.. فدلفت إلى المـسجد.. مرَّة شاهدني أحدهم أقوم وأركع وأسجد، فسأل: ابن من يكون هذا الشَّاب؟ قيل له: هو ابن فلان: فقال لي بعد الفراغ.. كان جدك يتمنى على أبيك إذا تزوج وأنجب صبياً أن

يرسله لطلب العلم في النَّجف.. ونبهني إلى أنَّ علماء القرية من آل الزَّين هم أخوالي من الجهتين.. فترجح عندي احتمال أن يكون العرق دساساً.. وإذن، فلي في النَّجف غرفة من رغبة جدي وسيرة خؤولتي، ولن يكون سفري بدعة.. فإلى النَّجف..

تعلَّقت عمتي بعقب السَّيارة، تريد منعها من الإقلاع بي.. ولكنَّ السَّيارة اندفعت نحو الشَّام.. ومن الشَّام إلى العراق عبر الصَّحراء.. كدت أن أضيع في بغداد فعجلت بالانتقال إلى النَّجف.. لأضيع.. أو أكاد أضيع، ومن دون ضياع ما، كيف يتأنى للواحد منَّا أن يجد نفسه ويهتدي؟

نزلت في الشَّارع أسأل فهديت إلى حي يسكنه لبنانيون، فصادفت شيخاً سألته عن بيت فلان، صهر ضيعتنا الّذي من المفترض أن أقضي يومي الأوَّل بين يديه وعينيه.. قال لي الشَّيخ بلهجة عراقية صافية: (تنْدَلَّه؟) فهمت أنَّه يتأكد من كوني أريد أن أستدل على المنْزل: فأجبته بنعم.. فتركني ومضى لشأنه، مفترضاً حسب جوابي القائم على جهلي باللهجة العراقية، وجهله بي، إنِّي أعرف البيت!! وبعدما صار الرَّجل صاحبي وزميلي، عاداني لأنِّي ذكرت ابن رشد بخير. فاتهمني بالانحراف العقائدي.. ثُمَّ تركني مشغولاً بهموم العقيدة والوطن.. وهاجر ليرفل في ثروة خرافية.. عمموني في اليوم الثالث، وألبسوني (العباية) عثرت بأذيالها

ألـف مـرَّة ووقعـت علـى وجهي، وما زلت أقع، وفي اليوم الـرَّابع صحبت السيِّد محمَّد حسن الأمين إلى سهرة في منْزل المـرحوم الـشَّيخ عـبدالله مديحلـي، حضرت ندوة خطابية، سمعـت حـواراً أغـراني بالمـشاركة.. اكتشفت أنَّ في النَّجف مكانـاً أو أمكـنة عـصرية، قليلة الغموض، نازعة إلى الأسئلة والشَّفافية..

٢٠٠٠/٥/٩



النجف ـ قلق التعدد والحياة والمعرفة

في ١٠ تشرين الأول عام ١٩٦٣ وصلت إلى بغداد ومنها إلى النجف مباشرة، لفتني أن رفقتي في الحافلة من بغداد إلى النجف، لم يكن فيهم معمم، قلت لعلّهم زوار أو عابرون.. وصلنا وتفحصت الناس في الشارع العام ظهيرة قيظ، عراقيون عاديون، لمحت معمماً ثم آخر.. إذن هذه هي النجف، حاضرة دينية وعلمية وأدبية غير منفصلة ظاهراً عن جماعتها.

بعد المعاشرة والمعايشة والمعاينة.. وبعد العودة خصوصاً، انكشفنا على ما يمكن اعتباره من غير المتوقع في حالات الإقامة الطويلة في بلد آخر، إلاّ إذا كان المقيم قليل المعرفة بحيث لا يستحثه شيء على زيارتها، أو كان مستغرقاً في هموم العمل والحياة تسد عليه آفاق السياحة الفكرية.. فالذاكرة اللبنانية عن النجف الأشرف وعن العراق ملأى بالفجوات، حتى معرفتنا بكربلاء والكاظمية وسامراء، كانت أولية وسطحية جداً.. أما إخواننا العامليون الذين أقاموا في مدن أو بلدات عراقية طرفية، وكلاء عن المراجع، فلم يعتن

إلاّ أفراد منهم بتكوين صورة عن مكان إقامتهم، ولم تكن لنا طـرق نجفـية عاديـة ومألـوفة للوصـول والتعـرف على أحياء الـنجف ومـن فـيها، وما عرفنا من أهل النجف إلاّ القلة التي تـدخل في بعـض ضـرورات حياتـنا.. وإن تجاوز بعضنا هذه الحـدود إلى مـسافات قـصيرة فإمـا بسبب انتسابه إلى أصول عائلـية بكـرت إلى النجف وتواصلت أجيالها فيها وتواشجت مع النجف وأهلها، وعندما اتسعت دائرة الحضور اللبناني في الـنجف منذ أوائل الستينيات، شكل ذلك جاذباً لها، أحست معـه وكأنهـا تستعيد جزءاً ضائعاً من ذاتها، فقل تواصلها مع الـنجف وضـعفت ذاكـرتها الموروثة.. وإما بسبب اللقاء على مـشترك أدبي قـام بـين بعـض اللبنانيين وبعض النجفيين مقام المنزل أو المنازل المؤتلفة على حرم واحد وفضاء واحد وبئر واحـدة يمـنح الواردون لها والصادرون عنها سراً مرة ووجعاً مرة ونبضاً مرة وذكرى مرة ورجاءً مرة، ومرارة مرة، وحلاوة مُـرة مرة.. وينتهون مع أصائل الشاي على فم الصحراء، على مقـربة مـن ميـثم الـتمار وطـيف الـنخلة[١] وأعذاق المواقف المتدلية يتقاطر منها سلاف الدين، وعلى خط موازٍ، يقترب، ويخـشى أن يـصل فيحتـرق، شأن الفراش والنور، من منزل علـي المـستعار في الدنـيا.. في حـي كـندة، حـيث تحفر في

(١) صلب على النخبة.

الأرض أمتاراً فلا ترى إلاّ سواداً، ربما كان فيه بقية من حبر وكاغد، وإلاّ فأين ذهبت الآثار التفصيلية لـلآلاف دفعة واحدة، خارجين من مسجد الكوفة يحدثون الناس بحديث جعفر الصادق؟

في حي كندة حيث لعب المتنبي، والشعر يبدأ لعباً، فإن لم تدخل لاعباً خرجت لاعباً.. وحيث تفلسف الكندي.. يمسي الشاي نُسغاً والكلام الجميل بين الغرباء نسباً.

كان على النجف، أو علينا في النجف، أو علينا الآن وحيث كنا وكانت حوزاتنا العلمية الدينية، أن نكون أكثر تواضعاً وموضوعية وأقل اختزالاً للمتعدد في واحد، ولكل العلوم في الفقه وكل العلماء في الفقهاء، وقد كان يمكن للعلوم الإنسانية، لو كنا قاربناها بجدية تتعدى أحلام كلية الفقه الخائفة، أن تدفعنا إلى استكشاف حالنا وحال أهلنا، فتوفر علينا جهوداً نضيفها، بلا طائل أحياناً، في سبيل الوصول إليهم وتوصيل العقيدة والشريعة إلى وعيهم اليومي وحياتهم، لأنا لا نعرفهم، ولا تصلح العلوم والاختصاصات التي ننكب عليها، قليلاً أو كثيراً، مدخلاً إلى عقولهم وقلوبهم، لأنها نظرية محضة وتتسم في الأعم الأغلب بسمة الجدل الذهني، بعيداً عن جدل الواقع والوقائع، وهذا ما يفتحها على الأخيلة والفرضيات الذهنية، ويتيح اختراقها

بإضافات تتراكم حتى لنبدو وكأننا في صدد إنجاز دائم لدين أو أديان موازية لديننا!!

من هنا ما لاحظناه من انحسار الكتلة البشرية الواسعة في النجف في أوقات حصارها، منذ عام ١٩٦٩ وما بعدها[١] على غير ما قرأناه أو عرفناه سابقاً، خاصة في الربع الأول من هذا القرن لدى حصار النجف ١٩١٨م من قبل الإنكليز، وثورة العشرين بقيادة مراجع النجف وعلمائها، واندفاعة النجف وحولها جمهورها من قبل في تأييد حركة «المشروطة» الإيرانية.. كانت النجف بعلمها وعلمائها أقرب إلى حياة الناس ومشاعرهم، وكان العلماء أكثر عناية بمعرفتهم، تعريفهم والتعرف إليهم والتعارف معهم والتواصل، فأحاطوا النجف الأشرف وحوزتها ومرجعيتها بسور من المحبة والتأييد والتسديد، وسياج من العضلات المفتولة والمتآصرة درءاً للخطر عن النجف وعلمائها وأعماقها في الأهل والوطن.

إلى ذلك، فإن الانقطاع، إلاّ في بعض الحالات الاختصاصية الضرورية، يتيح للمنقطع نمواً علمياً وذهنياً يبعده عن التعرض للمراقبة والنقد والحوار، ويحرمه من

---

(١) عام الصدام المباشر بين السلطة والمرجعية والذي كان اختباراً لقوة النجف اقنع السلطة بإمكان تقويضها.

الجدل الإشكالي بين رجل الدين وجماعته، وهو جدل من شأنه أن يعيد أهل اليقظة من المشايخ إلى ذاتهم وأهلهم وعلمهم وسلوكهم، أما إذا ما فات الشيخ الجدل فإنه لا بد من أن يكشف ذاته وهو يسعى إلى سترها. ويوفر حجة لمن يريد أن يخرجه من الجماعة ويعطله.. حفاظاً على الجماعة ودينها أحياناً.

وإذا ما كانت التعقيدات والطابع الحر للحوزة، الذي يصل إلى حد الفوضى التي يتوارث كثير من الحوزويين الفخر بها والميل إليها، ويغص البعض منهم بآثارها، قد حدّت من إمكانية الفرز وفاعليته، حتى مكنت في الحالات الأكثر انتشاراً، أن يتقدم قليل البضاعة على كثيرها والذي يشكو من ركاكة في التزامه على من يعمق هذا الالتزام في نفسه ويرويه علماً وسلوكاً، إلى أن أصبحنا نعاني من أن وجود رجل الدين بين أهله يعد واحدة من أشد إشكاليات الدين والاجتماع تعقيداً. فلم تعد القرية أو القصبة أو الحي تستشعر فراغاً في غياب شيخها، إن لم تستشعر الراحة. إلى ذلك فالمعرفة التفصيلية بالأحكام الشرعية قد انتشرت لأكثر من سبب، وجعلت رجل الدين الذي حصر وظيفته في هذا الشأن، أو تعداه من دون أهلية إلى غيره، جعلته وكأنه من دون وظيفة أو موقع أو دور.. ولكنها لم تثر فينا حتى الآن السؤال الذي تقتضيه المنعطفات التي نمر بها.. أعني السؤال

عن إمكانية تجديد دور رجل الدين طبقاً للمستجدات في الحياة والاجتماع والمعرفة؟

وتبقى الحوزة العلمية الدينية المتصلة بتجمع حضري وعلى مقدار من الاهتمام والعناية بشؤونه الدينية والاجتماعية والتربوية والنفسية، تبقى أشد حصانة في مواجهة سلبيات أي حراك اجتماعي يدور حولها، وهذا القرب من الكتلة البشرية المعنية، يتيح للحوزة مستوى من التدرب على المزاوجة بين خطاب علمي شديد التركيز والخصوصية، وبين خطاب يومي دعوي رعوي مضبوط بالتقنيات العلمية والأدبية، ومربوط بأبعاده وآفاقه الإنسانية والإيمانية.

«لبنانيو النجف»

لقد كان مقدراً أن يكون للألف عام من عمر النجف الأشرف، ولكثرة الواردين إليها وعليها، من أقطار الأرض، ومن أقوام وطبقات وعادات وتقاليد وأعراف وثقافات وحساسيات وألوان وأشكال وجوه وعيون وطرائق حياة واستجابات ذهنية مختلفة، كان مقدراً أن يكون لهذا كله أثر بين في مستويات عدة من مستويات الحياة النجفية.. ولكن النجف ظلت على الدوام، إلاّ في حالات سابقة ربما، ولو كانت لبانت، أي لقرأنا صورتها في تاريخ النجف.

إذن فقد.. ظلت النجف مسكناً، مساكن علمية لا

متحداً ولا متحدات علمية اجتماعية، كان الأفراد من أوطان متعددة، يتجمعون على نصاب وطني عابر للنجف، ويعودون منها على قليل من المكتسبات في غير الحقل العلمي المحض، بحيث لا تحمل الجماعة إلى مواطنها الأصلية لدى عودتها[1] إلاّ نتفاً من صور وذكريات لا تثمر تثاقفاً، لأنها لم تأت من تثاقف، ولأن العلوم الحوزوية أقرب إلى العلوم البحتة بسبب تركيزها النظري الشديد وإغراقها في الماضوية منهجاً وأسلوباً ولغة، فإنه ليس بإمكانها أن تتحول إلى ثقافة بينية.

وتتقارب مساكن اللبنانيين في النجف، أو العامليين، تغليباً لأهل الجنوب على أهل البقاع بسبب قلة احتفال البقاعيين تاريخياً بطلب العلم الديني، إلى أن كانت أوائل الستينيات وفتح السيد موسى الصدر عيون أبناء الأسر غير العلمية على هذا الباب للمعرفة والعمل والمكانة، فتوافد

---

(١) لا تحديد في الحوزة لعمر الطالب بدءاً أو نهاية، ولا لأهليته العلمية، ولا لمدة بقائه، ولا ملزم له بالدراسة، ما يرجع الحرية المتاحة أو المتأتية من غياب المرجعية في هذه الشؤون، والمتمثلة في اختيار الطالب لكتابه ومعلمه وزميله وموعد دراسته وعطلته وتخرجه، يُرجعها إلى حالة اقرب إلى البدائية تتيح علماً وجهلاً، بنفس السهولة أو الصعوبة، من دون مانع من أن ينطلي الجهل ويلتبس بالعلم إذا ما توفرت له ظروف مؤاتية.

البقاعيون وأصبح التغليب تكلفاً لا يعكس غلبة واضحة.. وللبنانيين، أو العامليين، مدرستهم منذ أوائل الستينيات، مبنية بالباطون، ربما بسبب نزعة متراكمة إلى التمايز عن المدارس الأخرى (أكثرها إيرانية) المبنية بالآجر.. والمدرسة اللبنانية أكثر من غيرها، ولأسباب لبنانية، هي اقرب إلى المقيل منها إلى المدرسة.. فقليل من الطلاب يتلقون العلم فيها، والأغلب أن يتسامروا أو يتجادلوا في الأصائل والأماسي.. إلى أن يتبرم بعضهم بحالهم، ويؤكد أفضلية المدرسة الأخرى، الإيرانية خاصة، لماتتيح من بعد عن الجدل، ليس بالضرورة أن يتحول إلى انكباب على التحصيل العلمي، خاصة أن هذا البعد يأتي من إعراض اللبناني عن تعلم الفارسية أو الآذرية أو الأوردية، ومن عدم قدرة الفارسي أو التركي أو الهندي على التحدث بالعربية (رغم إتقانه لنحوها وصرفها وقواعد بلاغتها) لاستنكافه في الأعم الأغلب عن الاختلاط بالعرب.. حتى إذا تحدث لم يُفهم ولم يَفهم تماماً، ويمسي الحوار مناسبة للمفارقات والطرائف، ويقوم ذلك مقام الفراغ العلائقي الذي يوفر وقتاً وجواً للتحصيل العلمي إن شاء الطالب ذلك ويشكل مانعاً من تبادل العلاقات والعادات إلاّ في حالات نادرة.. وإذا ما وقع اللبناني أو العربي عموماً، في إغراء العلاقة مع الفارسي خصوصاً، وسلك إلى ذلك سبيل اللغة الفارسية من خلال

الاختلاط والحوار اليومي، فإنه يقع في محذور هذه اللغة التي يختلف تركيبها النحوي جذرياً عن تركيب اللغة العربية، ما يضع العربي بين احتمالين، فإما أن لا يفهم وإما أن يفتعل مسافة بين ظاهره وباطنه ليكون كالفارسي وليفهم، ويظن أنه يفهم.. ويظل الفارسي يلعب بأذن العربي، الذي يقضي شطراً من عمره لا يعرف أين تأخذه هذه اللغة وأهلها، والفارسي مبتسم متدفق متعجب من هذا الذي يحشر ذهنه في عالم لغوي مطابق لعالم تكويني لا مكان له فيه!؟

وللبنانيين طريقة حياتهم ومآكلهم، ألطفها في نظر الآخرين التبولة وأكثرها إثارة للتعجب والجدل الكبة النيئة.. ولهم الحسد اليومي على مناخ بلدهم والحرية فيه، وإصرارهم على الأناقة والمبالغة في نظافة منازلهم. ولهم أن يلعبوا كرة الطاولة والطائرة في حريم مدرستهم.. ويعترض من يعترض فيرد المشرف على المدرسة بأنه لا داعي لتكبيل هؤلاء الشباب حتى وراء الجدران.. ولهم رحلاتهم إلى شاطئ الفرات للسباحة وأكل اللحم المشوي إذا ما تيسر.. حتى كان لهم أن رقصوا الدبكة اللبنانية في المدرسة، ما عرضهم للمضايقة في أوساط الطلبة والعلماء والأسواق، وهددوا بقطع رواتبهم الضئيلة إن عادوا.. وقد كان الأمر ليهون لولا أن القلوب ممتلئة قيحاً منهم، بسبب لبسهم لساعات اليد وانتعالهم أحذية حديثة وهجرهم (المداس)

مبكراً، وارتداء بعضهم البنطلون تحت جبته، أو قميصاً ملوناً أو ذا ياقة حديثة.

وتمادى البعض فاقتنى الراديو وآلة التسجيل، وقرأ بعضهم سارتر وماركس وكامو الخ.. وواظب البعض على قراءة مجلة الآداب والهلال والفكر المعاصر والطريق والطليعة وأدونيس والماغوط وسان جون بيرس وأراغون ونيرودا ولوركا ومحمود درويش ونزار قباني، وتدور حلقات نقاش حامٍ حول الآخر والاعتراف به وبثقافته المختلفة. وينفتح الحديث على الحداثة والأصالة والنجف وضرورة استمرارها في تجديد نفسها وتطوير اهتماماتها المعرفية ومناهجها الدراسية.. وينتهي واحد أو أكثر من العاملين إلى واحد من حالين، حال يحبه فيه كثيرون من أهل العلم ويحرصون عليه أو يشفقون وينصحونه بالإقلال من المكاشفة بمكنوناته حفظاً لموقعه وسمعته، وحال يتهمه فيها آخرون بالانحراف ويدعون إلى ترتيب المقتضى لدى أهل النفوذ، من حرمانه من المنح المالية الاستثنائية والمساعدات، وأحياناً يسعون في قطع راتبه الضئيل من المرجع، ويدعون إلى تجنبه، وقد يتبرع البعض منهم بمراسلة أهله لإبلاغهم أن ولدهم ليس بصحة عقلية حسنة.. ويتسع صدر المرجع الذي تصل الشكوى إليه ويحتاط للأمر، ولكن وجوهاً تتجهم في وجه صاحبنا الذي يحرم من كثير من المنافع المادية والمعنوية..

ويذهب الشباب من مؤثري الحداثة والتحديث إلى حالة من العصبية الحداثية المستحيلة، وتبقى حداثيتهم في حدود الاعتراض، بينما يكون السلوك مختلفاً في الأوساط العلمية القارة على تاريخ علمي ونشأة وتقليد حوزوي عريق، فيستقر التحديث على حركة إصلاحية منهجية متدرجة، ويحرك الشيخ محمد رضا المظفر السواكن في علم المنطق والأصول والفلسفة، ويفرض كتبه على المدرسين والدارسين بعد ممانعة.

ويفتح السيد محمد تقي الحكيم الأبواب المغلقة على الآخرين في العلم (المذاهب السنية) من موقع توحيدي يعتمد المقارنة في علم الأصول وفي الفقه وسيلة لاكتشاف الذات في الآخر واكتشاف الآخر في الذات، ويرى السيد محمد باقر الصدر في التنظيم الحزبي مخرجاً من السكون إلى الحركة ومن رد الفعل إلى الفعل، شأن سلفه السيد جمال الدين الأفغاني الذي بحث في مصر بعد معاناة عن إطار منظم يوضع فيه جهده ويراكم، فأخذته الطريق إلى المحفل الماسوني، الذي ما لبث أن اكتشف أنه المكان غير المناسب فغادره من دون التفات إلى الوراء.. ولا يلبث السيد محمد باقر الصدر أن يمضي عميقاً وعريضاً في العلم ويرى المرجعية نظاماً ناجعاً للجماعة إذا ما تم تحديثها على موجبات العصر ومشكلاته، فيقرر المرجعية بما تقتضي من

مسافة منظورة عن العمل الحركي المنظم حزبياً على شيء من الحصرية والاختزال، ولا يذهب إلى الفوضى، بل إلى نظام علمي مرجعي يبدأ من الأسئلة الفلسفية في صيغتها المعاصرة بدءاً من اليونان وانتهاءً بالماركسية، إلى الاقتصاد المبني على المادية التاريخية والصراع الطبقي ومقابله الاقتصاد الحر، إلى التاريخ يعاود قراءته على السنن، إلى القرآن وتفصيله إلى موضوعات معرفية يقرأها قراءة معاصرة منهجية تحليلية تنتهي إلى إعادة التركيب من دون تكرار أو اجترار، إلى الحوزة وأطروحتها الأكثر حيوية واتصالاً بالجذور وانفتاحاً على الحقول المعرفية المستجدة وعلى الثقافة العامة، والمبادرة إلى توطيد علاقة مميزة بين الأستاذ والطالب وبين المرجع وحاشيته ومبعوثيه ووكلائه تقوم على أساس الجدوى والجدارة والمكافأة والتواصل والتمثل، إلى إعداد المناهج الدراسية بتقنيات حديثة وثيقة الصلة بالتراث، ولكل المراحل الدراسية الحوزوية.

وبين تلمذة أو تأثر بهذا أو ذاك من هذه العلامات الفارقة في تاريخ النجف العلمي وأمثالها، ومن موقف المرجعين السيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي من التجديد وإصرارهما على المضي فيه بتأنٍ وصولاً إلى معاصرة موصولة، يتوتر عدد من الشباب والشيوخ ويلقون بتوترهم على صدر فلسطين والوحدة، ويبادرون الحزبية

والإسلامية بالسلبية لما فيها من عصبوية، إلى الفكر الحديث وأسئلته المشروعة وغير المشروعة، إلى الحركات الثورية من الفدائيين إلى غيفارا وكاميليو توريس ورهبان الباسك، إلى الأدب الحديث حتى قصيدة النثر والدادائية والسوريالية، إلى المعارك اليومية حول هذه الشؤون.. كان هناك عامليون وعراقيون ذهبوا عميقاً في إيمانهم كما ذهبوا عميقاً في قلقهم المعرفي حتى ظهروا كمشاغبين غير مطواعين ومتهمين في دينهم.. وكان عليهم أن يصبروا عقوداً من السنين، ليثبتوا أن التهمة فعلاً موجهة إلى غيرهم، ولكنهم في البدايات لم يكن حولهم رهط ولا نظام مصالح يحميهم، أما وقد عادوا إلى بلادهم وأهلهم وحريتهم وتحمل مصائرهم بأنفسهم، انكشف أهل الرهط أمام رهطهم بعدما انكشفت بضاعتهم كماً وكيفاً وتكشفت مطامعهم.. وأظهر الكثير منهم أسفه صادقاً عندما حصلت المكاشفة مع طول العشرة وقربها وما أتاحته من اختبارات فكرية وإيمانية للمتهمين، الذين رابطوا على دينهم ودأبهم في تحصيل المعرفة والانتباه إلى أسئلة الأهل والأجيال والعصر.. في حين اكتفى كثيرون من المشايخ بما حصلوه من سواد علمي على مدى سنوات ليعيشوا عليه عقوداً متطاولة أدت إلى استنفاد الكثير منه أو نقصانه قياساً على المطلوب كسبه بمقتضى التطورات والتحديات العلمية والاجتماعية التي وصلت إلى دفع الفكر

الـديني مـن جديـد إلى الـواجهة، مـا جعلـه يكسر كثيراً من واجهاتـه الهـشة ويستنهض همـم أبـنائه المـشاغبين الـذين أكـسبتهم التجـربة الظالمـة بـرودة في الأعـصاب لم تقلل من حرارة القلب في البحث عن الصواب.

الرابطة الأدبية

بعـض الـذين حاذروا من أن تتحول نجفهم إلى منفى، تسللوا إلى بغداد، والتقوا شعراءها وأدباءها، في النجف وفي بغـداد، وخاضـوا في حـوارات وسـجالات حامية وغنية، ما انتهـى بهـم إلى المـشاركة في مـبادرات أدبية لاقت استهجاناً نجفياً واستنكاراً، فصدور مجلة الكلمة مصدرة بالعبارة التالية «تهـتم بـالأدب الحـديث ولا تلتـزم بـه تعـبيراً بالـضرورة»، وصدور أحد أعدادها وعلى غلافه الأول صورة غيفارا باللون الأحمـر مكـتوباً تحـتها «حي في كل رصاصة» وفي النجف.. كـان مدعاة إلى استهجان في حدود الصدمة، ومشاركة اثنين مـن طلـبة العلـوم الدينية من اللبنانيين في المجلة منذ عددها الأول، كـان مغامرة وعلامة، سجلت لهذين الشيخين جرأة تفـيض عـن قـدرة صـدر الحـوزة علـى الاستيعاب والتحمل ولكن شيخينا أحسا أن اقترافهما الملتبس بالارتكاب يستدعي مـراجعة لا تـصل إلى حـد الـنكوص، فعـادا إلى الأمـاكن المـشغولة بالاعتـراض والـنقد والتصحيح والتطوير على قدر مـن التوتـر الـذي لا يقطـع.. ذهـبوا إلى أمـاكن نجفـية دافئة

وخالصة، كان كثيرون يشجبونها ولكن الأكثر كانوا يرونها مقبولة أو مرفوضة من داخل السياق لا من خارجه.. وهكذا اندمج لبنانيون كثر في الرابطة الأدبية وأنشطتها وسجالاتها وجدالاتها.

أتينا إلى الرابطة من كلية الفقه، المشروع الطامح لأن يكون وسطاً ومرحلة انتقالية من التكرار إلى التحديث المتروي، تظللنا عباءة العالم الشاعر الأستاذ والرفيق والصديق اللدود والخصم الحميم في كل ما يمت إلى الشعر بصلة، السيد مصطفى جمال الدين الذي استند إلى عمود الشعر وأخذ يرشقنا اعتراضاً وتفنيداً وتبكيتاً أثناء الدرس وفي أوراق الامتحان (العروض والبلاغة) وفي أسئلته، ونحن نزداد قرباً إليه ونقرأ في حجارة أعمدته الشعرية ونحفظ شعره ونتلوه فيرضى.. وكان السيد محمد تقي الحكيم أستاذنا وعميد كليتنا وراعينا ومثالنا، وراءنا وأمامنا، يوسعنا حباً ونقداً وتوجيهاً وتأكيداً على الاعتدال والصبر والتسوية والتوسط وعفة اليد واللسان وغيرهما.

وأتاح لنا هذا المناخ الصحي، أو هذه الواحة، أن نتابع سيرنا في تلوين أو تعديل الصورة النمطية التي كوّناها لأنفسنا عن أنفسنا، بكوننا وكون علمنا هو الأجدى ولا يحتاج إلى إضافة أو تعديل أو توسيع أو تحريك. وبين الكلية والرابطة داهمنا السؤال: هذه الحياة تتجدد وتزيد تعقيداً والمعرفة

والحقائق تتوالد وتزيد تركيباً، وتتواصل المعارف ويتواصل أهلها، وتتعدى مترتباتها مواطن نشأتها وحساسيات أهل المنشأ، فهل أن دور رجل الدين ما زال ملائماً أم أنه يحتاج إلى تجديد؟ ونرى إلى طموحات السيد محمد تقي الحكيم المتصلة بطموحات سلفه الشيخ محمد رضا المظفر، والتي ربت وترعرعت في أحضان جمعية منتدى النشر التي تشكلت مبكراً في أوائل الخمسينيات على الشرفة الأخيرة لتحديات القرن، ما بعد الاستعمار والاستقلال والتجزئة والحركة القومية واليسارية وفلطسين.. كما رأينا إلى مبادرات السيد محمد باقر الصدر الآتية من طمأنينة عميقة إلى الأصول وقلق حضاري على حركة الفروع، واكتشفنا أن هذا وذاك وذلك من فرادة الحضور والفعل، موصولاً بحبل يكاد أن يكون سرياً مع أشواق المرجعين المميزين السيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي.. غير أن الجهود الموزعة، واستحكام الفردية الموروثة بمعناها العملي، حرمت النجف من مراكمة مساعيها ومبادراتها، وأحاطت المجهودات النازعة إلى كسر حصار الذاتيات، بحالة من التنكر والتشكيك وتجفيف منابع العون والمؤازرة، بحيث لم تثمر الجهود المبذولة ثمراً يضارع حجمها.

إلى ذلـك فقـد انتهينا، أقصد ثانية، حفنة من اللبنانيين والعـراقيين مـن الـذين اعتـبر تعـبيرهم عـن طموحاتهم شغباً وخـروجاً، انتهيـنا إلى تعـديل الصورة النمطية في أنفسنا عن الآخـر الـسني أساسـاً.. والـنجف والعـرب وبـلاد الشام منذ سـقوط الدولـة العثمانية وقيام الدولة الوطنية الحديثة في ظل الانـتداب، وجـدت نفـسها معنية بإشكاليات الداخل فذهبت كـل جماعة لتؤكد ذاتها في مقابل الجماعات الأخرى، وكان طبيعـياً أن تزداد الرغبة في التأكيد في مقابل الجماعة الأقرب تبعاً لمقتضيات المنافسة على مستوى الحضور وعلى المصالح في الـوطن المـركب علـى الجماعـات المقطـوعة عن عمقها الذي كان محفوظاً بالشكل الوحدوي العثماني.. أما المسيحي فهـو في الذاكـرة اللبنانـية في العـراق أقل إثارة، وأكثرنا كان معلمـوهم الأوائـل في قـراهم مـسيحيين ساهموا في تلطيف وتلـيين العلاقـة وتصحيح المعرفة بهم وبحساسيتهم.. أما في بغـداد فالمـسيحي لا يعـدو أن يكـون «خوشـابا» الغـامض الأشـوري، عامـل الفندق أو الملهى أو المشرب، ولا نعرف عـنه شـيئاً سـوى أنه آخر على غرابة ويشرب الخمر ويكشف مفاتـنه قلـيلاً في الـبرد وكثيراً في حر الصيف، وأن منازله لا سور لها وأنه يفضل سكن الشقق على سكن الدور المستقلة، ولم نكـن نلـتفت إلى أن الحجـاب قـد لا يكـون مانعـاً مـن

الابتذال، وهذا تناقض اكتشفناه متأخرين، هذا الاكتشاف كان هو الكامن وراء عدم استثارتنا بالشكل إذا ما توفرت الطمأنينة على سلامة المضمون، المشروط بشكله أيضاً، ولكن الشكل مشروط بمضمونه أولاً وأخيراً..

لقد كنا بحاجة إلى المزيد من المعرفة والتعارف لنمضي في تفكيك الصور النمطية، إلى أن أدى التواصل بين كلية الفقه وجامعة بغداد إلى تعرف الوسط العلمي في بغداد إلى السيد محمد تقي الحكيم الذي أصبح عضواً في المجمع العلمي العراقي، فكان ذلك أول خرق، ثم اصبح أستاذاً مميزاً في المعهد العالي للدراسات الإسلامية في جامعة بغداد، ومن هذين الموقعين بدأت مشاركاته في المؤتمرات العلمية في القاهرة، وتميزت مساهماته بروح علمية راقية أدت إلى قيام علاقات صداقة ومحبة وحوار وتبادل علمي بينه وبين علماء مصر ومن يأتي إليها من علماء الأمصار وأنتجت هذه الحركة في ما أنتجت انكباب السيد الحكيم على دراسة الفقه والأصول العامة للفقه المقارن وتدريسها في كلية الفقه، مشفوعة بدراسات قانونية مقارنة وإطلالات عامة على الفلسفة الحديثة والعلوم الإنسانية والآداب، اختارت لها الكلية أساتذة من جامعة بغداد من كل المذاهب وكل المشارب والمدارس، من مدني صالح الوجودي إلى مهدي المخزومي الشيوعي مروراً بإسلاميين معروفين وليبراليين

مشهورين، وانتهاءً إلى اثنين من كبار أساتذة الآداب واللغة العربية في القاهرة هما الدكتور حسين نصار والدكتور عبد الله درويش اللذان نشأت بينهما وبين الكلية والنجف علاقات مودة على نصاب علمي، وأدّت إلى مزيد من المكاشفة والاكتشاف والاقتراب والشعور بالدور السلبي للجهل المتبادل وبدور المعرفة المتبادلة في ترجيح المحبة والتقارب على التباعد.

وهكذا، من بغداد إلى كلية الفقه إلى الرابطة الأدبية ورحلاتها الشعرية إلى اتحاد الأدباء وأمسياته في بغداد.. بلغنا درجة من الاطمئنان إلى الآخر الذي يمكن أن يقبلنا بقبول حسن حسب كفاءاتنا وطموحاتنا ولياقاتنا وأولوياتنا، ويمكن أن يقدم لنا نفسه بطريقة مختلفة عما ألفناه ولطول الألفة والقطيعة اعتبرناه نهائياً.

في هذا الجو أخذت صورة الغرب تقترب من مدى البصر والبصيرة أكثر، وإن كان الجدل قد احتدم من دون أن يؤدي إلى الانقسام الحاد حول موضوعة الغرب الليبرالي أو الرأسمالي والغرب الماركسي الاشتراكي، والآتون من أصول طبقية فقيرة، وفي حالات محدودة، أتيح لهم، من خلال الاقتراب من الجدل الغربي حول هذا الموضوع، أن يروا في الاتجاه الاشتراكي العام، في الحلم، شروعاً نظرياً وعملياً في تأسيس نظام عادل ينصف طبقتهم، وإن كان الريب قد

اعتـراهم في الأصـول الفلـسفية فقـد أخـذوا يلتمـسون في الإسـلام وفي سـلوك الأئمـة (ع) مـبررات أو مـسوّغات لانحـيازهم إلى مـشروع إسـلامي ذي مـضمون طبقـي، مـا عرضـهم إلى نقـد ونـبذ أحـياناً، ولكـنهم كانوا مصرين على استكمال عدتهم النظرية على أساس إيماني راسخ، ما جعلهم ينتبهون إلى أن الانحياز الإسلامي للعدل والعدالة الاجتماعية وللفقـراء مـشروط بـرؤية توحيدية لا تقرأ التاريخ على حرف واحد، اقتصادياً كان هذا الحرف أو سياسياً.. وهذا ما جعلهم بالـتالي أكثـر عـناءً وتعـباً في الـبحث عمـا ينقض الأطروحة الاشـتراكية ويكشف انسداداتها، ومن هنا أنسوا بجهود السيد محمـد باقـر الـصدر في هذا المجال.. في حين كان آخرون، ومـن أصـول طبقية مختلفة، إن صح هذا التصنيف، وهو لا يـصح إلاّ بـتكلف كـبير، خاصة أن أصله النظري ليس سليماً تمامـاً، هـؤلاء الآخـرون، رغـم اتخـاذهم مـوقفاً قاطعـاً مع الغـرب في كـل تجلـياته، وصلت بهم العصبية في المعارضة للاشتراكية إلى حد الرضى العلني تجاه المعسكر الرأسمالي، وأميركا تحديداً.. وزاد من اندفاعهم في هذا المجال، التجربة الاشـتراكية العـربية، خاصـة في مـثالها العراقـي المسخ، ما جعلهم وجعلنا بالتالي نعود إلى البحث عن أدلة ومؤيدات في سـبيل إنـصاف الـنظام الملكي، إن لجهة توجهاته التنموية أو لجهـة المقدار الذي كان متاحاً فيه من الديموقراطية.. وزادت

مسلكيات الأحزاب الشيوعية والقومية من حالة الحنين إلى الماضي العراقي. واللافت في هذا المسار هو أن الجدليين وأهل الأسئلة والذين ظهروا وكأنهم من أهل التغريب، حاولوا قراءة الغرب في صيغتيه بتمعن أكثر، قرأوا سميث وريكاردو وهيغل وفيورباخ ودوستويفسكي وغوركي الخ، كما قرأوا سارتر وكانط وديكارت وهرزن وسبينوزا وكيركيغارد وهيدجر ولايبنتز، ومن هنا انتهوا إلى رؤية أكثر استقراراً حول ثنائية الشرق والغرب معاً.. وليس صدفة أن ينتهي قسم كبير من الذين نظموا أنفسهم سياسياً، على مقدار فائض من الاستنفار الأيديولوجي ضد الغرب إلى الوقوع في أحضانه، في حين أن الذين اشتغلوا على الغرب كإشكالية انتهوا إلى أمرين، إلى الشعور العميق بالتمايز، وإلى أن هذا التمايز التكويني والتاريخي، ليس بالضرورة أن يفضي إلى التقابل الثنائي وهنا أعدنا تشكيل فهمنا النقدي لتجربة كلية الفقه، التي اندفعت على غير قصد وتحت إلحاح هاجس التجديد، إلى مكانٍ خارج السياق، ما أدى بها إلى خسران دورها المرتجى أو التقصير عنه، مقدمة لإضعافها ومصادرتها.

لقد علمتنا كلية الفقه كثيراً، وكان بإمكانها أن تعلمنا أكثر لو أنها أصرت على موقعها الحوزوي وظلت في مكانها وسيطاً بين الحوزة القديمة والحوزة الحديثة العتيدة والمنشودة.

إذن كان توترنا الحداثي مبالغاً فيه ورومانسياً، يعرف ما لا يـريد أكثـر مما يعرف ما يريد، أي أنه انقلابي أكثر مما هو تطويـري وتجديدي، وهنا يعترينا شيء من المؤاخذة لأنفسنا لأنـنا كـنا أقـل إفـادة مـن أكاديمـية النجف الكلاسيكية على إشـكاليتها، ولعلّه كان الأنفع أن نكون كلاسيكيين موصولين ومـصوبين نحـو حداثة متأنية.. ومن هنا عاد كثير منا في لبنان إلى اسـتدراك بعض ما قاله مستحضراً المناخِ النجفيِ بعد فقد النجف واليقظة عليها عن بعد.

وفي محاولة لتفسير ذلك، يمكنني القول، إن الحريات العظمـى الـتي كانت توفرها الحوزة في النجف، كانت أقرب إلى الكـم مـنها إلى الكيف، لقد كنا بحاجة إلى نظام حر، أو إلى نظـم حـرياتنا، مـن هـنا استغرقنا في فرديتنا، ومن حفظ لنفـسه كـثيراً أو قلـيلاً مـن العلـم والمعرفة والعمل، فبإرادته واختـياره الشخـصي أولاً.. لأنـه مـا مـن أحد منا كان يخشى حـساباً مـن أحـد.. وكـان نجـاح الفاشـلين علمياً في حياتهم العامة إغراءً آخر بالكسل والفوضى، لولا الدين والطموح.

إلى ذلـك، فقـد عـدنا من النجف خالي الوفاض، ولو مـن الحـد الأدنى، مـن الـثقافة البينـية، التي تنشأ من خلال تجـاور وتعايش أعراف وتقاليد متعددة وغنية، ومن يشك إلا جاهـل، يغـنى الـثقافة الإسـلامية الإيـرانية العامـة في الفـن والأدب بوجه خاص فضلاً عن الفلسفة والعرفان؟

وما عرفناه عن الأفغانيين والهنود والباكستانيين، بعد ترك النجف، كان أكثر بكثير مما عرفناه أثناء فترة عيشنا معهم، حتى العرب الآخرون من المملكة العربية السعودية أو البحرين، فإننا لم نكن نتواصل إلاّ مع الأفراد المتعرقين منهم..

كانت هذه حالنا وحال الآخرين.. إذن كانت حالاً نجفية جديدة ومعاصرة تنتمي في تبلورها إلى حقبة ما بعد العثمانية والدولة الوطنية، لأن الاندماج النسبي بين الجاليات المختلفة في الحوزة النجفية له صورة أخرى في أدبيات النجف وتاريخها العلمي وما تبقى من ذاكرتها.. ولو كان حصل الاندماج بصورة أوسع لكنا أمام حالة تشبه حالة المشايخ اللبنانيين الذين مروا بالنجف أو عاشوا فيها فترات مختلفة، وكان ذلك كافياً لتحول النجف في ما بينهم إلى رحم جامعة لا تمنع الاختلافات والقطيعة أحياناً، ولكنها تعود لتجمع عند أول منعطف حقيقي أو لقاء، حتى لو كان عابراً.. وهذا غير ملحوظ في الذين يتخرجون من قم الآن، لا لقصور في حوزتها عن الحمل، بل لأن حال الحوزة مشوبة بالسياسة أو قائمة عليها، ما عطل الرحم أو أدى إلى الاستغناء عنها بالأنابيب.

٢٠٠٤/١٢/٨

النجف ـ أقوام، مقامات ومفارقات ولغات

ذهبت إلى النجف رافلاً أهز أعطافي لاستواء ذوقي اللغوي على مقدار من الحساسية اللازمة للدخول في النص الجميل والإقامة فيه وإعادة اكتشافه مع كل قراءة أو استذكار.. ودخلت في الحيز العربي من الحوزة، ومن بوابات شخصية تنام على اللغة وتتغطى بها وتتمطى فيها وتستحم برذاذ المعنى وتشرب من كاس المبنى، وإذا ما مشى أحدهم واكبته كوكبة من الاستعارات والكنايات، من أمامه ومن ورائه ومن بين يديه وعينيه.. إذن هذه جنة وجُنة.. في هذا الحيز، ولأني لم أكن بعد قد تعديت عقار اللغة إلى فيافي العلوم الحوزوية الأخرى، خُيّل إلي أن اللغة العربية هي اختزال الحوزة العلمية.. وأخذت بالتقاط الفارق بين الطريقة العربية، طريقة العرب، وطريقة غير العرب، في التعاطي مع الفقه والعلوم الموصلة إليه، لأجد أن العلماء العرب أو الذاهبين بعيداً في تعربهم، هم الفقهاء بالمعنى الأولي والتاريخي للفقه (الفهم)، يتعاملون مع النص كمعطى لغوي لا مسافة منظورة بينه وبين محتواه المتحرك ودائم التحرك طبقاً لأهلية قارئه العلمية والذوقية، واستظهار النص الذي لا بد أن ينتهي إلى استبطانه، معياره الأول هو الذوق الخاص

الـذي يتكوّن لدى الفقيه بالدربة والمعاناة مرتكزاً في الأساس إلى مقدار من أهلية ذاتية وإرادة في الوصول إلى المعنى، من هـنا مـا هـو شـائع في الـنجف مـن تمييز بين فقيه وفقيه آخر بالـذوق الفقهـي حـتى لـو كان الأقل ذوقاً أكثر علماً ومعرفة وإحاطة بمفردات المسائل وفروعها.

ولعلّـه، مـن هـنا، مـن هذا الفارق التكويني بالأصل، انكـب غـير العرب على أصول الفقه، حتى جعلوا هذا العلم حيـزاً معرفياً مركباً أسقطوا عليه وفيه مكنوناتهم ومحفوظاتهم الفلـسفية، طمـوحاً منهم إلى آلية أو بنية تركيبية تجعل عملية الاسـتنباط أشـد تعقـيداً، وتجعـل الاختصاص المركز سبيلاً حصرياً وصعباً، ما يعطي للعالم هيبة تجعله استثناء، ومن هنا جاء الإصرار، نتيجة الغلبة الأصولية، على الإكثار من عوائق الـتجديد والخـروج علـى السياق التقليدي المتوارث كما هو تقـريباً. حـذراً مـن الـشطح الـتجديدي الـذي قـد يؤدي إلى القطـيعة مـع الـسياق. حـتى لقـد أديـن أهل التجديد دائماً، واعتـبروا أدبـاء أكثـر مـنهم علمـاء(*) لأنهم تورطوا في كتابة

(*) يذكر المرحوم الأستاذ جعفر الخليلي، الأديب والصحافي العراقي، النجفي في كتابه (هكذا عرفتهم) هذا الشاهد: يقول: إن السيد محمد سعيد الحبوبي المرجع وقائـد ثـورة العـشرين والـشاعر المميـز جداً، تعب المرحوم الشيخ محمد رضا الـشبيبي وفـريق عملـه في مجـال جمـع وتحقـيق الـتراث، في جمع شعره (أي الحـبوبي) (لأنـه كان قد ترك قول الشعر وانصرف عنه إثر ما حدث له مع الشـيخ مـلا محمـد كاظم الخراساني (المعروف بلاخوند) فقد ناقشه الحبوبي في مسألة أصولية فقال له الخراساني: إنك رجل شاعر فما أنت والمسألة الأصولية).

الأصول والفقه بلغة جديدة وترتيب جديد جعل الطالب قادراً على التعاطي المباشر مع المسائل العلمية، بينما كان السائد، هو الانشغال والاشتغال على العبارة الغامضة والمدورة والاختزالية(*). وتأثرت الدراسات اللغوية بهذا التوقيف المدروس والهادف، وإن كان في مظاهره وتعبيراته يشير إلى الفوضى.. فلشرح ابن الناظم لألفية ابن مالك قدسية، فإن

(*) من أشهر الكتب (العقدة) في الحوزة النجفية كتاب «كفاية الأصول» للملا الخراساني، وضعه للتدريس أواخر القرن الماضي، واعتمد فيه الاختزال الشديد والتركيز العلمي العميق حتى أصبح في نظام الدراسة مثل (الماراتون) يعرق الطالب كثيراً ليدخل في عبارته والتي هي أقرب إلى اللغز أو الأحجية ويبدو معه علم الأصول وكأنه (أكروباتيك علمياً وجانباز يرفع العضلة والمفصل الجسدي إلى مصاف الأداء العقلي أو المحكوم بعقل ملائم!) ومن أمثلة العبارات المدورة التي تشتبك فيها الضمائر وأصحابها قوله في مبحث «الضد» (لاستحالة أن يكون الشيء الصالح أن يكون موقوفاً عليه الشيء موقوفاً عليه) التي يستغرق شرحها ما بين يومين إلى أسبوعين حسب استعداد الطالب وشطارة المعلم. وفي هذا الصدد يروي جعفر الخليلي عن نفسه وانطباعه يقول: «وكنت وأنا صبي أمر على المسجد الهندي ومسجد الخضراء ومسجد الطوسي، وأخيراً الصحن الشريف في النجف، فأسمع العلماء يتدارسون ويتباحثون، فكان ذلك عندي كالرطانة، وإذا كان ذلك حقاً باعتباره درساً من الفقه والأصول، الذي فوق مستوى إدراك الرجال، فضلاً عن الأطفال، فأين الحق في هذا الكلام الذي يتداولونه في مجالسهم ويرسلونه تعبيراً عن أغراضهم؟ ولكن قد ينطلق من بين هذه الرطائن التي ينطق بها العلماء كلام مفهوم بعض الأحيان لدى جميع الكبار والكثير من الصغار، فترتاح إليه النفوس، وينفذ إلى القلوب، لم نعرف سبب هذا الاختلاف حتى قيل لنا إن هذه اللغة المفهومة، إنما هي لغة المتجددين من العلماء.. فكانت آثار السيد محسن الأمين من هذا الوصف في الطليعة».

اقتصر الطالب على شرح ابن عقيل، بعد المرور «بقطر الندى» لابن هشام، اعتبر كسولاً، غير محصّل، بينما كان الأكثر من الطلبة الإيرانيين والأفغان والباكستانيين والهنود، يستكلمون ابن الناظم في «مغني اللبيب» لابن هشام الذي لم يعتن به من طلبة جيلنا من العرب إلاّ أقل القليل، متشبثين بقناعتهم، بأن اللغة العربية، هي في الأساس سليقة قبل أن تكون هذا النحو وهذا الصرف وهذه البلاغة الموروثة.

هذا قبل أن تشتهر علوم لغوية جديدة (ألسنية) تبحث عن الدلالة والبنية والنص والتناص والصوت والإشارة انتهاء إلى الوقوف عند اللغة في البحوث الانتروبولوجية، جعلتها نشأتها الغربية سبباً لتأبى الحوزات عن التعاطي معها وبها، وإن كان الألسنيون العرب الآتون من الغرب قد دخلوا من بوابات هذه العلوم إلى فضاءات غنية بجماليات اللغة العربية وحقولها الدلالية الشاسعة.. أما في البلاغة، فإن المتون التي أنتجتها فترة التراجع بدءاً من أواخر القرن الخامس الهجري (السيطرة السلجوقية) كانت مقدسة ولا داعي بل ولا عذر في تعديتها إلى غيرها.. وكانت هذه القداسة وما تزال تشكل حصاراً للذوق تمنعه من الخروج عن المكتوب، متناً وشرحاً ومثالاً، فلا يعود بإمكان الدارس أن يرى جمالاً في استعارة أو كناية أو آية، ليست واردة في كتابه.

أما لماذا؟ فتقديري أن علم البلاغة قائم على الطريقية لا الموضوعية، أي أنه لا يطلب لذاته، بل بما هو موصل إلى

فهـم، إلى مقـدار مـن الفهم والاستيعاب لدلالات اللغة قبل جمالاتها، ما يعني أنه عندما يتاح لمن يتكلم العربية أن تبتني سـليقته الموصلة والحساسة على شيء من الذاتية والحساسية والمـراس، تقـل حاجـته إلى علـم الـبلاغة (المعـاني والبيان والـبديع) أو إلى التفاصيل الدقيقة في هذا كله. أما الآخر فإنه يـضطر، مـن أجـل معـرفة الـصورة البيانـية أو الوصول إليها والقـياس علـيها.. يضطر أن يفكك هذه الصورة إلى عناصرها المكونة، فيعطلها، يعطل النص كبنية دلالية وتأويلية، ليصل إلى معـناه المباشـر والحصري والناجز، يفهمه مجزءاً، أو لا يفهمـه، ثم يجمـع الأجـزاء ليمضي منها إلى الأشباه والنظائر والأمـثال، وقـد تفوته الدقة في القياس(*)، فيقع في مصائب

(*) يروي الخليلـي في كـتابه المذكـور أعـلاه، أن العالم الكبير والأديب والناقد الكبير السيد رضا الهندي، كان مولعاً بشرب الشاي الذي اشتهر الخليلي بحسن إعداده في جـريدته (الهاتف) وقد سمع السيد الهندي يصيح وهو يصعد سلم مبنى الجريدة في الـنجف (أنـا شـايان) فـتعجب الخليلـي مـن هـذا القياس اللغوي الغريب، وعندما استفـسره حكـى لـه حكايـة فقـيه (إيراني) ضايقته بطنه على متن إحدى السفن فقال للمـلاح: أريـد الخـلاء، فلم يفهم الملاح مراده، فقال: أريد المرحاض فلم يفهم، وسمع الفقيه طفلاً يبكي ويصيح (أنا جوعان) فقال الفقيه: الآن فهمت فالقياس على وزن فعـلان فقـال: يـا مـلاح «أنـا بَوْلان» وأنا كذا وكذا إلى آخر ما يتصل من الصيغ ذات الصلة بما في بطنه.. ففهم الملاح مراده..

ويتناقل الطلبة في النجف ما يمكن أن يكون حاكياً عن واقع هذا الحال، وهو أن أحـد الطلـبة الأفغان جاء إلى المرجع يطلب منه مساعدة مالية لعلاج والدته المريـضة. فقـال لـه: والـدي المـؤنث، (أي والـدتي) (مَـسخَنَة) أي (مسجنة) (حـسب مـا يقال بالعامية العراقية للمريضة) وأريدك الآن أن تفعل فيها الدواء.. كان يريد منه أن يعطيه ثمن الدواء!!

ليس أقلها ما روي عن أحدهم عندما قرأ تعريف الاستصحاب (عرّف الاستصحاب بتعاريف أسدُّها كذا) فقرأ أسَدُها بدل أسَدُّها، وفسر ذلك بأنه أقوى من جميع التعاريف فأكلها جميعاً!

وتقرأ في مجلس واحد على عربي أصلي أو مستعرب.

«ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المبتسم»

فيطرب العربي والمستعرب ويزدهيه الطرب.. وتسأله لماذا؟ فلا يكلف نفسه عناء الإجابة.. ويذهب الآخر في البيتين تفكيكاً وتفصيلاً باحثاً عن التشبيه ونوعه وأداته ووجه الشبه والطرفين، متمادياً إلى كشف الكناية وعدد وسائطها والاستعارة ولوازم المشبه به فيها، وعن الفصل والوصل حتى يصل كما في كتب البلاغة إلى وظائف الأعضاء وخزانة الذاكرة والمخيلة، وهكذا يصبح الفن بين يدي صاحبنا «كيمياء» لغوية، ويمط شفتيه تعجباً من قدرة الشاعر على الصناعة.. فإذا ما انتقل إلى لغته الأم وجدته يطير مع سعدي ويحلق مع حافظ ويشكو من صناعة الفردوسي.. وتسأله لماذا فيعجب من سؤالك ولا يجيب. وأعترف شخصياً، بأني في تعاطي المحدود مع الشعر الفارسي أو الأدب الفارسي عموماً، أجدني مضطراً إلى السؤال عن التفاصيل وإلاّ فاتتني

معـرفة مـواطن الجمال والإبداع في القصيدة.. إذن فهل اللغة تكوين؟

في لقـاء مـع المـرحوم الـشيخ محمد حسين الزين قبل وفاتـه عـام (١٩٨٦) سـألته عـن مـضمون الرسائل التي كان يبعـثها إلـيه والـده العـالم والأديـب الكبير الشيخ عبد الكريم الـزين إلى الـنجف في عـشرينات وثلاثيـنات القـرن الحالي، فقال: كان يلح علي أن أقرأ فقه العرب وأصول العجم، وهذا الجواب أعاده علي السيد علي مهدي إبراهيم رحمه الله عندما سـألته عـن رسـائل والـده العالم الكبير السيد مهدي إبراهيم. ويقـول الإمـام الـشيخ محمـد مهـدي شمـس الـدين في هذا الصدد «إن الفرس خصوصاً جودوا في أصول الفقه بعد القرن الـسادس عـشر المـيلادي، تأسـيس الدولـة الصفوية وجعل المذهب الشيعي الإثنا عشري مذهباً رسمياً وعاماً لأنه لم يكن في ذاكـرتهم مـثال يبـنون علـيه في الفقـه الشيعي، فاعتمدوا الأصـول ومـضوا بعيداً في تركيبها وتعقيدها تغطية للفراغات الفقهـية». وإن كـنا نجـد إشـراقة فقهـية لدى الشيخ الطوسي الفارسي الموغل في العربية لغة وثقافة تحولت إلى عقدة لدى فقهـاء لاحقـين لـه إلى زمن طويل، فربما كان ذلك متأتياً من استـغراقه في المـناخ العربي في بغداد القرن الرابع وامتداداته العلمـية المميـزة في القرن الخامس، قبل سقوط بغداد في يد الـسلاجقة، ولجـوء الطـوسي إلـى النجف وتأسيسه لحوزتها

(٤٤٨هـ) فهو موصول بالرضي والمعري والتوحيدي وأبي إسحاق الصابي وأستاذه أديب العلماء المرتضى ومنحدر من سياق الشيخ المفيد.. ويبقى عبد القاهر الجرجاني في «أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» علامة فارقة في تاريخنا النقدي والبلاغي، ما زالت حية في ذوقنا ونقدنا واستكشافنا الدائم لأسرار العربية.. ولكن المفارقة العظمى في النجف أن مقتضيات التكوين الفارسي الأجنبي عن أسرار اللغة العربية فرضت نفسها على الجوزة العلمية وانشغل الطلبة العرب مرغمين بفعل الغلبة الإيرانية، والمال والتنظيم في مقابل الفقر العربي والفوضى، والعفوية من أسبابها، على صرف الوقت والجهد في بلاغة السكاكي وقدامة وأبي هلال العسكري وكل ما هو منحدر ومتحدر من فترات التراجع العلمي والأدبي بدءاً من بداية العهد السلجوقي في العراق.. وقد كان الشيخ محمد عبده والأفغاني قد تنبها باكراً إلى هذه المشكلة وحاولا حلها، إلى أن تصدى الشيخ أمين الخولي لها في كتابه «فن القول» ولكن الأزهر كان قد تحول من جامعة إلى جامع، وحلت الجامعة الأزهرية محله على نصاب حديث في جميع الاختصاصات العلمية والأدبية.. بينما تركزت جهود المجددين في النجف على الفقه والأصول، حتى لما أرادت كلية الفقه أن تجدد في علم البلاغة اختارت كتاب البلاغة الواضحة لعلّي الجارم، وهو عبارة عن تبسيط

للكتب الكلاسيكية، بينما انتشر في الحوزة كتاب جواهر البلاغة للهاشمي المصري لينكشف أنه رغم جدته متخلف عن الكتب المتوارثة من قديم الزمان.. وبقي الذوق اللغوي والأدبي شأناً خاصاً يعود إلى ذات الطالب الذي تضطره رسوم الحوزة لأن يقضي سنة بكاملها مصغياً إلى أستاذه يعيد عليه عبارات كتاب «المختصر» للسعد وشرحها.. وبعد شهر من نهاية الدراسة يكون الطالب قد نسي كل ما تعلمه من معلمه، وعاد إلى ذوقه الخاص طريقاً للدخول في اللغة وآدابها وظلالها الكثيفة الوارفة.. هذه الحال التي لم تحل حتى الآن، بل استمرت على تراجع في أهلية الطالب والمعلم الأدبية العامة، تفسر حالة التردي اللغوي والأدبي المتفشية في أوساط رجال الدين. والتي نأمل أن نتجاوزها مبكراً من خلال الإصرار الظاهر والعميق لدى الحوزة على النهوض والتجديد والتجدد في سياق متصل غني بالأسئلة مصغ للتحديات التي تضع المنعطفات إذا ما تم استيعابها بروية وأناة.

١٩٩٩/٣/٨

الأفغانيون في النجف

الحياة على طرف الحياة

حصلت أزمة خبز في النجف وكربلاء وعدد من مدن الفرات الأوسط في العراق، بعد أن أنجزت السلطات العراقية طرد الأجانب والمتهمين بالأجنبية من هذه المنطقة وغيرها من مناطق العراق، وكانت الغاية الباعثة على هذه الحركة هي إخلاء النجف خصوصاً من الإيرانيين. كما كان لهم من يد طولى في حفظ استمراريتها وخلاصها من الممرات الصعبة.

بعض الهنود والباكستانيين والأكثرية الساحقة من الأفغانيين لم تكن السلطات العراقية بحاجة إلى ذريعة سياسية (تعريب الحوزة) تمهيداً لمصادرتها، لكي تطرد من تريد، وكان يكفيها أن تدقق في أوراقهم لتكتشف أنهم منذ وصولهم وعلى مدى سنوات أو عشرات السنوات لم يكلفوا خاطرهم مراجعة دوائر الشرطة المختصة بخبر وصول أو إقامة.. وذلك لابتعاد مفهوم الدولة وخاصة دورها في المنع عن أذهانهم.. ثم إن النجف هي نجف علي، فلماذا التعقيدات البيروقراطية؟ إلى ذلك فإنهم قليلوا التعرض لأجهزة الشرطة

لأنهم لا يسافرون ولا يتنقلون بين المناطق العراقية إلاّ في أيام الـزيارات العامـة إلى كربلاء خاصة، وإلى الكاظمية وسامراء أحياناً حـيث يـندمجون في الحـشد الكـبير في أيام تكون فيها الأجهـزة مضطرة للتراخي في المراقبة، ويختار الآتون للعمل والـباقون من أجله والمتحولون من العلم إليه أشغالاً شتى في مجـال الخدمـة الـتي لا تـستدعي علماً أو مهارة، من خدمة بـيوت العلمـاء إلى خدمـة المـساجد والحـسينيات مـن دون العتبات المقدسة التي لها تنظيم خاص.. ولكن الأكثرية تختار المخابـز.. وفي أيامنا في الستينيات وأوائل السبعينيات امتداداً لمـا قـبلها، وإلى أن نشطت حركة الطرد والتهجير في أواسط الـسبعينيات، كانـت مخابـز الـنجف بنـسبة ٩٩٪ مملـوكة لتجفـيين ولكـن الخـبازين من الأفغان أو من الخراسانيين من أصـل أفغاني بقوا في منطقة خراسان بعد انفصال هذا الإقليم عـن أفغانـستان أو انفـصالها عنه في القرن التاسع عشر، لقد خـرج هـؤلاء بـالآلاف مـع عـشرات الآلاف مـن الإيـرانيين المتعـرقين والعـراقيين المجنـسين والمـئات مـن العلمـاء والمجـتهدين، وكـادت الـنجف أن تفقـد رغـيفها البربـري الأفغاني الأثير لولا أن السلطة التفتت مبكراً إلى حجم الأزمة فقـررت أن تمـارس عملية الطرد بالتدريج لتتيح للعراقيين أن يحلوا محل المهاجرين بعد اكتساب الأهلية التي تقتضي صبراً علـى مـشقات جمـة. فالأفغـاني الخـباز يـستمتع علـى مدى

شـهرين مـن صـقيع الـنجف القاسي بالدفء ويبقى محسوداً على مجاورته للتنور أو إلقاء نصف جسده في جوفه مرتين أو ثلاثـاً في الدقـيقة الـواحدة ولمـدة ساعتين أو أكثر صباحاً أو ظهـراً أو مـساءً.. وما أن ينقضي الصقيع ويبدأ الصهد النجفي بالـسيطرة علـى الـناس والأشـياء بمجرد طلوع الشمس وإلى سـاعات مـن غـروبها. وتبلغ الحرارة وسط النهار ما فوق ٤٥ درجة مئوية ويبدأ النجفي بمعالجة ضيقه بالماء البارد أو الفاتر والتكيـيف المتيـسر والاسـتحمام المتكـرر والعـصبية والتوتر الـدائم وتخلـو الـشوارع مـن المـارة. إلاّ المـضطرين للإتيان بالخبـز الطـازج، فـإنهم يذهبون إلى الأفغاني فيغيضهم وهم متـبرمون مـستعجلون بأناته وبرودة أعصابه وعلامات الرضى على وجهه وابتساماته السخية وضحكه لأدنى سبب أو مفارقة قـد لا تكـون مفارقة ولكن ضعف لغته وملاحظته يصورها له مفارقـة (نكـتة) ويـضحك.. يـضحك حـتى يتقاطـر العـرق المتصبب من بدنه فيرطب تراب أرض المخبز.. ودائماً يكون لـدى الخـباز الأفغـاني مـا يـسلي طالـب الخبـز عن الحرارة الـشديدة، خاصـة عـندما يقـف أمـام زبـونه بـين وجبة تنور وأخـرى لدقـيقة أو أكثـر ولكنه لا يقف بل يحدث زبونه عن خـصائص خبـزه ومخبزه، وعن سوء أخلاق أولاده الذين لا يـريدون أن يتعلموا أو يعملوا وهو يرقص.. أي يعيد حركات جـسمه التي ترافق أو تناسب حركة يده إلى العجين لاقتطاعه

ثم (رقـه) ثم (لـوحه) ثم وضـعه على (الكارة) وبحركة لولبية يدخلـه في التـنور مواصـلاً حديـثه. وقد يصل الزبون متأخراً فيـستقبله الخـباز الأفغـاني الجـالس علـى دكة المخبز الطينية هادئاً ولكنه بمجرد قيامه يبدأ بالرقص والكلام عن خبزه الذي يـنفد باكراً لجودته، ويدل الزبون على خباز آخر أقل جودة، ولذلك فمن المحتمل أن يجد طلبه عنده، ويودعه راقصاً.

ومـن المفارقـات أن هـذه الحالة النجفية الكربلائية من اختـصاص الأفغان والبربر في خبز التنور وجدته غالباً بل تاماً في المـدن الإيـرانية التي خبرتها من طهران إلى قم إلى مشهد إلى أصـفهان، والحـال نفس الحال والكلام نفس الكلام عن حـركة الجـسد علـى إيقـاع الـنار.. أمـا الإيـراني الفارسي أو الآذري فإنـه في المديـنة مدني صامت متبرم وغضوب.. وفي الريف يشبه كل أهل الأرياف في الدنيا.

لغات ودروس

وإذا كـان بعض اللغة العربية يتيسر للعاملين الأفغان في المخابـز جـراء علاقـتهم اليومية مع الناس العاديين، فإن هذا الـبعض اللغـوي يـنحدر إلى مقـدار مـن المفردات المنطوقة كـيفما اتفـق لـدى الأفغان العاملين في المساجد والحسينيات وبـيوت العلمـاء حـيث اللغـة الفارسـية في حـديها الأعلـى والأدنى، الـصالح لمقـدار من التفاهم مع الأفغاني بخصوص

عمله المحدود، متوفرة، أي اللغة الفارسية، ومن هنا تسمع عبارات من قبيل (بويا لا تروح بالخيابان يكظك الباسبان) من والد أفغاني إلى ولده يحذره من الذهاب إلى الشارع حتى لا يمسك به الشرطي.. وإذا ما أنس لك الأفغاني خادم المسجد بعد الصلاة أتاك بكوب ماء بارد وقال: تفزّل (الآب اليَخْ) أي الماء البارد بالفارسية (وهي بالمناسبة لغة الشيعة الأفغان والطاجيك الأفغان وطاجكستان) ويأخذ بالحديث معك عن زيارته مع عائلته للكوفة على بعد عشرة كيلومترات ورؤيته لشط الفرات وقصر الملك فيصل ويخبرك بأنه ذهب «بالدوشكة» أي العربة الخشبية التي تجرها الدواب توفيراً لأجرة الحافلة التي تفوق قدرته المالية. ولا يقطعه عن حديثه إلاّ صراخ أمين المسجد عليه مؤنباً لأنه أوصاه أن يأتي بالفحم من أجل السماور فذهب إلى الدكان المعهود وعاد خالي اليدين لأنه لم يجد لحماً.. ويسر أمين المسجد في أذنك (فالج لا تعالج).. أصبح له عشر سنوات هنا ولم يحفظ اسم الشارع المجاور، وكلما أردت إرساله إلى مكان يجب أن أعلم له علامة عليه عادة ما تكون بُعد ذلك المكان المقصود عن منزله أو منزل أفغاني غيره، وإذا طلبت منه الذهاب إلى مسجد أو حسينية فلا بد أن اسمي له الأفغاني الذي يخدمها حتى يعرف أين هي، والمصيبة أني اضطر إلى إرساله أحياناً إلى منزل مرجع من المراجع وبدل أن أقول له اذهب إلى

منزل آية الله الإمام فلان أقول له اذهب إلى آية الله «غلام علي أكبر» أي خادم المرجع، أما في المجال العلمي فقد خطر لي مرة أن أسأل صديقي الجالس إلى جواري في أحد المساجد أثناء احتفال تأبيني لأحد كبار العلماء، وكنت أراقب حركة عدد من المعممين الأفغان يدخلون ويخرجون بسرعة، فقال الصديق الخبير أنهم لا يأتون لسماع الخطابات والقصائد بل لشرب الشاي وجمع لفافات التبغ المجانية (المزبَّن) حالهم حال الأشد فقراً من سكان أطراف النجف، ومن مجلس إلى مجلس حتى يجمع الواحد منهم ما يكفيه أسبوعه.. أما عن مستواهم العلمي واهتمامهم بالزمان والوقت فقد استدعى صديق واحداً منهم يعرفه وسأله: اليوم هو العشرون أو الخامس والعشرون من الشهر فقال: أظن أنه الخامس والعشرون.. وكنا في الثالث منه وثنّى الصديق بسؤال لصديقه، وفي أي شهر نحن الآن ربيع الأول أو محرم فقال: أظن محرم وكنا في جمادى الثانية.. وكان أحد كبار علماء النجف، نظراً لصبره وأناته وسعة صدره، مكلفاً من المرجع بإجراء امتحانات شهرية للطلبة منهم لإعطائهم رواتبهم الشهرية المناسبة والمعرضة للزيادة الطفيفة نظراً للتحسن الطفيف في تحصيلهم والنقصان الطفيف نظراً للتراجع في هذا التحصيل، والتحسن المقصود لا يزيد عن التفريق بين الفعل والاسم أما إذا ارتقى الطالب إلى مستوى التفريق بين الماضي

والمضارع فإنها تعادل مرحلة الاجتهاد، ومرة كان أحدهم في مجلس السيد المكلف من المرجع ليراجعه في شأن الزيادة في الراتب فتدخل أحد الحاضرين وسأل الأفغاني عن مقدار الراتب فتبين أنه في حدود ربع دينار، وسأله عن شروط الراتب فقال: الامتحان، فتحمس السائل وقال له تعال إلي وأنا أعطيك الراتب من دون امتحان ووجع رأس فأجابه الأفغاني ولكن لي رفاقاً عددهم ستون شخصاً. فتراجع صاحبنا وقال له: لا، بشرط الامتحان إذن.. وأكثر من مرة أثناء وجودي في النجف عرفت أن الحوزة أربكت بسبب حركة احتجاج من الطلبة الأفغان لدى المراجع نظراً لضآلة رواتبهم. ومن الطرف التي يتداولها الطلبة في النجف أن أفغانيا بلغ مرحلة متقدمة نسبياً من الدراسة ودخل في دراسة كتاب (الشرائع) الذي يعتبر مدخلاً إلى الفقه الاستدلالي.. ولكنه لم يستوعب إلى أن أخذ النوم يداهمه كلما فتح كتابه ليقرأ فيه.. وبعدما تزوج ورزق بولد الولد ظل طوال أشهره الأولى قليل النوم فارتأى الشيخ (أكبر أصغر) أن يعالج أرق ولده بالكتاب الذي اعتبره مصدر النعاس وأخذ يفتح الكتاب ويضعه على وجه طفله الرضيع علّه ينام، ولا ينام فيزداد أبوه حيرة ودهشة ويفكر بأن العلاج ربما كان في كتاب أشد تعقيداً أي «اللمعة الدمشقية». وماذا كانوا يفعلون برواتبهم الزهيدة تلك؟

الجَلَد على الفقر والعصبية

لم تكن ملابسهم الخفيفة تتبدل بين الصقيع والحر الشديد.. أحذيتهم من المطاط المستهلك ومن دون جوارب.. ويؤثرون السكنى في وسط المدينة وفي غرف طينية هالكة وأقرب إلى الزنزانة، فلا يحتاجون إلى وسائط نقل.. ويستعيضون عن اللحم بالعظم يضعونه طوال الليل أو النهار على سخان يعمل بالفتائل والكيروسين ببطء شديد، ومع العظم قليل من بصل وبطاطس وحامض بصري يابس يعطيه نكهته (ماي لحم أو آب غوشت)، ومع كثرة الماء المضاف يصبح المجال متوفراً للخبز المثرود.. خبز الشعير طبعاً، وثمن الرغيف منه نصف ثمن رغيف القمح.. وفي الصيف قليل من التمر أو الرطب (الزهدي) الأرخص مع قليل من اللبن المجفف (اللبنة) والمستخرج من مسحوق الحليب الناشف الرديء والمعد في الأصل لتغذية صغار المواشي وقد شاركناهم أكله لسنوات. وإذا كان لا بد من التنويع فهناك الكراث الأخضر وأوراق الفجل تشترى من مفازة في آخر النهار، أو ينتظر إلى أول الليل حتى يعافها بائعها لكسادها واصفرارها فيجمعها من دون مقابل.. والعيد العيد عندما يهجم الكرم على الميسورين من أهل النجف في مناسبات وفيات وولادات الرسول (ص) والأئمة عليهم السلام فيذهب الأفغانيون زرافات ووحدانا ومعهم أولادهم بنين وبنات ومع

كل ماعونه الفارغ، يأكل ما تيسر ويعود بالماعون مملوءاً أرزاً ومرقاً متعارفاً هو (القيمة) أو مرق الحمص ممزوجاً بالبركة والثواب، أما تدينهم فلا يقبل النقاش في شيء.. كل معتقداتهم ومسالكهم بداهات، ويبلغون أقصى توترهم عندما يرون أمراً فيه مخالفة ولا يترددون في ممارسة العنف لردع المخالف.. ويوماً كان صديقي المشهور باللطف والدماثة والوفاء الشيخ محمد الخاقاني يقف مع الصحب وسط صحن الحضرة العلوية بعد صلاة المغرب واغتنمت الفرصة عليّ أحرجه في مبلغ استدانه مني فطالبته به، فتلفت يمنة ويسرة وصبر قليلاً ولم يجبني، فكررت الطلب فصرخ في وجهي بصوت عالٍ جداً: سيدنا لا يجوز أنت طالب علم وأمام قبر أمير المؤمنين وتقول الصلاة غير واجبة.. فضحكتُ ولكن الصحب تلفتوا ونصحوني بالمغادرة بسرعة. فأطعتهم متعجباً إلى أن لحقوا بي.. كان أحد السادة الأفغانيين يسير باتجاهنا أثناء تجمعنا ومطالبتي صاحبي بالدين، وصاحبي يعرف الرجل وسرعة انفعاله، وكان قد هيأ لي مشكلة قد تنتهي بضربي وجمع الناس عليّ إذا ما تناهى إلى سمع الأفغاني أني أناقش في وجوب الصلاة.. هؤلاء الأفغان تصدى لحكمهم وتغيير ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم نور طرفي وبابراك كارمل وحفيظ الله. فكانوا مقدمة لطالبان الذين قرروا أن يحولوا الفطرة الدينية أو الدين الفطري إلى مشروع سياسي متطرف

فكانوا مقدمة لواشنطن التي تحاول أن تشجع الإصلاح بدوافع ذاتية فتدفع إلى مزيد من التخلف.

هؤلاء البسطاء الذين يحاربهم عالم الأنترنت والاقتصاد الرقمي، ويحاربون الدولة العظمى الثانية روسياص، نما إلى سمعهم عام ١٩٦٩ أن الشرطة في النجف داهمت منزل المرجع السيد محسن الحكيم.. وفي حين أننا جميعاً كنا قد عرفنا بالتفاصيل وقدرنا المخاطر على المرجعية والحوزة ذات الألف عام من العمر العلمي، لزمنا بيوتنا وعطلنا دراستنا وذهب بعضنا إلى من يعرفه من أفراد الشرطة وقدم له الهدايا حتى لا يلحق به أذى. تجمع عشرات من هؤلاء وذهبوا مشياً على الأقدام من النجف إلى الكوفة في عز الحر وهتفوا هتافات التأييد للسيد الحكيم أمام منزله في الكوفة حيث لم يستطع أحد ممن في المنزل الخروج لشكرهم أو صرفهم بعد تحذيرهم مما يمكن أن يترتب على تصرفهم من مشاكل لهم. وعادوا من الكوفة إلى النجف مشياً على أقدامهم، وعندما وصلوا كانوا قد استبد بهم التعب والجوع والعطش والغضب فتوجهوا نحو السراي وهتفوا ونددوا بالسلطة وبالحزب الحاكم فاشتعلت على ظهورهم ورؤوسهم الهراوات فصمدوا إلى أن كلت الشرطة عن ضربهم فعادوا إلى منازلهم راضين. وبدأ عملية ترانسفير قبلوقومية وعلى الطريقة الصهيونية بل أشد فتكاً، من النجف إلى كردستان.

الشجاعة

من هذا الجو المترع بالبساطة والحياة على طرف الحياة.. نبغ في جيلنا الشيخ الأفغاني اسحق الفياضي الذي ما زال منهمكاً في بحوثه المعمقة مع طلاب الاجتهاد من تلاميذه مذكراً بالعلامة البلخي، بعدما كتب مجلدات تقريراً لأبحاث الإمام الخوئي في الأصول والفقه العالي وبلغة عربية علمية صافية.. والكل يذكر المستوى المميز علمياً للشيخ آصف محسني الذي شارك في كل أحداث أفغانستان من موقع مسؤول ومتقدم وكان منهم اثنان أخوان من آل مقدس بلغا درجة عالية من الفضيلة العلمية ولكن تميزهما كان في أنهما كانا الأبرز والأقدر في تدريس البلاغة العربية (المعاني والبيان والبديع) حتى كان الطالب العربي يفخر بأنه تتلمذ على واحد منهما في هذا الحقل الذي يعتبر من أكثر الحقول صعوبة وتعقيداً في مرحلة المقدمات العلمية، كان الشيخ الأفغاني ينهي درسه في الاستعارة المكنية ويعود ظهراً إلى منزله ويتغدى قرصاً من خبز الشعير مغموساً في كوب من الماء الحار مع قليل من السكر ومن دون شاي أكثر الأحيان. لأن موعد قبض الراتب لم يحن بعد.

كان بعض أهلنا إلى عقد من السنوات الماضية مشغولين ويشغلوننا كل سهرة، بحرب علي (ع) مع الجان؟

بعـدما امتلأت آذانهم بروايات شجاعته وقوته البدنية المجمع عليها، واللطيف أنه كان متنبهاً إلى ذلك شجاعته ويذكرها إذا مـا صـاقب سياق الكلام، وقد ذكرها مرة في رسالة إلى أحد ولاتـه على البصرة مشفوعة بذكر زهده في الطعام وبساطة ما يتـناوله مـنه، خاصة قرص الشعير، متلمساً في ذلك سراً من أسـرار القـوة، علـى عكس ما يظن الآخرون.. يقول علي في رسـالته تلـك: «ألا وأن إمـامكم قـد اكتفـى من دنياه بطمريه (الـثوب الـبالي) ومـن طعمـه بقرصـيه (أي قرصـي الشعير). ويـضيف: وكـأني بقـائلكم يقول: «إذا كان هذا قوت ابن أبي طالـب، فقـد قعـد بـه الـضعف عـن قـتال الأقـران ومـنازلة الـشجعان.. ألا وأن الـشجرة الـبرية أصـلب عوداً، والروائع الخـضرة (الأعـشاب الغـضة الناعمة) أرق جلوداً، والنباتات العذيـة (الـتي لا تشرب إلاّ من ماء المطر) أقوى وقوداً وأبطأ خمـوداً.. والله لـو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها «و» أيمُ الله، لأروِّض نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قـدرت علـيه مطعـوماً، وتقنع بالملح مأدوماً» ولكن ذلك لم يمنع من قتله غيلة.

٢٠٠١/١٠/٢



العراق متذكراً من دون حروبه

كلما شاهدت صورة قاتمة من العراق أو صورة مشرقة، يحتدم الجدل في أعماقي وأعضائي، فأقوم إلى قلمي وأوراقي، وأكتب وأكتشف أني لن أشبع من الكتابة عن العراق حتى يشبع العراق ظلماً وجوراً.. وحرية.

ولسوف أبقى أكتب عن العراق حتى يعود العراق إلى العراق.. وحتى متى يبقى العراق منفياً عن العراق في العراق كما في خارج العراق؟

إن لم يعد إلينا عراقنا، إن لم يعد العراق إلى العراق، بالحرية، فسوف نصنع بالكتابة عراقنا، ثم نجعل أوراقنا للتاريخ، لرياح الخماسين نسير وراءها وفيها، بين حبات الرمال التي تسفيها، إلى أن نصل إلى العراق، عندما تحتدم رياح الخماسين وتسخن، ويختلط الرمل بالحصى المتطاير والفراش الأبيض، سوف نحط رحالنا ونفرش أوراقنا ونقيم خيمنا، أعمدتها أقلامنا وأصابعنا التي تحترق، وحبالها أنياط قلوبنا وقماشها عباءاتنا التي لا نرتديها ولا نهنأ بها وفيها إلاّ إذا كانت من العراق، وينتبه بائع العباءات فيكذب علينا.

نعـرف أنـه يكذب ونصدقه. ونرتدي العباءة فتزدهي بنا كأنها تتعـرق، ونزدهي بها عارفين بأنها يابانية النسيج ولكنها تقليد للعراق وكفى..

قـبل أسـبوع عـدت من الشام مستعجلاً لأني استطعت شـراء كيلوغـرام من «القيمر» وجه الحليب «الريوق» العراقي الحميمي. كنا نحرص عليه رغم ضيق ذات اليد، ولو مرة في الأسـبوع، نـشتري غرامات منه نمسح بها خبزنا فنأكل الخبز ولـون الحليب ونشعر بأننا مترعون بعراقيتنا. عجلت في زيارة الـسيدة زينب لأعود إلى منزلي في بيروت، أفترش الأرض، وأبسط خبزي وأمتلئ من القيمر، فالكيلو يعادل ما كنت آكله خلال سنة كاملة في النجف.

إذن فيا فرحتي؟ وناديت الأهل تعالوا إلى لحظة عراقية نـستذكر فيها عراقنا الآفل الآتي.. وفجعنا.. قطبت زوجتي ما بـين عينـيها وقالـت: هـذا ليس عراقياً، ليس فيه طعم العراق ودسمـه.. أكلـنا لنـستذكر مـا كنا نأكل، ثم أشحنا جميعاً عن القيمـر.. هـا هـو في الـثلاجة حـتى الآن لا يمسه أحد. نفتح الـوعاء ننظـر إليه ثم نعافه لا نرميه لأن فيه شبهة عراقية، ولا نأكلـه لأنـه لـيس فـيه نكهة عراقية.. وانتهينا، كنا نفكر كيف يمكـن أن يـأتي القيمـر من العراق ويبقى صالحاً هذه المدة؟ علمـاً بأنـه سـريع الفـساد ويـؤكل في العـراق طازجاً ليومه.. فيتـبين أن عـراقيين في الـشام أرادوا أن يتذكـروا ويـصطنعوا

لأهلهم المنفيين وصلة في الذاكرة، فاخترعوا القيمر من الحليب المجفف. والوهم العراقي قريب كما المجاز، من الحقيقة، وأخذوا يتذكرون العراق في القيمر. اكتشفت أن عراقيتي منقوصة لأن حيلتهم لم تنطل عليّ.. بينما انطلت عليّ حيلة العراقيين في (الدهين) ما يشبه النمورة أو الهريسة أو البسبوسة في الحلويات العربية.. لأن وجه الشبه بين الدهين الشامي المصنوع بالطريقة العراقية بأيدٍ عراقية قوي الشبه بالدهين الأصلي. وما أهنأه! ما أهنأ الأشياء التي تشبه العراق!

أما الرطب.. فإن الأصدقاء منا يبشر بعضهم بعضاً.. يقولون: وصل البرحي إلى الشام، ونشد الرحال ونعود بالبرحي والعمراني نهيئ له لبناً مخيضاً (لبن مطروق حسب التعبير العراقي) ونأكل حتى النعاس.. وننام نوماً عراقياً جميلاً.. كيف ينام العراق وأهل العراق الآن؟ بعدما سهروا ثلث قرن ينتظرون مداهمة رجال الأمن أو فرار الأحبة من أقبية السجون، ولم يفروا لم يعودوا بعد أن مات السجان؟ أين أجسادهم؟ بين القيمر والدهين والرطب.. موصولة بأكلاتنا العراقية المفضلة والمغرية لأصدقائنا بالزيارة والطعام، فإن لم ندعهم دعوا أنفسهم وطلبوا منا أكلة عراقية، أرز وفول بالشومر أو القيمة (مرق الحمص بالحامض العماني ـ النومي بصرة ـ) إلخ.. ومن بعد يخبرون من لم

يشهد الطقس العراقي لتزداد الطلبات، ويثور الجدل في المنزل حول الجهد والمصروف الإضافي، ولكن كرم الزوجة يغلب تعبها وتعود إلى تعميم ما فيها وفينا من العراق على اللبنانيين، الذين يقضون حياتهم على انتظار عاشوراء والانتقال إلى كربلاء على مقتضى المخيال الذي يشتعل الآن لتصبح كربلاء وكأنها كثافة الشهادة في التاريخ، من هابيل إلى يوحنا المعمدان إلى يسوع الملك إلى خليل الوزير إلى محمد باقر الصدر إلى الشيخ راغب حرب وبلال فحص.. مع مرور ودود جداً على سبارتاكوس وغيفارا وجول جمال.. ووقفة تأمل وحب عند عمر المختار وعبد الكريم الخطابي وعزالدين القسام.. إلخ.

بين هذا الذي بين يديك وعينيك من عراق السوادين، وذاك الذي بين عقلك وقلبك من الفرات ودجلة وما بينهما.. على مقربة من البصرة والناصرية، من أهوار تتكوّن من شوق دجلة إلى الفرات، فيرسل كل منهما فرعه إلى الآخر، لتتكوّن دغلات البردي والقصب على مستنقعات الماء الحافل بالأسماك وطيور الخضيري، تحط على قرون الجواميس المستحمة في صهد الصيف العراقي، الذاهبة ليلاً وفجراً إلى خير ما في ألبان الدنيا من ماء الحياة. وهناك.. هناك يزدهر القيمر العراقي الأصلي المثال الذي لا يحتذي ولا يُقلَّد.. ولكن الرئيس المنصور بالله أمر بسد الفرعين من النهرين منعاً

لالتقائهما، فتحولت الأهوار (١٠ آلاف كيلومتر مربع) إلى صحراء قاحلة وتبدد أهلها هوامش على دفاتر المدن المغلقة عليهم وأساليب الحياة المختلفة والصعبة.

وبين ذلك.. الذي بين ماضيك المجيد المكابر المتكبر المتعامد على الجراح، في العراق، وبين حاضرك النازف ومستقبلك الراعف.. يأتيك بدر شاكر السياب هارباً من الثورة التي حلم بها ومات في المنافي بعيداً عن الأهل فاجعاً مفجوعاً، يمر وهو مشتاق بمقهى في الكويت فيسمع أغنية عراقية تعيده إلى العراق أو تعيد العراق إليه، من دون أن يعود أو يعود العراق، ويقول: «بالأمس حين مررت بالمقهى سمعتك يا عراق.. وكنت دورة أسطوانة.. هي دورة الأفلاك من عمري تكور لي زمانه.. في لحظتين من الزمان وإن تكن فقدت مكانه..». خارج العراق لا يأتي العراق بل تأتي رائحة العراق.. يقول السياب «واحسرتاه متى أنام.. فأحس أن على الوسادة من ليلك الصيفي طلاً فيه طيفك يا عراق..».

أنا الآن أتلمس الطل في جيوب الذاكرة وتلابيب القلب.. فماذا في (العلاقة) العراقية من فواكه حلوة وحامضة ومرة ومزة لأكتبها لأكتبني فيها لأسجل على لوحة العمراني من دون خروج من مسقط رأسي، أحس أن للقلب مسقطاً آخر هو العراق.. «تلفتت عيناي ومذ خفيت عني الطلول تلفت القلب».

العـراق الذي ينغرز في لحم وروح وأعصاب من يحبه. مـن يـتحدث عنه لا يستطيع أن يتجاهل خصائص الفرد فيه، لأن اجـتماعه مـثل الأفاويه والعطور الهندية والتركية، مركب من مجموعة مذاقات وروائح، كلها موجودة فيه، ولكل منها خصوصيته، وهو لازم في الجماعة، ولا يستغنى عنه منفرداً.. ولكل وظيفة..

الـشيخ محمـد سـلمان الخاقـاني، الـذي كان يكبر في مظهـره وفي روحـه المرحة الودود، سنة كل عشرة سنوات، رغم أنه يدفن في صدره كومة من الجراح والآلام لا تعد ولا تنـسى.. وتعديك بالحزن إذا ما فتحت مغاليقها بكلمة.. عاش حياته معنا ومع غيرنا مفرجاً لكروبنا.. ولما جد الجد وانقسم ظهر النجف وشتت أهلها وهجروا وأفقروا، صمد فيها، ودع مسرحه الظاهـر، وإن كـان يعـود إلـيه بـين مـوت وموت من أصـدقائه أو أقربائه.. احترم عمته، فوضعها جانباً واشتغل في صـناعة الأفـران الطينـية المنزلـية بعـد أن طـرد مـن الـنجف خـبازوهامن الأفغـان وأهالي خراسان الإيرانية، أثناء الحرب العـراقية علـى إيـران، وطـوّر عملـه لاحقـاً إلى الأفـران الكهربائية.. إلى أشغال أخرى حفظت عليه وله ولنا ماء وجهه العزيـز. ذلـك أنـه ينتمـي إلى أسـرة علمية وجيهة يأوي إليها طلاب الحماية لما فيها من حمية. وكان بيته، بيت أبيه الشيخ سـلمان في الـنجف أصـلاً أو فـرعاً لبيت آخر يعمره أبوه منذ

أواخر الخمسينيات في المحمرة (خرمشهر) المدينة الإيرانية العربية في خوزستان، لأن العائلة موزعة بينها وبين العراق، وهناك كما هنا، كان البيت مثابة الأصحاب الكثر.. يستريحون فيه حول المائدة الممدودة دائماً على كرم وكرامة وتكريم لا يعكس غنى في المال بقدر ما يعكس غنى في النفس والروح. شيخنا عندما أخليت النجف من كثير من علمائها، غادر مرحه كلياً إلى الجد وتولى شؤون الناس جمعاً وتعليماً وصلاة وحلاً للمشاكل الأسرية والحياتية المعقدة بحنان ودأب ملحوظ.. غير أننا على إعجابنا بدوره هذا لم نكن نقبله مختصراً فيه ونستدعي ذكرياتنا عن الماضي في غيابه وفي المرات النادرة التي نلتقي فيها.. نفتح الباب على ذكريات المرح القديم، يعبس ثم يبتسم ثم يضحك ثم ينهال تذكراً وقهقهة وتعليقات لاذعة.. منذ أشهر سمعت أنه في الشام فلم أتأخر لحظة عن السفر.. وعندما وصلت سألت عنه، قالوا لي سافر أمس.. بكيت لأني شعرت بالخسارة وعدت سريعاً حزيناً. فارقته ظهر ذات يوم أواخر الستينيات هو إلى منزله وأنا إلى منزلي، وبعد الظهر احتجت إليه فخابرته من جهاز تلفون في السوق، ردت عليّ كريمته وقالت لي إنه في بغداد فقلت لها: أنا فلان.. فهمت ونادته. قلت له ماذا في الأمر؟ قال: هناك دائن يفترض أن يهاتفني

ويطالبني بوفاء دينه، ولذا كلفت ابنتي بأن تكذب لأنها صغيرة وغير مكلفة شرعاً!

وهو لا يستدين إلاّ ليصرف على الضيافة، وذوي الحاجات والمدينين المعسرين، وقد بقي منزله منذ عشرات السنين على حاله بناء وأثاثاً لم يتغير فيه شيء، ومع ذلك فهو أكثرنا صرفاً للمال. مرة تغديت في منزله من دون دعوة كالعادة، مع إلحاح منه على المعاودة نظراً لغياب زوجتي في لبنان، وبعد الغداء والشاي ونوم القيلولة أردت أن أخرج، وحانت منه التفاتة إليّ وأنا أرتدي جبتي ولمح شيئاً من المال في جيبي، فأسرع إلى إقفال المنزل وإحضار عصا خشبية وقال كم معك من المال؟ قلت: ١٥ ديناراً.. قال هاتها (جيبها) بالعراقي، قلت: ما يصير، قال، لماذا؟ قلت قطعوا عني الكهرباء لأني لم أسدد الفواتير منذ أكثر سنة، قال (جيبها) وأنا صديقي مدير شركة الكهرباء، وسوف أكلمه ليصبر عليك نصف سنة على الأقل، علي دين مستحق، حاولت أن أمتنع فرفع العصا فوق رأسي.. فسلمت وأعطيته المال: قال: الآن مع السلامة.. بعد ثلاثة أشهر التقينا مساءً في فناء صحن المقام (ضريح الإمام علي) فحاولت أن أحرجه وطلبت المال مفتعلاً العصبية، فما كان منه إلاّ أن تلفت يميناً ويساراً وقال: تسكت أو أوقعك في مقلب يجعلك تندم؟ انتبه إلى وجود سيد أفغاني معمم ومتوتر دائماً ينتقم البعض

من أصدقائهم بواسطته إذ يدلونه عليهم ويقولون له إنهم لا يصلون وينكرون وجوب الصلاة وأمثال ذلك.. لم أعبأ للتهديد.. ولكنه صرخ بجماع صوته: سيد هاني خلصنا فإما أن تنزع عمامتك وإما أن تصلي.. ما يصير.. الله لا يرضى.. وهذا عليّ لا يرضى.. واتجه السيد الأفغاني نحوي فهربت منه.. وارتاح الشيخ والصحب.. أول ما تعرفت إليه وكان في كلية الفقه، في السنة الأولى لوصولي إلى النجف.. وفي جلسة مع العميد والأساتذة عرفوه علي وقالوا: من لبنان.. فاتجه إليّ وقال: أنا كنت في لبنان ولاحظت أن اللبنانيين كلهم مخطوبون لبعضهم بعضاً.. أليس كذلك. وضحك الأساتذة على عادتهم مع قوافي الشيخ محمد..

بعد سنوات من العشرة والاندماج واكتشاف مساحة علاقته العميقة مع كم هائل من العلماء والأدباء والشعراء ومنهم السيد مصطفى جمال الدين، التقينا في الصحن العلوي فقدمت له صديقي وزميلي الجديد السيد القادم من الجزائر بعد سنة من دراسته للطب فيها، وقلت له إن السيد آثر الطب الروحي على الطب الجسدي فترك جامعة الجزائر إلى النجف، فالتفت إليه من دون أن يسلم عليه وقال: صحيح هذا الكلام؟ فأجابه السيد بالإيجاب.. فما كان منه إلاّ أن صاح في وجهه بشتيمة له ولمن أغراه بالمجيء إلى النجف وغادرنا مفتعلاً الغضب.. ـ ينعل أ.. وأبو اللي جابك ـ

ومرة قدم اتحاد الأدباء في بغداد دعوة لعدد من شعراء الـرابطة الأدبـية في الـنجف، وكـان مديراً لها، لإقامة أمسية نجفـية في مقـر الاتحـاد، فأخـذ الشيخ محمد بعقد جلسات يومـية مـع الـسيد كـاظم إبراهيم، يذكران فيها المصطلحات الأصـولية والفقهـية والمنطقـية ويـركبان علـيها جمـلاً نثـرية يرصـفانها علـى شـكل القـصيدة النثـرية متعاهدين على إبقاء ذلـك سراً.. وفي الموعد سافر الجميع إلى بغداد متفقين على أن الـسيد كـاظم هـو عـريف الأمـسية.. وأدى دوره كـاملاً.. وألقـى الـسيد مصطفى جمال الدين وصالح الظالمي ومحمد حسين المحتصر شعرهم العمودي وصعد السيد كاظم ليختم كمـا هـو المفتـرض، ولكـنه قدم الشيخ محمد ليلقي قصيدة حديـثة قـال: أمـا الآن فقـد جـاء دور الشعر الحديث.. فنزل الكلام على رفاقه النجفيين، كالصاعقة، وشرع الشيخ محمد في الإلقـاء، فوضـعوا عـيونهم بـين أقـدامهم وأخـذ نبـضهم يتـسارع والعـرق يـبلل وجوههم حرجاً. وانتهى الشيخ محمد مـن إلقـاء قـصيدته وخـتم السيد كاظم الأمسية وغادر المنبر وسـط صـمت عميق ومطبق من رفاقه النجفيين الذين رفضوا أن يـنام الـشيخ ليلته معهم في فندق مصطفى الكردي صديق الـسيد مـصطفى والـذي يتـبادل معـه الـنكات حـول العرب والأكراد.. في شارع الجمهورية.. فذهب الشيخ لينام في فندق الجامعـة العـربية في سـاحة الوثبة. وصباحاً عجل إلى المكتبة

واشترى الجرائد وذهب إلى فندق مصطفى مزهواً. سلم على الإخوان فردوا عليه بفتور.. فشلح الجرائد على أرض الغرفة وقال: أنتم غاضبون مني حسداً.. إقرأوا رأي النقاد في شعري.. وقرأوا تعليقاً للناقد الدكتور طراد الكبيسي قيّم فيه الأمسية معتبراً قصيدة الشيخ محمد الخاقاني علامة فارقة في الشعر النجفي. ضحكوا معاً من قلوبهم ولم يغفروا له جريمته الجميلة.. وعاد السيد مصطفى إلى النجف متسلحاً بسلاح جديد حول عبثية الشعر الحديث ليحقق الغلبة في نقاشه على الجبهة الأخرى المكوّنة من السيد عبد الهادي الحكيم والسيد مسلم الجابري والسيد محمد حسن الأمين ومني. قبل أيام رأيت بعيني وقمت إلى الهاتف فإذا بالسيد كاظم إبراهيم الذي أردت مهاتفته يهاتفني ليقول: هل رأيته؟ إنه الشيخ محمد الخاقاني يقود المظاهرة في النجف ويخطب في الناس داعياً إياهم إلى الوحدة في ظل المرجعية والحذر من الفتنة بعد مقتل السيد عبد المجيد الخوئي.. استبشرنا كثيراً.. ولكن الأمر لم يخل من دهشة ما. قال السيد كاظم هل لاحظت طول لحيته البيضاء؟ كان الشيخ محمد أشدنا ميلاً إلى تقصير لحيته.. وكان جميلاً.. وما زال جميلاً.. وهاتفني السيد حامد الخفاف ومدير مكتب السيد السيستاني في لبنان، قال: إن النجف في وحدتها وتماسكها تحتاج إلى همة رجلين الشيخ محمدالخاقاني والشيخ أحمد البهادلي. واتفقنا على

ضرورة الاتصال بهما لحثهما على الاستمرار في دورهما الوازن نظراً لثقة المراجع وجمهور الناس بهما.

إلى الأسباب الوطيدة الكثيرة التي تربطنا بالنجف.. هذه الصورة النجفية تجعلنا نذوب حباً وشوقاً إلى العراق، عراق النجف، ونجف العراق القلقة، ولكنها تبقى مصدراً من مصادر طمأنتنا على عروبة وإسلام العراق ووحدته واستقلاله وسيادته وسلامته وحيويته وعودته مصنعاً للرجال والتاريخ والعلم والأدب.. بستاناً طويلاً عريضاً من النخيل الذي لا يأبه للحروب الداخلية والخارجية ويمضي يعطيك، يعطينا رطباً جنياً وتمراً شهياً.

كان الشيخ محمد في المجالس الأخوية يتفرغ لمعاقبتي كلما أدليت بدلوي في ذكر النكات والطرائف.. فيقاطعني بالكلام أو البسمات الخبيثة أو الهمسات المثيرة حتى يوقعني في حيص بيص، لأنتهي من حكايتي للنكتة وقد ضاع معناها ومبناها.

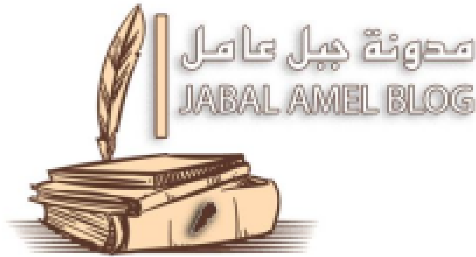
وتراكمت هذه الحال حتى كنت أؤثر السكوت أكثر الأحيان.. ومرة قال في جمع من الأصحاب بأنه سوف يعوض علي بأن يؤلف كتاباً عنوانه: «أوضح المعاني في شرح نكات السيد هاني تأليف العبد الفاني محمد الخاقاني».

وما زلت أنتظر تأليف الكتاب.. وكلما استطعت أن

أقدم للصحب نكتة معقولة تحسرت وقلت في سري: أين أنت يا شيخ محمد لتقر بنجاحي؟

سنلتقي في العراق المتحرر من الطاغية الآخذ في تحرره من خلائفه الجدد.. وأخشى ما أخشاه أن يعود الشيخ محمد إلى تعقبي في المزاح ولا يعترف بأني تقدمت في هذا المجال، ولسوف أحبه وأحب عراقه أكثر.

٢٦/٤/٢٠٠٣م



من النجف إلى الأدب والسياسة

عشت سنتين من عمري في المرحلة المتوسطة، شيخاً على أهبة الذهاب إلى الحوزة التي لم أكن أعلم عنها شيئاً، سوى أنها يتخرج منها ألوان من رجال الدين، لون يهتم بالآخرة، آخرته وآخرة الناس، يريد أن يدخل الجنة ويدخل الآخرين بالقوة، من دون سؤال، ومن دون أن يرشدهم إلى الطريق، ولون كسول لم يحصّل علماً يمكنه من التوازن والموازنة بين الدين والدنيا، فيتحوّل بابتذال إلى الدنيا، ويتحمله الناس لما يرمز إليه، ولون مسكون بالماضي وقلق على المستقبل، ميّال إلى التعلم من الناس عن قضايا العدالة والعلم والوطن والآخر والوحدة والتقدم الخ.. وضعت هذا اللون الأخير نصب عيني.. وذهبت إلى النجف في تشرين الأول عام ١٩٦٣م. حاملاً الشهادة المتوسطة، التي تأخرت سنة عن موعد الحصول عليها، لأن أولاد خالي أغروني بترك الدراسة والعمل في بيروت لمدة سنة، تنقلت خلالها من شغل إلى شغل، حتى استقررت لأشهر في تعلم مهنة الخياطة، ولكن محيط أهلي اعترض عليّ، لأني وحيد بالإضافة إلى أن استعدادي للعلم لا يستهان به، وأعادني

خـالي إلى المدرسـة المتوسطة في النبطية، قبل أن يهاجر إلى أفريقيا للعمل.

ولا أدري، بـل أدري، أن خالي الذي ذهب إلى ليبيريا خـالي الذهن من أي صورة لها جغرافياً وعمرانياً وديموغرافياً وثقافـياً وعلائقـياً، خـصوصاً في ما يعود إلى العمل وعلائقه وشـروطه ووضـع الجالـية اللبنانـية وطـريقة حـياتها وعملها ومـشاعرها وصـراعاتها، لم يكـن مندهـشاً وحائـراً أكثر مني عندما شرعت في التعرف على النجف. كنت قد بلغت الحلم قـبل سـنوات، فانفـتحت علـى الأحـلام، وهي بقدر ما هي جمـيلة تـصبح قاسـية عندما تبتعد عن الواقع فتفتك بقدرتك علـى الـتعامل مـع هذا الواقع، تغيير الواقع بالحلم مستحيل. أمـا أن يـتحول الحلـم إلى مـناخ لحركة تغيير للواقع بشروطه وأدواته وأولياته الداخلية، فأمر محمود النتائج. لقد استمرت فتـرة الأحلام لديّ زمناً طويلاً جداً، جزء منه فترة إقامتي في الـنجف حـتى عام ١٩٧٢م. ما جعلني، على عفويتي وحسن نـيتي، وهـو مـا يقـرّبه حتى الذين أختلف معهم وأصرخ في وجـوههم، تحوّلت مع عدد من زملائي وأترابي، إلى جماعة شـغب، شـغب فكـري. كـنت كـثير الاعتـراض والاحتجاج والـسؤال والجـدل، لا أعادي أحداً، ولكن من يضمن أن لا يعاديـك الـذي تخـتلف معه وتصارحه؟ إذا لم تكن دقيقاً في إدارة معركتك لتستطيع فصل العام عن الشخصي لديك ولدى الآخر.

وهكـذا تحـوّلت حـواراتي وسـجالاتي وجـدالاتي مـع أسـاتذتي وزملائـي، حول الشأن الديني والفقهي والحوزوي والأدبي والسياسي إلى مصدر للتقول عليّ في حياتي الدينية، وإن كان كثيرون يسرون إليّ بأن لا أحد مقتنع بأني متهاون في شـيء. بل كنت متزمتاً في الشأن المالي، ومعترضاً في الوقت نفـسه علـى بعض المسلكيات في هذا المجال، لأن ما عرفته عـن الحـوزة أنهـا في تاريخهـا كانـت متـشبثة باسـتقلاليتها، والمـدخل إلى ذلـك هو العفة في الأموال وعدم تلقيها كيفما اتفق. ومن هنا أصبح واقعها قائماً على أن أهلها وأهل الإبداع الحقيقـي فـيها هـم الأشـد فقـراً، أي عفـة، لأنهم يعوضون بالمعـرفة عـن ضـيق ذات الـيد. ولم التفت إلاّ متأخراً إلى أن أدائي لم يكن منسجماً مع مقاصدي، وكان لي بانفعال أقل أن أطـرح أسـئلتي المنهجية حول الحوزة باعتبارها حاضرة دينية علمـية لا بـد أن تـديم حـضورها بـتجديد ذاتها على مقتضى الـتحديات العلمـية والعملـية، وبذلك أتجنب التوتر والتوتير والوضـع الإشـكالي الـذي قد لا يعطلك، ولكنه يحرمك من أربـاح مـشروع كـثيرة في الفـضاء المعـرفي العـام، ويحـرم محـيطك مـن الإفـادة مـن حـساسيتك وطمـوحاتك واستشرافاتك.

هكـذا قـدر لي، بعـد فـتور في حرارة القلب والعقل، ومـيل إلى الـتأني والـروية والواقعـية، أن أشـعر بأني حُرمت

وحَرمت نفسي من كثير من فوائد إقامتي في الحوزة، ما عدت قبل عقدين من الزمان إلى تعويضه، فأخذت نفسي بالمتابعة اليومية، وكأني ما زلت طالباً في النجف، من دون أن أعطل حركتي المعرفية في الحقول المختلفة، حقول الحداثة والعلوم الإنسانية والفكر السياسي والآداب. كأني ذاتياً أعدت الوصلة بين الأصالة والتقليد وبين المعاصرة والتجديد، ما كانت النجف بحاجة إليه.. وجعلني بعد ثلاث سنوات أنتمي إلى كلية الفقه التي أسستها جمعية منتدى النشر، التي حملت لواء التجديد في النجف من دون قطيعة مع الذاكرة، ودرست على مدى أربع سنوات برعاية أبي الروحي عميد الكلية السيد محمد تقي الحكيم. درست الفقه المقارن والقانون المقارن وعلم الاجتماع والتربية والنفس والفلسفة الإسلامية والحديثة والأدب العربي القديم والحديث إلى جانب علم المنطق والأصول والفقه والبلاغة والتفسير والتاريخ، وعلى أيدي أساتذة من مناشئ وسياقات مختلفة ولكنها مؤتلفة على تحصيل ونشر معرفة جامعة للتعدد والمتعدد على مقتضى التوحيد والوحدة.

كان أساتذتنا من علماء الحوزة وأدبائها ومن جامعة بغداد وجامعة القاهرة. استفدنا منهم كثيراً، وكثر منهم من الآتين من خارج الحوزة شهدوا لنا بأنهم استفادوا منا.. إذن فقد انحلت مشكلتي جزئياً، فهذه مساحة في الحوزة، كلية

الفقـه، مكان للاختلاف والحوار، مكان للوصلة بين الذاكرة والرؤية، بين الماضي والحاضر، بين المنجز وإشكالياته وبين الـذي ينتظـر إنجازه على إشكاليته. وما لبثت أن تخرجت من كلية الفقه، حتى عدت كلياً إلى الحوزة، التي لم أنقطع عنها. أي أني تابعـت دروسـي الحـوزوية مـع دروسـي في الكلية، فكـان علـيّ أن أغـرق ثانية في السجال الحوزوي، على توتر أشـد، ذلـك أني عدت من الكلية أكثر حماسة إلى التغيير. ما يعـني أن فتـرة الأحلام قد استمرت.. وأدركني الخوف، لولا أن الـنظام العراقـي أخذ يشدد قبضته على الحوزة لإلغائها أو اسـتتباعها. ولأنـه مغرق في تقليديته حتى الجمود أو التخلف الـتام، قـرر أن يتـسلّح بمظهـريات حداثـية في معـركته مـع الحوزة، فوضع عينه من خلال أجهزته الأمنية على نماذج من طلـبة العلوم الدينية، مهجوسين بالتغيير وكثير من الاعتراض والـسؤال. وكـنت منهم. لم يراودوني عن شيء، وإنما قرروا أن يستثمروني من دون تواطؤ معي. مانعت فهددوني بالتسفير ولكـن بعد التشهير والحبس، والتهم الجاهزة. فاستجبت مرة وشـاركت في نشاط رسمي ديني أرادوه ضد الحوزة، ولكني احـتطت بـأن أجريت استشاراتي واتفاقاتي مع الأساسيين من أهـل الحـوزة وعلمائهـا وأسـاتذتي، واتقيت شر الاستحواذ والاسـتخدام في حـدود. وبعـدها قررت أن أرحل، أن أترك حـياة العلم طمعاً بالنجاة. وهكذا كتب علينا أن تكون أنظمتنا

التي تدعي التقدمية سدادة للمعرفة والعلم لأنها وضعت الحرية في أسفل اهتماماتها، وتخيّلت وربما تخيّلنا معها أحياناً، أن التقدم والوحدة والتحرر تتم من دون شرطها الإنساني في الحرية.. من هنا كان يجب أن نرى إلى مسألة الوحدة والنهضة وفلسطين والعدالة الخ.. ومن هنا كان يجب ألاّ تنطلي علينا الحيلة باستخدام الشأن القومي لمصالح أقل من قطرية، لأن إنجاز دولنا الوطنية هو المدخل الطبيعي للنهوض القومي بالمعنى الاجتماعي لا بمعنى المشروع السياسي الاختزالي المدمر، من هنا انعقدت علاقتي المبكرة، وفي النجف تحديداً، مع القضية الفلسطينية، خصوصاً على مفصل النكسة ١٩٦٧ وشرعت مع مجموعة من زملائي في البحث الدائب عن مدخل للإسهام بخطوة على طريق فلسطين.

وتهيأت لي مع بعض الأصدقاء والزملاء (عبد الهادي الحكيم، فاضل الميلاني، مسلم الجابري وهاشم الطالقاني) فرصة ذهبية، والذين أعدوها لنا كانوا يعتبرونها كذلك. فالنكسة عام ١٩٦٧ تحدٍ كبير جداً، ويتركّز هذا التحدي في أماكن كثيرة، في الجغرافيا والتاريخ، والسياسة والفكر والأدب الخ.. فهو تحدّ للفكر السياسي القومي واليساري الذي كشفته النكسة بعد عقود من الاستقلالات الوطنية والدولة والمعارضة والدعاوي، وهو تحدّ للفكر الإسلامي

الـذي اقتـصر في الفتـرة السابقة على الممانعة والمعاندة ضد أمـراض الحداثـة وعيـنه على إيجابياتها من دون أن يراكم أو يؤصـل الإجابة عن أسئلة عصر النهضة، ما أفسح في المجال لقـوى إسـلامية حـركية سياسـية من منطلقات ميدانية عامة، علـى تواضـع في محـصولها المعـرفي، أن تتـصدى لإعـلان الاعتـراض علـى الواقـع السياسي والثقافي، بدءاً من تأسيس الأخـوان المـسلمين أواخـر العـشرينات وصـولاً إلى تأسيس الحركة الحزبية في النجف، عندما بلغ السيل الزبى مع الدولة اللادولـة بعـد الـثورة، حيث تحوّلت التقدمية في العراق إلى اختـزال الـشعب والـوطن والـسياسة، وإلى نهـج تقويـضي للمـوروث الفكـري والـديني مـن دون اختـبار لـصلاحية الأطروحة البديلة.

وقـررت جمعـية منـتدى النـشر وكلـية الفقـه أن تولينا كطـلاب مهمـة إصـدار مجلـة الكلـية (النجف) بثوب جديد ومـضمون جديـد.. وتـصدينا لمهمتـنا بجد وحماسة معقولة. وكانـت فلـسطين هـي المحور، منها أطللنا نقدياً على الذات وعلـى الآخـر، واسـتعدنا إيقـاع أسـئلة عـصر النهـضة وطمـوحاته، مـع إضـافات مستجدة. وكانت المقاومة كرافعة كـرامة حصرية بعد النكسة، أهم ما اعتنينا به، من ضمن جو حـوزوي نجفي ملائم ومشجع من دون أن يمتد هذا التشجيع إلى كل الأفكار التي ركّزنا عليها، وذلك يعود في ما يعود إلى

أن النجف، على جاري عادتها، منذ الثورة الدستورية (١٩٠٦م) بعد ثورة التنباك (١٨٩١م) إلى ثورة العشرين ومقاومة الاحتلال الإنكليزي، وجدت نفسها معنية أكثر بالشأن العربي والإسلامي ومنسجمة مع تاريخها في ذلك. فاهتمت بالنكسة والمقاومة اهتماماً ملحوظاً. وفي لحظة كان النظام العراقي الجديد (١٩٦٨م) طري العود، فعندما استحكم منعنا ومنع النجف من الاستمرار في ترسيخ ونشر أفكار المقاومة وسلوكياتها.. ولكن النجف ونحن منها. كنا قد أنجزنا ما يحدد موقعنا وموقفنا.. استقبلت النجف المقاومين في ١٩٦٨/١/١ استقبالاً رائعاً.. وأفتت مرجعيتها بدعم المقاومة بكل شيء. بعدما كانت قد سيّرت وفودها العلمية والفكرية إلى أقطار إسلامية عديدة لاستنهاض الهمم في وجه الخطر الداهم فضلاً عن الجاثم، وكنا عبر مجلة النجف نساهم في الجو العام ومن خلال نشاطنا الخاص، ما أثار الكثيرين من دعاة الهدوء والبعد عن المغامرة، وكان أكثرهم اعتراضاً علينا هم الذين فسروا هدوءهم سلوكياً بالانحياز إلى الاستبداد، فذهب بعضهم إلى شاه إيران واجداً فيه المثال. أما نحن فكنا قد شبعنا غضباً من تصرف الشاه أثناء حرب حزيران (الإمداد بالنفط) واستذكرنا موقف المعارضة الإيرانية، والإمام الخميني رمزها أمام عيوننا منفياً في النجف.. واستحضرنا موقف الشجب لشاه إيران ونظامه الذي

تجـرأ علـى إقامـة علاقات علنية مع الكيان الصهيوني، فكان ذلـك مفـصلاً في حـركة الـشعب الإيـراني ضـده، مـا جعله يرتكب جريمته المعروفة في/خرداد حزيران/١٩٦٣م.

إلى ذلـك فـإن عملـنا لم يـرضِ القـوى الحـركية في النجف، فتعرضنا لعملية تشهير ومضايقة شديدة.. وإنصافنا، وإنصاف أساتذتنا وروّادنا في هذا المجال يقتضي التوكيد بأننا لم نتأثـر أبـداً ومـضينا.. والذي وضع حداً لنا هو الذي وضع حـداً للنجف كلها، أعني النظام، الذي منعنا عام ١٩٦٩ من تنظـيم احـتفال بذكـرى معـركة الكـرامة واستشهاد (الأخضر العـربي) المناضـل في جـنوب لبـنان، تحـت طائلة العقوبة، سـجناً وطرداً وتعذيباً.. فامتنعنا. وأصبحت المقاومة والقضية ملعـباً للـنظام ومـزاجه المـتقلّب.. وتوقفت مجلة النجف عن الـصدور نهائـياً حـتى الآن، بعـد تسعة أعداد من سنتها التي توليـناها فيها وحاولنا الانسجام والتميّز فحققنا قليلاً من ذلك وانقطـع طموحـنا عـن تحقـيق الكـثير. وعـدت إلى لبنان من الـنجف حاملاً معي حزمة من الهموم، تمتد من تجديد الفكر الإسـلامي إلى نقـد الحداثـة، علـى رغـبة فـيها مـشروطة بالـتوازن، مـع تـسجيل نقـد علـى التجـربة العـربية في أنهـا انـشغلت بالتحديث من دون فكر أو سلوك حداثي، فراكمت ماديـات محـددة بـلا روح، لم تلبث أن تحـوّلت إلى أعـباء حضارية، واحتاطت لأمرها بأن رفعت شعار (لا صوت يعلو

فوق صوت المعركة) ليكون ذريعتها إلى تعطيل كل شيء، إلى تعطيل الحداثة ومسخها واستغلال الموروث لصالح تخلفها، في حين بقي دعاة الحداثة مجرد حاملي أفكار معرضين لتشنجات المعارضة مرة وإغراءات السلطة مرة أخرى..

تواصلت ببطء مع حركة المقاومة. وبسبب من ذاكرتي الفكرية أو الفكروية القريبة المحمولة من النجف، وبسبب تكويني الأدبي، احتملت أن يكون المجال الأدبي مدخلاً إلى الوفاء لاستشعاراتي بضرورات العمل المجدي. فتعاونت مع عدد من الأدباء والشعراء الذين حققوا اعترافاً بأنهم وعود حقيقية، وأسست معهم «منتدى أدباء جبل عامل» وأذكر منهم وأعتذر ممن أنساه، محمد علي شمس الدين، الياس لحود، شوقي بزيع، حسن داود، حمزة عبود، حسن العبد الله، محمد العبد الله، عبد الكريم شمس الدين، موسى شعيب، عباس بيضون، محمد علي وأحمد فرحات.. وكان يطل علينا شربل داغر من تنورين وعصام العبد الله وجهاد الزين وغيرهم، وفي مسوّغات أو دواعي التأسيس ما كان مشتركاً بيننا من دون أن يكون مدخلاً لتواطئنا على العمل، ألا وهو سعي «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي» إلى اختزال الحركة الأدبية والفكرية في جنوب لبنان، الذي يضج بحيويات تاريخية وراهنة مهمة، ما يعني أن الحزب الشيوعي

من خلال النشاط المميّز واليومي المتفرغ للأستاذ حبيب صادق رئيس المجلس سوف يستحوذ ليوظف استحواذه في طريق سياسي بدا كأنه حصري واختزالي، أي غير حقيقي.. ونشطنا بأسلوب مختلف.. ندوة لمدة يومين في النبطية قسمناها إلى قسمين، مداخل نظرية ونقدية، وقراءات شعرية مميزة. وبقينا أشهراً نعقد ندواتنا على طريقة المشائين أو مسرح الشمس الإسباني الجديد.. في القرى وفي الهواء الطلق، جلوساً على التراب أو الحصير حول أكواب الشاي الخاصة «الاستكانة» ـ (مصطلح تسرّب من اللغة الروسية إلى الفارسية ومن إيران إلى النجف ومن النجف عبر العلماء وأسرهم إلى جبل عامل).. والمجلس مفتوح لأي مشاركة.. وكثيراً ما كان أناس عاديون يدخلون مجالسنا ويتفرجون علينا.. كأننا كنا نحقق بعض ما طمح في تحقيقه لاحقاً مسرح الحكواتي وروجيه عساف، بحيث أني وجدت نفسي في لحظة شريكاً في حدود جزئيه (لاحقاً) في نشاط عساف والحكواتي. في هذه الأثناء كان السياب في ذاكرتنا جميعاً.. في حين توليت تعميم صلاح عبد الصبور الذي لم يكن مهملاً لدى الشركاء. أما بعض الروائيين وكتاب القصة المتميّزين الآن في مصر خصوصاً، مع بعض العراقيين، فقد توليت التعريف بهم والاستشراف المشترك لمستقبلهم مع الشباب من خلال قراءتي لبعض إنتاجهم المنشور في مجلة

الهلال التي كنت أداوم على قراءتها منذ أواسط الستينات في النجف مع الآداب والفكر المعاصر والكاتب والطليعة والطريق والأديب والمعرفة.. وهكذا لم يفاجئنا لاحقاً جمال الغيطاني، وإبراهيم أصلان وعبد الحكيم ذياب وصنع الله إبراهيم ومحمد خضير والطاهر وطار وموسى كريدي وأبو المعاطي أبو النجا إلى الشعراء أمل دنقل ويوسف الصايغ وحسب الشيخ جعفر ومظفر النواب خاصة في شعره الشعبي الأثير لدي.

لقد اجتمعنا أو تجمعنا بعدما كان الشباب قد خاضوا غمار الجدل حول الفكر والفن والإبداع في كلية التربية في الجامعة اللبنانية، متحلقين حول شيخهم أدونيس، منفتحين على المطران جورج خضر.. منطلقين مع انطلاقة مجلة مواقف برئاسة سمير الصايغ.. وكنت حاملاً مثلهم للمؤثرات الأدونيسية من النجف، حيث شكل لبعضنا كل من أدونيس والسياب وعبد الصبور وخليل حاوي وسعيد عقل واحات نتفيأ ظلالها في صحرائنا الشاسعة، ونقضي ليالي التقفية مع المتنبي وأبي تمام وشوقي والشريف الرضي، ونعود صباحاً إلى معاركنا حول القديم والحديث بقيادة أستاذنا ورفيقنا وخصمنا الدائم الشاعر العالم مصطفى جمال الدين، حيث كانت ليالينا في منازلنا وصباحاتنا في كلية الفقه وآصالنا في الرابطة الأدبية، مصدر حيوية لنا ولمن حولنا، حتى أن

النجف الحوزة التي كانت تتوجس من حركتنا لم تبخل علينا بنظرة يشتبه فيها الشك بالإعجاب، من هناك جئت مستظهراً ديوان التحولات لأدونيس، ما أهلني للدخول في الأسرة، التي انفض بعضها عن قطبها بنسبة أو بأخرى من دون أن أنفض معها. ولأكتسب الجنسية كان لا بد لي أن أكتب في «مواقف»، مجلة أدونيس أوائل السبعينات، وكتبت قصة قصيرة (احذروا التعامل مع الغجر) وتحمس الشباب لمناقشتها، وعقدنا الجلسة في منزل موسى شعيب في النبطية.. ودار النقاش وكان أكثرنا حماسة في النقاش (أحمد فرحات) الطويل الدمث والشفاف والعصبي أحياناً.. وناقش بطريقة لم ترقني فأحببت أن أمضي معه إلى النهاية وبعد جدل طويل اعترف أحمد بأنه لم يقرأ القصة ونقدها بناء على فهمه لي كرجل دين إشكالي لا أكثر.

فجأة سافرت إلى النجف مشاركاً في تشييع أحد العلماء، قضيت أياماً اتفقت خلالها مع أستاذي السيد محمد تقي الحكيم وصديقي السيد عدنان البكاء، وكان قد أصبح عميداً لكلية الفقه، وزميلي الصديق السيد عبد الهادي الحكيم، على تشكيل فريق يعيد قراءة التراث (الموسوعات) للفرز بين المنقضي من الماضي وما ليس بالضرورة أن يمضي وينقضي من هذا الماضي، ونعيد طباعة ونشر ما ننتهي إليه مقروءاً على معايير نقدية منهجية أصلية متجددة. وبعد أيام

من عودتي إلى لبنان وضبت حقائبي للسفر، والتقينا في منزل الأستاذ محمد علي شمس الدين لنعالج استمرارية المنتدى.. واتفقنا على صيغة، ولكن الشباب ظلوا على تحفظهم من كون دوري في المسألة مهماً، وقد لا يستطيعون الاستمرار.. تقديري أن السبب في هذا الفهم للمسألة ليس عائداً إلى قدرات غير عادية لدي، بل لأن هناك كما يبدو فرقاً شاسعاً بين الثقافة والقدرة الإبداعية وبين مستلزمات الإدارة، وهذا ليس عيباً، ذلك أن الإبداع له شروطه في المبدع وأهم شروطه الفرادة والفردية.. والناس يقدرون ذلك ويتحملون ما يبدو كأنه مزاج لدى المبدع، في حين أنه راجع إلى دخول الشك في تكوينه، وعندما يصبح المبدع يقينياً ينتهي الإبداع.

وسافرت إلى النجف وبعد أسبوع عدت بعدما اكتشفنا أن إمكانيات تنفيذ تصوّرنا العلمي قليلة بسبب حساسية متوقعة لدى الحوزة، نستطيع أن نتفادها بشيء من المرونة والتروي، ولكن عيون الأجهزة كانت قد أصبحت مفتوحة علينا، وهي، لأنها تطمح أن نكون في لفيفها، ليست على استعداد للتسامح معنا أو قبولها منا ما قد تقبله من خصومها الآخرين، أي من سائر العلماء والمفكرين والأدباء المتمسكين بجذوع الحرية والاستقلال والكرامة وفروعها. وكان من المفترض أن أعود لممارسة دوري في تنمية منتدى أدباء جبل عامل.. ولكن هناك سببين، أحدهما مباشر والآخر

غير مباشر، جعلاني أنصرف عن هذا الشأن، الأول أني كنت منذ أسابيع، قد لاحظت أني فقدت التواصل مع أهل القرية، وأنا إمامهم، لأن الجلسة الأسبوعية مع الأدباء تمتد آثارها على مدى أسبوع لتطبع لغتي مفردات واهتمامات ومضامين. وحتى أتحقق من ذلك سألت والدي عما يقوله هو ويقوله الآخرون ممن اجتمع إليهم في المسجد أو الحسينية أو المنزل.. فعبّر لي بطريقته عن وجود الأزمة التي توقعتها. إذن فما عليّ لأكمل مسيرتي الأدبية الإشكالية لأنها حداثية، إلاّ أن أبدل في شروطي، وأول ذلك أن لا أتجشم وأجشم الناس عناء إمامتي لهم، والثاني أن أبتعد عنهم في القرية وهذا أمر صعب جداً، فيبقى أن أنتقل من القرية إلى المدينة. وهنا لعبت ظروف العيش ومستلزماته لعبتها، فبقيت في القرية على مسافة من الحراك الأدبي ما كان لدى الشباب بداية لمكان ثقافي يكونون فيه، وكانوا قد تخرجوا وأصبحوا موظفين، أي ارتاحوا وأخذوا يبحثون عن المتاعب، فعادوا وقيّموا الحركة الوطنية واليسار عموماً، ومالوا إلى إنصاف الحزب الشيوعي، ودخلوا فيه، ومنه دخلوا إلى المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ـ ذاته ـ ودخلوا في جدليات الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ وإن كانوا لم يتأخروا كثيراً في اكتشاف التناقضات ليعودوا أكثر حرية وتحرراً من الأوهام وأقرب إلى الليبرالية وأحياناً مع جنوح يميني (أعني أكثرهم هنا) والثاني،

آي السبب الثاني لعدم عودتي إلى المنتدى لدى عودتي من النجف أواخر عام ١٩٧٢ ، هو أني وجدت (الريجي)، (شركة حصر التبغ والتنباك)، تحت مظلة الطبقة السياسية الحاكمة في البلد قد شددت الحصار على تعب مزارعي التبغ ولقمة عيشهم، وأنا حاشد بندوب في الروح والجسد من التبغ المر، في حين أني كنت أشعر بالمقت والتناقض لكوني رجل دين لا يمارس عملاً بدنياً، بينما أمي وشقيقتي ما زالتا تحلمان بيوم عطلة لتسهرا قليلاً وتتأخرا في الصباح في نومهما قليلاً.. وينتهي الموسم ولا يبقى شيء.. ليبدأ المزارع الصغير من الصفر. وقرر المزارعون أن يحتجوا ويتظاهروا، فتظاهروا في الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٢ واشتد غضبهم فتوجهوا نحو مركز الشركة في النبطية ودخلوه وحطموا بعض زجاج نوافذه فحوصروا وسارت تظاهرة ضخمة في المدينة لتفك الحصار فأطلقت عليها النار وسقط شهداء أمام عيني وأنا على نافذة مبنى شركة التبغ مع المحاصرين.. مع هذا اليوم بدأ تاريخ آخر في حياتي. ودخلت السجن.

٢٠٠٤/٤/٢٤م

خاتمي والحرية والغيتار

توقفت طويلاً، مستشرفاً أو متسائلاً، أكثر مني مستمتعاً، إذ لغيري أن يستمتع! توقفت عند صورتين، الأولى إبان الحملة الانتخابية للمرشح للرئاسة الإيرانية، الفقيه ابن الفقيه، السيد محمد بن روح الله خاتمي، وهو يدخل قائمة حاشدة بالمؤيدين ليلقي خطاباً. وعلى المنصة خلفه، فرقة من الشباب تعزف على الغيتار والسيتار والسنتور، والصورة الثانية، بعد إعلان النجاح، في «بارك ملت» الحديقة الوطنية في طهران، حيث ظهرت فتاة إيرانية حاملة الغيتار الكهربائي تعزف تقاسيم لخاتمي يصل صداها المضاعف، بفعل الكهرباء، إلى أبعد مدى جغرافي وزماني وثقافي.. وربما إلى «قم» التي صوتت بأغلبيتها الساحقة لخاتمي! لخاتمي كله، للمجتمع المدني، للحرية على طريق الديموقراطية، لحوار الحضارات، لإيران لجميع الإيرانيين إلخ..

الثورة إذن، التي جمعت بين الفقيه والحاكم، أو بين الفقه والحكم، أو بين الدين والدولة، تواصلت وواصلت

لتجمع بين الفقيه والفقه والفن، وهل افترقا؟ أو أنها انتكست فجمعت ما لا يجوز أن يجتمع بعدما كانت قد جمعت ما يجب جمعه، أو لا يجب، أو لا يجوز.. أليس هذا معنى الاجتهاد؟ أليس هذا هو السؤال؟ فلماذا يصرّ البعض على إقفال آذانهم في وجه الأسئلة؟

عندما تأتينا الأخبار، أن شبيبة الحوزة في بعض جامعات «قمّ» منقسمة بين (كارل بوبر) و (هايدغر) فمعنى ذلك أنها تواجه امتحان التشابك والتطابق بين السياسي والثقافي، وما يمتد إلى التطابق بين الصراطي والواقعي، بما يعني ذلك من زيادة في عرض الصراط وفتحه على الواقع، تلافياً لاحتمالات كسر الصراط مستقبلاً، كما حدث أكثر من مرة، فكان استيعاب الواقع والتكيف معه بمثابة نكسة..

ولأن الحوزة هي الحوزة، سواء كانت في النجف أو في «قمّ»، من دون إهمال للخصوصيات، ولكن الخصوصيات الوطنية أو القومية، أو التاريخية أي الاستجابةأو عدم الاستجابة للظروف التاريخية، في التربية والمعرفة والسياسة، هذه الخصوصيات، لا تمنع من الاتفاق بين الحوزات الدينية المؤسسة على سياق واحد، وعلى الخضوع للسنن نفسها في تطورها، وللآليات عينها في حراكها وجدالاتها.

من هنا يمكن أن يكون استذكار النجف، في متحولاتها، بداية في استشراف المآلات التي سوف تؤول إليها «قم»، ولكن بوتيرة أسرع وتوتر أشد.. وإذا ما كانت الذاكرة شرطاً من شروط الاستقبال، فإننا نستذكر ونذكر ونذكّر لعلّنا نرى ويرون.. إن ما أريد أن أستذكره من النجف الآن، وأريد أن أسجل من خلاله مشهد الجدال أو الحوار بين الصراطية والواقعية، منتصراً للواقعية التي انتصرت باستمرار، من دون أن يخلو تاريخها من بعض الانتكاس، ومن دون رغبة في أن يكون ذلك رفضاً أو إدانة للصراطية، وإنما هو تحفظ أو نقد أو رفض لصراطية مخترعة، ضيقة، نابذة، مقنطة. تقنط المؤمنين من رحمة الله، وتريد أن تجنب المؤمنين صغائر مختلفاً عليها فتوقعهم في كبائر متفق عليها، ويقع اليأس من روح الله في مقدّمها.

أوائل الستينات، انتقلت من لبنان المهموم بآخر أسئلة الحداثة، إلى الحوزة الدينية في النجف المهمومة بأول أسئلة الحداثة.

وفي مجالس الحوار التي كانت تجمعنا، كنا نسوق أسئلتنا وعلامات تعجبنا، لتأتينا الحكايات والمفارقات.. فيروي الرواة عن واعظ إيراني طيب القلب والسريرة، ضعيف اللسان في العربية، استفزته بعض مظاهر الحداثة وسلوكياتها في أوساط طلاب الحوزة، فشن حملة شعواء

عليها. وكانت الرواية الأكثر تداولاً عنه هي اعتراضه الشديد، بلغة ملفقة على انتعال الطلبة للأحذية المقفلة (الكنادر) بدل (المداس) وشرطه أن يكون أصفر اللون، مستطرداً إلى استبدال القطار في الركوب بالحمير.

ويحفظ الجميع صيغته الوعظية مع اللكنة (أتتركون حمير الله وتركبون الشمندفر! (chemindefer) أتتركون المداس الأصفر وتنتعلون الكندرة التوزوز! يا الله! مات الدين!).

في أوائل الستينات كانت بقايا هذه الإشكالية، وما زالت عالقة بحياة الحوزة اليومية. مجرد بقايا.. ولذلك، ما عتمنا بعد أشهر من التزامنا بالمداس أن انتعلنا الكندرة، محتملين نقداً خفيفاً، من دون خوف من أن يؤدي ذلك إلى قطع رواتبنا الضئيلة بعد تفسيقنا. ولم تمر سنة، حتى تجرأنا على وضع الساعة في معاصمنا، مع حرصنا على إخفائها في بعض المجالس، وعندما آنسنا رضى حقيقياً، أو على مضض، ضرب البعض منا ضربته فارتدى البنطال تحت الجبة!

وإن كنا تأخرنا كثيراً في تجربة ارتداء القميص الملّون، وبعده بزمن طويل جربنا القميص بالياقة الحديثة، فقد عزي ذلك إلى لبنانيتنا الحداثوية التي تناقض السلوك اللبناني القديم في الحوزة..

ومن خلال شعورنا بارتخاء في مفاصل الحوزة إثر انفتاحها على جموع من الطلبة القادمين من غير سلالات علمية دينية، وبما يحملون من احتمالات مشاكسة، وأخذنا نتسرب إلى حيّز أعقد في إشكاليته. فابتدأنا بقراءة المجلات العربية الأسبوعية، على أساس أن الجرائد اليومية العراقية لا داعي لقراءتها لأنها لا تزيدك معرفة بشيء. وبعد الأسئلة الاستنكارية والاستفهامية، وجدنا فرصة للانتقال إلى الدوريات الأدبية والفكرية، (الآداب والأديب والفكر المعاصر والكاتب والهلال، انتهاء إلى الطريق والطليعة!!) ومرت المسألة بسلام، لأن هذه الدوريات مجهولة تماماً، إلاّ في الحيّز الضيّق الذي يعاني شوقاً ما إلى معرفة ما، ويعاني خوفاً من افتضاح أمره، فيؤثر عدم المعالنة بما يقترف. وهنا بدأنا نستكشف رعيلنا وأشباهنا الذين وجدناهم يبحثون عنا، والتقطنا أسماءهم والتقطوا أسماءنا في المجالس التي كانت تذكرنا أمامهم أو تذكرهم أمامنا بشيء من النقد أو كثير من التنديد والتحذير، وتواصلنا فوصلنا إلى قطاع مدني يتعاطى الحداثة، فكرياً إلى حد ما وأدبياً إلى حد كبير.. فأعدناهم قليلاً إلى سياق ثقافة الحوزة، وأخذونا كثيراً إلى ثقافتهم، حتى كدنا أن نصبح هدفاً سهلاً، فعدنا إلى روتيننا.

لكننا كنا قد امتلأنا بهموم الحداثة شعراً ورواية ومسرحاً ونقداً، ولم يكن بدعاً أن يجري في مجالسنا حديث

عن الدادائية أو السوريالية، وعندما آنسنا إصغاء لكلامنا الغريب، من محيطنا المختلف، تمادينا في الكلام الذي لم يكن مألوفاً ولا مفهوماً، ولكن جدته وغرابته على ذلك المحيط، جعلتاه يتسع له ويضيق علينا.. إذ كان هناك إقرار بجديتنا وطرافتنا وخطورتنا في الوقت نفسه.

ولأن المحدد الأول والرئيس للنجف هو العلم والثقافة، فإننا لم نقارب السياسة إلاّ لماماً، إلى أن كانت النكسة عام ١٩٦٧ ففجعنا، وبعدها دخلنا في جدل ثقافة النكسة وثقافة النهوض التي دشنت البحث فيها مجلة الآداب في الحوار الطويل بين حسين مروة ومحمد البهي وسيد ياسين.. وإن كنا قد لاحظنا مبكراً أن هناك مداراً سياسياً سرياً، تقابلياً وتعارضياً بين النظام العراقي وبين المرجعية الدينية، فإن نزوعنا إلى الحداثة جعلنا نقف من دون إطالة الوقوف، في صف الاعتراض على النظام العراقي، مع حماسة محدودة لمعارضيه، ما جعلنا نبدو وكأننا ملتبسون. وجعل النصاب السياسي في الحوزة، يفسر هذا الالتباس تفسيراً سلبياً.

في هذا المناخ المضطرب دلفنا إلى الكتاب الحديث، وأخذنا في المجالس والندوات نمرر كلاماً عن الوجودية والماركسية وكولن ولسون وهربرت ماركوز الخ.. فاحتدم الكلام حولنا. ورغم شعورنا بالضيق، كنا قد لاحظنا اشتداداً

في عظمنا فتراجعت مخاوفنا، وأخذت اشتباكاتنا الفكرية تزداد عدداً وعمقاً.. واقتربنا من عدد من شواخص الحوزة من أهل القديم، فكانوا مصدر حماية لنا من دون مجاملة أو موافقة على توجهاتنا، واقتربنا أكثر من شواخص أشد بروزاً بسبب أصالتها الحوزوية ونهجها النقدي الهادئ والتجديدي.. وأبرز هؤلاء كان السيد محمد تقي الحكيم.. الذي كان يؤثر الإصغاء إلينا والحوار معنا ولا يخفي خوفه علينا لا منا، وأمله في أن نكون جزءاً من رافعة التغيير، على قاعدة التعقل والواقعية، والاندماج لا الانفصال.. وكان يصف لنا عناءه بسبب نزوعه المتروي إلى التغيير وما سببه له من مضايقات صبر عليها، لأن الوظيفة إيمانية وحضارية تستدعي صبراً.

في أوائل الستينات، أصدر السيد محمد تقي الحكيم من لبنان كتابه «الأصول العامة للفقه المقارن» الذي تميز بلغة جديدة على الحوزة، وإن لم تكن منفصلة عن لغتها الأساس، بل كانت تطويراً لها من الداخل. كما تميز الكتاب بنهجه النقدي الذي لا يتجاهل الرأي الآخر، ويبحث عن نصاب جامع للاجتهاد الفقهي الذي يتعدى الاجتهاد المذهبي الحصري. وعندما لم يجد التقليديون المغرقون خللاً في الكاتب والكتاب، وقفوا على مسألتين فيه تبريراً لرفضه: لغته الجميلة (علمياً) فقالوا إنه كتاب أدبي وليس علمياً.. وكونه

موضـوعياً لأن الموضوعية ضارة بمسلمات المذهب!! وهذا بالـذات مـا حببـنا بـه، إلى صفات ذاتية فيه يسلّم بها الجميع جعلـته موضـع عـناية خاصة من كل المراجع الكبار.. وهناك محطـتان في مـسيرة هذا الرجل تؤشّران على النهاية المنطقية للمعانـدات الحـوزوية، الأشـد قـرباً في شـكلها ومـضمونها ومصيرها إلى المكابرة..

فمـنذ وفـاة المـرجع الـسيد محـسن الحكـيم أخذ اسم الـرجل يتداول على أنه المرجع الأمثل.. ولكن، إلى ممانعته المتأتـية مـن زهـده، كـان بعيداً عن أي إغراء بتجاوز أستاذه الخوئـي.. ولمـا توفي الإمام الخوئي اشتد الحديث عن أهلية السيد محمد تقي الحكيم للمرجعية.. ولكنه صرف نظره عنها نهائياً وثبت على ذلك حتى صرف نظر الآخرين عن مرجعيته فـزادهم تعلقـاً بـه.. وهذا يشير إلى تطور عميق في بنية العقل النجفـي، ويكـتمل بمـا جـرى في حـوزة قـم أخـيراً، والتي جعلـتها الـتطورات الداخلـية والخارجـية، السياسية والعلمية والتـربوية، تعـيد النظر في مناهجها، وتجري كل فترة تعديلاً لا تلـبث أن تكتـشف قلّة جدواه، إلى أن كان التعديل الأخير يتضمن خطوة اعتبرها الجميع إنجازاً وفاتحة خير، وهي إلزام طلـبة الحـوزة في مـرحلة دراسية متقدمة بكتاب السيد محمد تقـي الحكـيم باعتباره الكـتاب الجامع للضرورات المنهجية التي تؤمن الوصل بالتراث العلمي والبحث وتفتح الأفق على

التجديد الهادئ والعميق. وبدافع من ضرورة وضع المشهد الإيراني في سياقه التاريخي الدال والواعد أذكر أننا كنا نشكو إلى أستاذنا ورفيقنا الشاعر العالم المرحوم السيد مصطفى جمال الدين ما نعانيه من ضيق وإحباط بسبب الضيق الشديد في طرق النجف وحواريها وأزقتها وفضاءاتها.. فكان يهون علينا الأمر قياساً على ما كان يعرف وكان يعاني مع رعيله، وينصحنا بالتأني والصبر والمثابرة وعدم الجزع والإضراب عن إغراءات التصادم والقطيعة والصراع، والميل الدائم إلى الحوار الدائم.

وحتى يبصرنا بحجم النقلة التي حدثت بين أوائل الخمسينات وأوائل الستينات، حكى لنا كيف كان الجلوس على الكرسي حراماً وفسقاً، ومثله استخدام التلفون.. وعن تجربته مع بعض الفضلاء علمياً قال: وفرنا من مدخولنا الضئيل ثمناً لجهاز راديو، كنا نجتمع لنستمع إليه سراً، ثم ما لبث الجهاز أن تعطل بسبب خراب أصابه، ولم يكن لدينا المال الكافي لإصلاحه، وكنا نصدر صحيفة شهرية نكتبها بخط أيدينا ونوزعها على بعض مشجعينا من العلماء وتجار النجف المتادبين.. فكتبنا في أحد الأعداد أن طفلاً من عائلة فقيرة يعاني مرضاً شديداً ويحتاج إلى معونة، وأننا في مجلتنا نتلقى تلك المعونة.. وحصلنا على دينارين، فأصلحنا الراديو بدينار، واشترينا ورقاً لمجلتنا وشيئاً من التتن بالآخر. ولم

ينتقل السيد جمال الدين إلى بارئه إلاّ بعدما رايناه يجول بفكره المتجدد جهير الصوت في كل الأوساط مَهيباً مُهاباً..

كان لي زميل في الدراسة النجفية لم يلبث أن غادرنا إلى «قمّ» زمن الشاه، وكنا نعرف من ذهنيته أنه حثيث السعي نحو الماضي، يذهب إليه ولا يعود منه، ويلعن الحاضر والمستقبل إذا لم يطيعاه في العودة إلى الماضي كما يراه.. وعندما نجحت الثورة الإسلامية في إيران حاملة على متنها وعوداً مستقبلية على مستوى ما من التعقيد والإشكالية، حملنا همه وتساءلنا: كيف يمكن أن يتكيّف.. وعندما ذهبنا إلى «قمّ» أدركنا كم أنّ الثورة كانت قوية، فلم تترك مجالاً للتردد والانفصال.. وهكذا حزم صديقنا وأمثاله أمرهم والتحقوا، حتى بدا للوهلة الأولى، وكأنهم كانوا في التأسيس الفكري للثورة.. ولكن قيام بنيتهم على غير نصاب وعلى حساسيات مختلفة، جعلتهم غير قادرين على إخفاء غصصهم وابتلاع ريقهم ضيقاً بما يشاهدون.. كنت في منزله ليلة من الليالي، وأمامي جهاز الراديو تطلع منه أصوات الكورس الإذاعي الإيراني على إيقاع موسيقى ثورية «الله أكبر، خميني رهبر».. فأقفل المذياع بحركة عصبية.. ونظر إليّ نظرة موشحة ببسمة غاضبة وحائرة وقال: «ليس في هذه الثورة من سيئات، إلاّ أنها في بعض تعابيرها، ومنها الموسيقى، قهرتنا وأثلجت صدور قوم آخرين.. كأنه كان يقصدني. فضحكت له.

علماً بأني لست من أهل الطرب، ولكني مهموم بالأجيال التي لا ترى في الفن الجميل إلاّ حياة، وتعاني من المنع والقمع. هل تبقى الثقافة الأخرى والفنون في نظر الحوزة شأناً لا يدخل في تعريف المعرفة؟ يبدو أن «قمّ» دخلت جدياً في مسار مختلف! وإن كان معاندوه يزدادون عدداً وغضباً وقوة.

١٧/٦/٢٠٠١م



حوزة النجف

المرجعية والحرية والحيوية

كـنَّا في حـوزة في الـنجف الأشرف، الحوزة الأم، من أوائـل الـستينات إلى أوائـل الـسبعينات، حـيث اشتط النظام البعثي الصدامي في ضعضعتنا لاجتثاث الموقع العريق الوازن للحـوزة والمـرجعية في تـاريخ العـراق الـسياسي والـثقافي والاجتماعـي، حـيث كـنَّا في خـيار بـين أمـور فإمَّـا السجن والـتعذيب حتى إحداث أعطال دائمة مع احتمال الخروج من الـسجن لأسـباب هـي أقرب إلى الصدفة، وإمَّا الموت تحت الـتعذيب مـع تسليم الجثة لأهلها أو إخفائها، مع منع مظاهر الحـزن والعـزاء والحـداد، تحـت طائلة اعتقال أو تصفية من يخالـف مـن الأسـرة أو الأصحاب، وإمَّا الهرب بالعودة إلى بلادنـا إن كـنَّا غير عراقيين، أو اللجوء إلى مكان ما في الدنيا للعـراقيين، وإمَّا الخضوع اليومي لمزاج الحزب والمخابرات مـن الإقامـة الجبرية لكبار العلماء وأساتذة الحوزة وجرّ كبار الـسن مـنهم والمرضـى جـراً وباليد إلى حضور الاحتفالات بمناسـبات مفتعلة من ذكرى ميلاد القائد الملهم إلى الاحتفال

المتكـرر بذكـرى زيارتـه للـنجف.. وإمَّـا التبعـية والإذعـان للتوجـيهات والإمـلاءات الـرسمية والـتي تـصل إلى حـدّ أنَّ المـذعن وبسبب الإلحاح عليه وتخويفه، من أجل الخطابة أو الكتابة في تبجيل الرئيس القائد بمناسبة أو من دونها، يصاب بحالة من الرهاب والاكتئاب وفقدان التركيز والتوازن فيتحول حينـئذٍ إلى شـكل أو ديكـور، يوضـع صـامتاً مذهـولاً في الـصفوف الأولى في احـتفالات الـسلطة المـصورة تلفـزيونياً والمنقولة على الهواء مباشرة.

كـان كـثير مـنَّا يحلم بأن يطيل فترة استفادته من الحرية الحـوزوية النجفـية في الدراسـة والفكـر والعلائـق ليصل إلى درجـة علمـية عالـية ترضـي طمـوحه.. ولكـنَّه آثـر الـسلامة والاكتفاء بما حصله من معرفة خلال سنوات، ليعود إلى أهله راعـياً مـتابعاً في حـدود المتيـسر مـن ظـروف ومعطـيات، لقراءاته في المجال الفقهي أو الثقافي العام.

في هـذه الفتـرة مـن عمرنا الشخصي في الحوزة وعمر الحوزة واستمراراً لما كان قبلنا خلال عقود منصرمة، حظيت الحـوزة بمـرجعيات بلغـت درجـة عالـية مـن أهليتها العلمية (الـسيِّد محـسن الحكـيم، السيِّد محمود الشاهرودي، السيِّد أبـو القاسـم الخوئـي، والسيِّد محمَّد باقر الصدر لاحقاً) إلى طـبقة ثانـية مـن المـراجع أو العلماء في مستوى المرجعية لم تـسعفهم ظـروفهم الخاصّة في طرح مرجعيتهم، من دون أن

يؤثر ذلك سلباً في هيبتهم العلمية، (الشيخ حسين الحلي، الشيخ محمَّد رضا آل راضي الخ) وكان يقال في حقهم بأنَّهم لا عصبية لهم ترفعهم إلى مقام المرجعية العامَّة.. وإلى هؤلاء كان هناك طبقة من العلماء المجتهدين العازفين عن التصدِّي للمرجعية لأسباب تتصل بنزوعهم إلى الاحتياط في كلٍّ شيء وإيثارهم الانخراط في نشر المعرفة وإعداد العلماء المميزين (الشيخ محمَّد رضا المظفر، السيِّد محمَّد تقي، والسيِّد محمَّد حسين الحكيم، والشيخ محمَّد تقي الإيرواني، والشيخ محمَّد مهدي شمس الدِّين الخ).

وكان هناك مجموعة من العلماء من ذوي الدرجة العلمية أضافوا إلى علمهم الاختصاصي فضاءً ثقافياً حديثاً وبرز بعضهم في مجال البحث الأدبي واللغوي وكان البعض معروفاً بشاعرية مميزة (السيِّد مصطفى جمال الدِّين مثلاً).. وكان بعضهم مع غيرهم من المميزين في الدراسة الحوزوية التقليدية، قد دخلوا في تجارب حزبية إسلامية وتسربوا منها، إما باكراً أو بعد سنوات أو في نهاية الشوط، وخاصَّة بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران والحراك الجديد الذي تأسَّس عليها وأدَّى بالكثيرين إلى تغيير في مسلكياتهم العملية ومظلاتهم المرجعية.

في هذا الجو عشنا سنوات من عمرنا في النجف، حيث كان السيِّد محسن الحكيم يجمع إلى المرجعية الغالبة زعامة

وقـيادة فاعلـة أهلـته لأن يكـون رقيـباً دائمـاً علـى سلوكيات السـلطة، مـا أغـرى نظام البعث بالعمل على الحد من نفوذه من خلال محاصرته والتضييق عليه ومن خلال تشتيت الحوزة وتفكـيك فـريق عملـه العلمائي المكوّن من أرحامه وتلاميذه وأصـدقائه.. هـذا الـسلوك الذي استمر بعد وفاته عام ١٩٦٩ وفي اللحظـة التي وجد السيِّد أبو القاسم الخوئي ومعه السيِّد محمَّد باقر الصدر نفسيهما في صلب المسألة فاختارا الصمود والبقاء في النجف والخضوع كرهاً لمقدار من ضغوط السلطة وحصارها لهما وللحوزة والنَّاس. وفي الحدود التي تحفظ ما تبقـى من الحوزة وفعاليتها المحاصرة أو المصادرة.. وتعرض الـسيِّد الخوئـي خاصَّـة جـراء ذلـك إلى نقد (ثوري) لم يخل أحـياناً مـن القـسوة.. ولم ينـصفه ناقـدوه أو بعـضهم، إن أنـصفوه، إلاَّ عـندما تـصدَّى لرعاية شؤون العراقيين الحياتية والاجتماعية إبان الانتفاضة التي أعقبت انهزام الجيش العراقي مـن الكـويت، مـا دفع القاعدة الشعبية إلى القيام بانتفاضة لم تـسلم من الكثير من الممارسات العشوائية التي لم تكن كافية لإفـشالها، لـولا أنَّ الإدارة الأميركية قد أدركت خطورة ذلك وضرورة الإبقاء على النظام الهزيل، فصدرت الأوامر بإطلاق يـد الحـرس الجمهـوري المهـزوم والطـيران العراقـي للفتك بالانتفاضة بعدما أصبحت على مشارف بغداد.. حينئذٍ، وبعد قمـع الانتفاضـة، قرَّر النظام معاقبة السيّد الخوئي، واختطافه

إلى بغـداد بمـروحية، ليـبدأ الكـلام المنصف للسيِّد الخوئي متـرداً وخفراً في كثير من الحالات. بعدما كان قد قضي على السيِّد محمَّد باقر الصدر بطريقة بشعة أوائل الثمانينات.

هـذا المشهد المركب من العلم والأدب والفكر والدين والسياسة والحرية والتراتب المرجعي والعلمي الطوعي، أتاح للكـثيرين، وأنـا مـنهم، أن يعيـشوا حالة مزدوجة من القطع والوصل مع الحوزة وأجوائها وتقاليدها.

كـنَّا نمـارس إيمانـنا وتدينـنا مـن دون أي رغبة في أي مظهـر اخـتلاف أو خلاف مع الآخرين، فكان أكثرنا إيحاء أو إتهامـاً بالحداثـة والتقدمـية واليـسارية والليـبرالية، كغيره من الموصـوفين بالتقلـيدية والتـزمت أحياناً، في الصلاة والصوم والـدعاء وزيـارة مـرقد الإمـام علـيّ (ع) وفي الحياة الأسرية شـكلاً ومضموناً، ولم يكن يقال عنا إلاَّ أقل الأقاليل من قبل أفـراد لا يـصدقون أنَّ فلانـاً مـن الـناس متحرر فكرياً وملتزم دينـياً، يقولـون عـنا كلامـاً سلبياً تخمينياً، وبمجرد أن نلتقي ونتصارح تصحح الأفكار وتصبح العلاقة على درجة عالية من الحميمـية.. أمَّـا المـراجع، جمـيعهم، فلم يعرف عنهم أنَّهم نالـوا مـن أحـد بكلمـة أو سـوء ظن أو صدقوا كلام أحد في أحـد، أو مالـوا إلى عقـوبة أو حـرمان أو تحـريم أحد، على الـرغم مـن أنَّ فـريق عمـل المـرجع (حاشيته) قد يكون فيها واحـد أو مجمـوعة ممـن لا تستـسيغ سـلوك أو أفكار بعض

الطلبة، ولكن ذلك لم يكن ليؤثر في طريقة تعاطي المراجع مع مقلديهم أو من يحترمونهم وإن قلدوا غيرهم.. كنت مثلاً ومجموعة من زملائي نقلد السيِّد الحكيم ونجاهر بمحبتنا للسيِّد الخوئي والسيِّد الشاهرودي وانبهارنا بالسيِّد الخميني وإعجابنا بالسيِّد محمَّد باقر الصدر من دون أن يترتب على ذلك أي مؤاخذة أو تهمة.

كانت أذية ما، لا تصل إلى حد إلحاق الضرر البالغ بنا، تأتينا من قبل رجال الدين أو المدنيين المتدينين المتحزبين، ردًّا على موقعنا المختلف فكرياً وسياسياً.. ولم يحصل أن أوذي أحد منا أذية شديدة إلاَّ من قبل قلة معدودة من هؤلاء وربما كان المعني هنا شخصاً واحداً، ذهب في سلوكه العصبي والحزبي إلى إلغاء وهتك كل من لا يتوافق معه، ثم ما لبث مرضه الشخصي أن دفعه إلى إيذاء حزبه وكل القيادات التاريخية والمقامات العلمية خاصة تلك التي كان لها دور في بناء الحزب ثم اختارت، لأسباب موضوعية، أن تجعل بينها وبين الحزب مسافة ما، والشيء بالشيء يذكر.. فإنَّ الأذية لعدد من رجال الدين المختلفين عن السائد في لبنان في العقود السابقة، لم تكن تأتي من قبل أسياد هذا السائد بل من أفراد يستظلون به وهم متحدرون من سياق مختلف عنه.. فلم يكن السيِّد موسى الصدر مسؤولاً عن كثير من الإساءات وكذلك السيِّد محمَّد حسين فضل الله والشيخ

محمَّد مهدي شمس الدِّين، الذين حرصوا على الحفاظ على علاقـة حـوارية عمـيقة بينهم وبين أصوات أخرى مختلفة في الوسـط الـديني، وهـذا يعـيدني إلى النجف حيث توفرت لنا حمايـة فكرية حقيقية من قبل عدد من العلماء الأشد حوزوية وعلاقة بالمراجع من غيرهم. ما جعلنا نؤمن دائماً بأنَّ التقوى هـي المعيار وهي الأمان للمختلف أو المعترض أو المشاغب البريء لدى من يختلف عنه أو معه.

هـذه الأجـواء على متغيرات لبنانية، عشناها في لبنان، فكـان المأخـذ علينا لدى المتدينين ا..، معممين ومدنيين أنَّنا علـى تواصل مع الفكر الآخر والجماعات الأخرى، الليبرالية أو اليـسارية بحـيث كان يقفز بعضهم وبسرعة وخفة أو خبث إلى الاتهـام بالبعثية أو الـشيوعية، أو بهمـا معـاً.. في نفـس الـوقت الـذي كنَّا فيه بسبب وسطيتنا واهتمامنا بالآخر، حتى النقـيض، نعـاني مـن نبذ قومي ويساري، إن لم يكن عدواناً علينا في كثير من الأحيان.

هـذه الـصورة تغـيرت.. فكـثير مـن القـيادات الدينـية انفتحت أخيراً بل ومبكراً وبرحابة على الحساسيات والتيارات الفكـرية والسياسية العلمانية وبطريقة أقل توتراً وحساسية من طريقتنا في الماضي!

أمَّـا الأحـزاب الدينـية فقـد وصلت إلى حد الاحتضان الكامـل والرعاية التامة لتيارات وجماعات علمانية لم تحرص

حتى الآن أن تعطي مؤشراً يوهم بأنَّها متسامحة بشأن علمانيتها.

ما الذي حصل حتى يصبح هذا السلوك المندفع بما لا يقاس عن سلوكنا مقبولاً ومرغوباً دينياً؟ وإذ كنا مصرين على وسطيتنا وعلى اعتراضنا مع القبول أو قبولنا مع الاعتراض، حذرين من الدخول في نفق النفاق أو الانتهازية، فإننا نعاني من الانتقاص من ديننا، أي أنَّنا نتهم بقلة التدين لأنَّ ولاءنا السياسي لطوائفنا السياسية غير كامل.

ومن أين تأتي هذه التهمة؟ إنَّها تأتي من طرف الإسلام السياسي ونحن قادرون على الحوار فيها وعليها وتفنيدها أو تهذيبها أو تبريدها معه، ولكن الكارثة هي في أنَّ الأطراف العلمانية الملتحقة بالإسلام السياسي لم يعد لنا مجال معها للحوار لأنَّها ترى في مواقفنا القلقة نقصاً في ديننا!! ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

كانت التهمة التي توجه إلى التيار الوسطي أو النسبي أو الحداثي من رجال الدين هي أنَّهم غير إسلاميين، أمَّا التهمة التي توجه إليهم الآن فهي أنَّهم اقل مذهبية من غيرهم ما قد يعني أنَّ التهمة في الحقيقة هي أنَّهم إسلاميون.. بلى هم إسلاميون عرب وطنيون لبنانيون، لا يتنصلون من مذاهبهم وأهلهم من أجل أن يقبلهم الآخرون، ولا يلغون الآخرين من

أجل أن يقبلهم آخرون، لأنَّهم تعلموا أنَّ المذاهب، ليست عشائر وأنَّ جهدها المعرفي قد انصبَّ على تحقيق الوحدة في الاجتماع كمعادل موضوعي للتوحيد.

٢٠٠٨/١/٢٢م



أستاذنا الحكيم.. الفقه والعفة والعافية

كان الأهل قد قرروا استيفاء بعض حقهم عليّ وأن يذوقوا بواكير النجف فيّ ومني، فاستدعوني إلى ليالي صومهم لعلّي آتيهم من حاضرة علي (ع) وحضرته بقبس.

قرأت «أمين الله» وتنفلت بركعتين وعقبت بدعاء مكارم الأخلاق، ودّعت أمير النحل، وألقيت عيني في صدري ويممت شطر السيد الحكيم، يسابقني قلبي فيسبقه عقلي إليه، في بعض الطريق حانت مني التفاتة معهودة معتادة إلى منزل الشيخ المظفر، الذي لم يسعفني حظي بأكثر من مشهد برقت فيه عيناه البليغتان الفصيحتان بنور ثاقب وآسر، وافترت شفتاه عن بسمة كسلاف الرطب، حيال مفارقة في حافلة متهالكة، جمعت بسطاء الناس إلى إبدالهم، فاختلط الليل بالنهار، اختلاط الفطرة بأقاصي العلم والمعرفة، وصرخ صارخ في وجه الشيخ: اقعد فقعد، والتفت إلي ناقلاً نظره بين ريحان عذاري البازغ على استحياء وتردد وبين عينيّ الحائرتين وكأنه يقول لي: هيّئ نفسك إلى طلب الامتياز في ما يتعدى الشكل إلى المضمون. وسمرتني عيناه في عينيه

وبلغت منزل السيد الحكيم «إن القلوب مواطن الأوطان» و«لك يا منازل في القلوب منازل».. تركني كعادته، ريثما انتهي من الغداء مع تربي، نجله، الذي كأن أمه ولدته لي وكأن أمي ولدتني له، ومعنا بقية العنقود بألوانها المختلفة المنتظمة على نسق ابدعه فيهم فأبدعوا به وفيه.

كان يقدر محقاً، أني، لشدة حضوره فيّ، قد يمنعني الحياء من الامتلاء، والمفارقة أننا جميعاً، على شدة حيائنا منه ومهابته علينا، كنا نذهل لشدة حيائه منا، حتى أنه كان يغضي عندما تدركه أعراض الجود في القول العلمي، ليجود، ونحن نستحي ونغضي ونجود تلاوته، نرتل اكتشافاته في المعادلة والإيقاع واللغة المميزة الواصلة بكل أحمالها ومحمولاتها.

وافانا إلى البراني نسبة إليه، الجوّأني نسبة إلينا، لأنه الحيز الأمثل لكينونته فينا ومكاشفاته لنا، مضافاً فيه، إلى ظله العلمي الظليل أينما حل، ظله الأبوي الوارف المغدق ندى لا يطل وندى لا يُقل ولا يقل، والعلم يربو على الإنفاق، وكذا الخلق، «وهل الدين غير الحب» يقول الصادق (ع) ويقول الرسول الأكرم (ص) الإيمان من حسن الخلق «على غير المعهود من نظمنا للأمر وموقع «من» التبعيضية في معادلة الإيمان والأخلاق في لساننا اليومي، وضبطنا غارقين، كما في كل مرة، في حبور يأتي من تواطؤ طريف وظريف بين

المرحوم حسن ومهدي وعلاء يعاونهم صالح ويحرضهم مسلم، ويصغي عبد الهادي بصمت يلتبس فيه التواطؤ بالحكمة، محايداً لا يلبث أن ينخرط معهم في تدبير الإثارات لي واستدراجي إلى شقشقات في الفكر والأدب والسياسة، يروونها عني مزيدة أو محرفة، فيستمتعون ويمتعون وأهنأ، ورفعاً للحجاب، يماهينا السيد، سيدنا الطوعي، بالشراكة ومضا، ثم يحل وجوده علينا صمتاً وإصغاء وسؤالاً يفضي إلى سؤال، ويشرق وجهه المشرق، عندما يحتدم الجدل بيننا ويرتفع صوتنا فوق صوته، يطمئن إلى أننا مسلحون بالأسئلة عائفون للطمأنينة الكسولة المفرطة، ذاهبون في قلب المعرفة، نعرف أننا لا نعرف فنعرف فنشك فنعرف أننا لا نعرف، وهكذا دواليك حتى نصل، وحين نحط رحالنا على مفرق معرفي، لنستريح من وعثاء السفر والسؤال، يهيب بنا أن هلموا إلى سفر مستأنف. وإلاّ فإن الشعور بالامتلاء يمنع من الاستزادة، والمنهومان المعهودان لا يشبعان، ويمد لنا سماطاً آخر من المعارف، يسعد بنا طاعمين ويسعدنا طامعين.

قبل أن يلم أطراف عباءته وعينيه وعلمه وحِلمه وحُلمه، استأذنته بالسفر، فقال أهلك أولى بك، والتوفيق بين أهلك وأهليتك العلمية أولى لأهلك، على أننا أهلك أيضاً، فوازن أمرك بين أولويات لا يلغي بعضها بعضاً.

وسألته أن يوصيني، فأقصر وبلّغ فبلغ من دون أن يبالغ، قال: العفة.. وهي مفردة تلتبس رسماً بالفقه، وذهبت في وصيته مذهباً كالذهب، لا لقابلية لديّ وحسب، بل لشاهد يشهد بأن القائل صادر عن علم وعمل بما يعلم أو يقول.. ولطالما أتاحت لي القرابة الناشئة في الأسرة والناشبة فيّ، أن أدلف إلى الدخلاني من البراني، لأقع منه على ما يفجع بتواضعه أوِ خلوه أي امتلائه، لولا أنه ربانا على المعيارية، على المعنى الذي يأتي من العناء والمعاناة، فتتحول احتمالات الفاجعة أو الحسرة أو الغصة إلى دهشة ثم إلى فرحة ثم إلى كرامة له وكرامة لك فيه وإحساس غامر بالنعمة الفياضة.. لأن الذي امتلأ بعليّ ونهج البلاغة. كاد أن يضع مثاله في مصاف المستحيل، حتى وجدناه متحققاً في السيد، فحمدنا الله على أن أسوتنا وقدوتنا قد تيسرت لنا دراية لا رواية.. إذن فهكذا ينجو المخفون.

ولمقدّر أن يقدر، كم يرتب عليك الاقتداء بالسيد محمد تقي الحكيم، من حرمان من اللذات وصبر على المرارات، لا يعوضها ويحوّل مراراتها حلاوات، إلاّ أتباعه واقتفاء أثره، واستعادة الوعي واليقين بأن الآخرة خير وأبقى، وأن الجنة محفوفة بالمكاره، من دون توهم بإمكان المسامتة أو المقاربة، فضلاً عن السبق على طريق العلم والمعرفة خاصة.

ومـنذ تحققت النعمة علي بالإصغاء إليه معلماً يخوض في حقـول شـتى مـن العلـوم الإسلامية والإنسانية والأدبية، وعـدت نفـسي وحرضـتها على اللحاق به، ولم أكن أعتم أن أخمـن بعـد زمن ما، وزمن آخر وآخر.. أو كتاب ما أَقْرأه أو كـتابة مـا أَقْترِفُها، إني اقتربت أو قاربت أن أسلك في نظمه، وأصـغي إلـيه فينكـشف لي إني أطـاول سراباً أو أجايل قوس قـزح، كلمـا ظننت أنه أصبح على مرمى أو ملمس مني ابتعد عني، فأعود إلى قناعة غير محمودة في عالم العلم والعلماء، ولكنها عاصمة من الغرور والجهل. على أنها أقرب إلى اليأس منها إلى القناعة في حالنا معه.

قلدتـه.. وضـعت قـلادتي في عـنقه لأحفظ بها عنقي، وحمـدت الله أنهـا كانـت من جمان، وبعدما تراكمت خبرتي بالحـياة ومبانـيها ومعانيها، أخذت على نفسي أن أعد له مني قـلادة مـنِ ذهـبِ خـالصٍ طمـوحاً إلى أن أكـون حـسنة من حـسناته الجمـة، لأسهم في إثابته عليّ كِفاء تربيته لي، لعليّ أكـون أحـد أولاده الصالحين، الذين يعدّون بالمئين، محققاً إحـدى الـثلاث الـتي لا يـنقطع ذكر المؤمن إلاّ منها وعلامته الفارقـة أنه حاز الثلاث معاً.. أما وصيته بالعفة، فإني نجحت في امـتحانها بعـدما حولـتها إلى قـيد، قام من سلوكي، مقام السوار حول المعصم، يزيده بهاء في العافية، ويعوض الوهن

جمالاً في الضعف، ومن مترتبات هذا الجدل الجميل بيني وبينه، أني أقمت في طبقتي المتوسطة، مكان الحيوية في اجتماعنا، من دون أن أمد عيني إلى ما تمتع به آخرون استحقاقاً أو افتئاتاً، وكنت وما زلت أعلو مع هذه الطبقة متأخراً في صفها في حال العلو في المستوى المادي، واهبط معها إن هبطت في أمور معاشها متقدماً، على أمل بأن أكون من أتباع أئمة العدل حتى لا يتبيغ بالفقير فقره.. ولا أكتمكم إني بشر كما تعرفون.. فقد ضاقت بي الدنيا مرة إلى حد أني وقعت في إغراء الشكوى، فأرسلت إليه رسالة قلت له فيها إن العفة التي ألزمني بها رتبت علي كذا وكذا، مما يستقبح ذكره ويستحسن تحمله، ولم أكن أظن، أنه سوف يبادر إلى التخفيف عني بماله، من أين وأنَّى؟ ولكني طمعت في أن يواسيني، فأرسل لي معلناً فرحه بالنتيجة مؤكداً على ضرورة تحلية العناء الذي يأتي من التعفف بالصبر.. مرة أخرى منحني، من مقتنياته، من كنوزه، ما مكنني من العيش طولاً وعرضاً وعمقاً بكرامة.

واشتدت رغبتي في أن يعرف عني أني اعتمدت كدحي الفكري سبيلاً للعيش، فصارت الجعالة على عملي الكتابي تعصمني من أن أتحول إلى جعالة.. ومن هنا أصبحت الكتابة عندي عملاً يومياً سهلاً. غير أني عندما أُلزم أو التزم بكتابة بحثية أو إبداعية أدخل في حالة تشبه المرض وأستشعر العجز

عن إنجاز ما يليق.. وفي آخر الليل يفتح الله عليّ ولي، وأختم النص بالصلاة والدعاء أن لا يكون إنجازي دون المستوى المطلوب.

إذاً فالخوف الشديد والمقيم من الخطأ أو رداءة القول يسكنني، أو قل يحميني.. وأصارحكم بأن هذه إحدى علامات العدوى التي أتتني منه.. كان كالوردة التي لا تدري تماماً قيمة العطر الذي تعطيه، ولكنها تعطي لأن العطاء وظيفتها الحصرية.. كان لا يكتشف ولا يرتاح إلى جلال عمله الفكري إلاّ إذا بادره الآخرون بالتعبير عن إعجابهم، وإلاّ فلماذا أقل على كثرة ما أنتج مقياساً إلى ما كان بإمكانه أن ينتج؟ ولماذا تأخر كتاب عبد الله بن عباس نصف قرن، لو لم يكن حبيس هذه الخشية العلمية العميقة؟ وأذكر انه شرع معنا في البحث الخارج على القواعد الفقهية ثم توقف فجأة، لماذا؟ ولماذا كان يتهدج صوته كلما باشر الكلام، إلى أن ينسى أنه يتكلم مع الآخرين، فيجود، يتدفق ويتورد وجهه حياء، من علامات الإعجاب والتقدير التي تشرق في وجوه الحاضرين؟ من هنا بالذات، عانيت في الكتابة عنه.. وآثرت أن أغوص في ذاتياتي، لعلّي أجد فيها قبساً من ذاته، هرباً من كيانه العلمي المهيمن والذي لا تناسبه العجالات استقصاء وسبراً، وإعادة تشكيل لعماراته الفكرية الشاهقة الباذخة.. ألا يسترعي انتباهكم أن أكثر الذين حاولوا دراسته

في آثـاره العلمـية، تحولوا من الكم إلى الكيف؟ من الأفكار إلى المـنهج فاسـتغرقوا فـيه.. وعلـى عكـس ابن خلدون في الفـرق بـين مقدمته وتاريخه جاءت آثاره العلمية تطبيقاً لنهجه المميـز.. تطابـق ذاتيـته مع موضوعيته، إلى ذلك فإن قناعتي راسـخة بـأن الموضـوعي دال دون شـك، ولكـن الـذاتي موضـوعي أيـضاً، ولا موضوع ولا موضوعية خارج الذات، مـؤكداً على أن الذات والذاتية هي غير الهوى، ومن التعسف المنهجـي أو اللامنهجـي أن تفـصل بـين العـارف كـذات والمعـروف كموضـوع، ومـن هـنا، ونحن أهل إيمان وغيب ووجدان وشهود موصول بالغيب، ننظر إلى الداخل والحال، لا إلى الخـارج والقال فقط كما يقول المولى الروحي، ونعيد الخـارج إلى الـداخل، إعـادة الوجـود إلى القـيمة، ومن هنا احتفاؤنا بالنوايا، لأن معياريتنا الدينية، الأخروية، تقيم النية، أي الذات والذاتية مقام المقوم للمعرفة والعمل معاً.. ومن هنا فقد تكون الذاتيات أسطع دلالة على الذات في الآخر والآخر في الـذات، أي علـى حيوية نظامنا العلائقي التبادلي، معرفة وحـياة، دنـيا وديـنونة. ولأن ذاتـياته ممعـنة فينا تكويناً، فإن مقامـه العلمـي الـسامق، يحـتاج إلى أنـاة وروية ودأب، إلى ورشـة، حـتى نـستعيد علاماتـه الفارقـة والفارعـة، وموقعه الفاعـل في مـستقبلنا العلمـي الـذي يحـتاج إلى المـزيد مـن الـتحديث والمـزيد مـن استحضار الأمثلة والمثالات حتى لا

يبقى نهبة للأمزجة وعرضة لإغراءات الخطاب السياسي الذي لا نرذله ولا نسترذله إلاّ عندما يعدو على نظامنا المعرفي التوحيدي وأنظمة قيمنا المعيارية ويقلب سلم أولوياتنا رأساً على عقب.

من خصائص سيدنا الفقيد المقيم فينا أنه كان راهنياً واستقبالياً بمقدار ما يعني الراهن والمستقبل من انسجام واتساق وعمل على تطوير الواقع من داخله وبآلياته وشروطه، أي من دون ماضوية معطلة ومعطّلة ومن دون استقبالية تنحدر إلى مستوى القطيعة والتماهي المستحيل مع الآخر.

من هنا لم يكن مستسلماً أو مسلماً بسلامة المؤشرات الظاهرة والنافرة التي رسمتها ثورة العراق باعتبارها محطة من محطات حركة التحرر العربي التي التبس في خطابها وحراكها الوعد بالوعيد والتقدم بالتخلف والمعاصرة بالقطيعة والأصالة بالانقطاع والعدل بالجور والمعرفة بالجهل والحزب الواحد بحزب الواحد والديمقوقراطية بالاستبداد والمركز والقومية بالقطرية والدين بالطائفة والقومي بالعنصري.

وفي لحن كلامه كان يرشح تقدير بأنه لو بقي العراق يتطور في كل المجالات السياسية والتنموية على نفس الوتيرة البطيئة والإشكالية التي كانت قائمة قبل الثورة، أما كان حال العراق، على كل المستويات أقل سوءاً مما هو عليه الآن؟

هذا لا يعني أنه كان داعية استنكاف سياسي، ولكنه كان مصراً على أن لا يدخل في حركة الحوزة والشيعة عموماً آليات أجنبية عنها. ما انتهى إلى تحويل الوعي الحاد بثنائية الشرق والغرب إلى الوقوع في سلبيات الغرب من دون الإفادة من إيجابياته.. ما جعلنا نقف من حالنا على شكلانية حداثية يستأثر فيها المظهر السياسي الرجراج بكل شيء معطلاً كل شيء.

من ذاتياته فينا.. هذه الحالة الأسروية التي تصلح مثالاً للمثل القائل بأن البطن بستان.. فرحمه العلمية التي حملتنا وغذتنا كانت بستاناً تخرج منه الثمرات مختلفاً ألوانها ونكهاتها ولكن فيها من لونه لوناً ومن نكهته نكهة جامعة.. حتى بتنا على اختلافنا واستمرارنا في الإقامة في كنفه.. وكأننا الجماعة الإسلامية الأولى التي تكونت حول الرسول (ص) بكل ألوان طيفها وحساسياتها. إن اعتداله ووسطيته هي التي أتاحت لنا أن نلتقي فيه ومعه في حين أن جماعات تجمعت لتبدو في نهاية المطاف وكأنها حزب مؤقت بحياة الشخص الذي اجتمعت حوله لا معه.

العفــــة

وفلسطين التي تستقطبنا الآن، وتشكل حيزاً مكثفاً لحاضرنا ومستقبلنا. كانت لعمقها في ذاته وعقله تعتصم

بالـصمت البلـيغ.. أذكـر أنـه حصل في كلية الفقه ما لم يكن معهوداً أو مألوفاً.. فتظاهرنا واضربنا واعتصمنا احتجاجاً على العدوان الإسرائيلي على مطار بيروت.. واهتزت الكلية، لأن أطـرافاً فـيها لم يكونـوا يقلـون نقـاء عن غيرهم، ولكن هواء عـصبياً مفارقـاً كـان يجـتاحهم من خارج قناعتهم، ويتمظهر انفعـالاً سياسـياً مغايـراً للـسائد على مستوى الأمة، بدءاً من طهران وانتهاءً بجاكرتا.. فماذا فعل؟ لم يقل كلمة واحدة.. لم يعتـرض، همـس همـساً بضرورة الانتباه واليقظة والاعتدال. واتسعت عيناه فرحاً بما يجري، وغادرنا في موسم الانتفاضة الـتي يبقـى الاعـتدال حافظـاً لهـا وضـامناً لـبلوغها أهـدافها المرحلية على طريق الأهداف الكبرى.

بعـدما أوصاني بالعفة، حدقت في عينيه على غير عادة مـني. وتذكـرت عـيني الشيخ المظفر، وانتهيت إلى أن الفنان الـيوناني كـان ينجـز كـل معـالم الجمـال في تماثـيل الآلهة، وعـندما يـصل إلى العيـنين يدركـه الوعـي العمـيق والعجـز المعبر، فيتركهما من دون ألوان أو تفاصيل، كأن الإنسان في عينـيه، ولعلّـه مـن هـنا يـأتي الجـزء الأثير والدال من العين إنساناً.

وزاد يقيني بأن عينيه نافذتان على الدنيا والآخرة، على الغـيب والشهود على العلم والعمل، على الوطن بكل أطيافه وألـوانه، علـى القـيم والأفكـار، عندما نظرت في وجهه في

بلـودان فلـم أر إلاّ العيـنين.. وانظروا في صورته.. فهل ترون سـوى عينـيه؟ كأنـه الـنجف اسـتولى الباركنسون على كيانها قاطعاً الطريق الطبيعي بين مراكز التوجيه في العقل والأطراف التنفـيذية.. وبقـي لنا منه ومنها العقل الكبير المؤهل والعينان الواسـعتان المفتوحـتان علـى الماضي والحاضر والمستقبل.. وإنـا لعائـدون إلـيها وإلـيه.. واضـعون على قبره ورقة بيضاء لـيوقع عليها بقلمه إشارة إلى محطة أخرى في مسيرتنا العلمية على هديه وطريقه وطريقته.

/١٢/٢٠٠٢



الإمام الشهيد السيِّد محمَّد باقر الصَّدر
بين الذكرى والذاكرة

لأن يكون السيِّد السيِّد ذكرى، يعني أن يخطر متوهجاً، ولأن يكون ذاكرة، يعني أن يقيم فينا ويحضر بنا، ويهدي ويرعى، وأن نكون أفقه، نراه فينا ونرانا فيه، وإذ نستوعبه، نتجاوزه من دون أن نتخطاه ونضيف إليه مما كان يطمح إليه، نثلج صدر الصَّدر، الذي لا ترتاح روحه إلاَّ في صدورنا عندما نتنفس مع الهواء معرفة، فلنوسِّع له مكانة في صدورنا بالإيمان والأسئلة، كِفاء سعته، ولنسهر معه، ولينهض بنا ولننهض به ومعه فالشهداء يموتون كي يفرغوا للسهر، عمت صباحاً أيُّها الطالع فينا الآن، عمتم صباحاً ومساءً أيُّها الأحبّة(*).

لقد اشتبكت عيناه بالذروة، التي هي في يقين العارفين فرضية إيمانية ومعرفية مفتوحة على فرضيات أخرى، وهكذا دواليك، من سؤال إلى سؤال، ومن كشف إلى كشف، ومن

(*) المؤتمرون في ذكرى استشهاده في النجف ـ نيسان ٢٠٠٨.

فتح إلى فتح، وطالب العلم لا يشبع، ويمضي الصَّدر ارتقاء نحو الذروة، إلى الذرى، من دون أن يقع مرَّة في قياس مسافة قطعها بين السَّفح وأعالي الفقه والأصول والفلسفة، ولو قاس حاله في فلسفتنا أو حالنا معها وبعدها، إلى حاله قبلها أو حالنا، لما انتهى إلى الأسس المنطقية للاستقراء، أي لما كان الوعد بالتأسيس الفلسفي الحديث قد تحوَّل إلى منجز فلسفي، ولو كان فعلٍ، أيٍ قاس لكان كفَّ عن السهر والصبو إلى الجُلَّى ولكان استظلَّ ظلّه، وكثيرون قبله وبعده لم يبلغوا شوقه ولا شأوه اعتراهم وهم الوصول، فما وصلوا، قعدوا في بيت معرفتهم المحدودة يطعَمون ويُطعمون مدخراً، فلا يستزيدون ولا يزيدون الطاعمين إلاَّ تكراراً لا ينهض باستحقاقات الحاضر أو تحدِّيات المستقبل... وعندما وصلت طهران إلى طهران، استشرف ذروة أخرى، استأنف كدحه، فاستيقظ في أبي جهل جهله وعاجل الجسد فانعتقت الروح، صار روحاً تغرينا بالعتق والانعتاق.. همى هتان دمه الذي لابس الحبر ولابسه الحبر، لأنَّه حِبر حَبْر ودم حَبْر، فأتلعت لنا زهرة الدم جيداً يضوع فرحاً، كأنَّما أصبح بشهادته جنَّة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين، أنذرتنا أنَّ نرعى ونسقي ونحرس ونقطف ونزرع. في يومك، نعلن فرحنا بمدادك وحزننا لدمك، ولا

نجد فرقاً إلاَّ في حدود ما هو المتعدِّد مقامات لتجليات الواحد، ونسميك ذاكرتنا بما هي الذاكرة رؤية للحاضر ورجاء في الآتي. ونهتم ونهم أن نلتئم فيك وبك، نتعلَّم ونعلِّم، نتوحد معك نهجاً وهمّاً، ومسلكاً في نكران الذات حتى سطوعها.

أيُّها الأحبَّة: لم يكن الشهيد الصَّدر مستعجلاً، وتريثه في الخطاب السياسي كان له معادل موضوعي ذو ملمحين، الأوَّل تمثَّل في تباعده اللطيف، غير الارتدادي أو الانقلابي أو العدواني عن الإطار إلى الحالة، عن الحيز إلى الفضاء، والفضاء ضرورة للحيز بما هو مدى للرؤية، والحيز ضرورة بما هو ورشة عملية لهذه الرؤية، رأى في المرجعية نظاماً وتنظيماً وافياً، رآها شرطاً للتوحيد والاتحاد والاعتصام، ودرءاً لمخاطر الانقسام والانفصال النخبوي، تلك المخاطر التي تترصد تشكيلاتنا الحزبية، وسوف تبقى تترصدها، طالما بقينا على حالنا لا نقرأ حالنا وعلائقنا ومكوناتنا لنتدبر لها الإطار التنظيمي المناسب والمطابق، أي غير المستنسخ، تباعد إذن من دون استقالة من أعباء النخبوية بمضمونها الريادي، أي الطليعية المتصلة بالقاعدة أمثولة وقدوة «ألا وإنَّ لكلِّ مأموم إماماً يقتدى به ويستضيء بنور علمه». إنَّه المضمون الريادي المنضبط بالشرع، والذي يقتضي مسافة

ما، تضطر إليها الطليعة المؤمنة وكل طليعة اضطراراً وظيفياً من دون إخلال بأخلاقيات التواصل ومقدار التماثل الواجب بين الحاكم والمحكوم، بين الراعي والرعية، بين العالم والمستعلم، وبين المرجع والمقلِّد، بل وتصبح المسافة المرسومة بدقة ومحبة ورحمة ومسؤولية ومرونة، ضماناً لهذه الأخلاقيات، خرج أمير المؤمنين عليّ (ع) من مسجد الكوفة فتبعه المصلون فالتفت إليهم في بعض الطريق وقال: أبكم حاجة؟ قالوا: لا.. قال: من لم تكن به حاجة فلينصرف، فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة للقلوب، تفسد قلوب الأتباع بالمذلة والهوان، وتفسد قلوب المتبوعين بالأنانية والكبرياء».

يميز الإمام الشَّهيد بين مستويين من اهتمامات أئمة أهل البيت (عليهم السَّلام)، وعملهم: **المستوى الأوَّل** هو محاولة تسلُّم زمام التجربة، زمام الدَّولة، محو آثار الانحراف، إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي، لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: «الأمَّة والمجتمع والدَّولة». **والمستوى الثاني** الذي عمل عليه الأئمة (ع) كما يقول هو تحصين الأمَّة ضدَّ الانهيار بعد سقوط التجربة، وإعطاؤها من المقوِّمات القدر الكافي لكي تبقى وتقف على قدميها وتعيش المحنة، بقدم راسخة وروح مجاهدة وإيمان تام. ولعلَّه رأى إلى

اهتمامات الأئمة (ع) وما انشغلوا به في زمن الغلبة، من شؤون الدعوة علماً ومسلكاً، ما جعلهم حالة في الأمَّة استعصت على الإلغاء، وجعل الإمامية نزوعاً دائماً نحو الداخل، نحو المعنى والممانعة، ومن هنا كان نظام المرجعية وتنظيمها الطبيعي بروحه الجامعية (من الجامع) هو الرحم التي يتخلّق داخلها الخطاب السياسي الملائم لظروفه وفرصه المتاحة والمطابق لموجباته من دون مبالغة، ما يجعل انقلابيته في لحظة من لحظاته، مشروعة وحضارية، ولا يفقد هذا الخطاب مصداقيته بعد إنجاز الانقلاب، كما هو المستقر في الذاكرة الثورية الحديثة، بل تأخذ وتائر تكون وتكوين الظواهر السياسية والثقافية والاجتماعية تميل إلى التقارب في سرعتها، والتكامل بين محمولاتها وثمراتها، وعندما حاولت الأطر المنظمة أن تحتضن الخطاب السياسي الإسلامي ليمسي شأنها شبه الحصري، أعاد الشهيد الصَّدر إلى الذاكرة والوعي ثابتاً إسلامياً مؤداه أنَّ الإسلام هو الأمَّة، وأنَّ تأطيره، مقبول في حدود أن لا يؤسِّس للشقاق، وهذا يستدعي استبطاناً متجدِّداً للمعايير والمقاصد في العقيدة والشريعة والتاريخ والتوحيد والوحدة أولها وأهمها.

يقول الإمام الصَّادق (ع): «الإمامة هي المفترق للطرق وعندها اجتماع ذلك الافتراق وأمَّا السلطة فهي مكان اجتماع

يفضي إلى افتراق» ولا نريد من هذا الشاهد أن نذهب إلى استبعاد السلطة، بل إلى ضرورة إبقائها كضرورة اجتماع مضبوطة بمرجعيتها وتحت سقفها، لأنَّ المرجعية هي قوامنا، بينما السلطة هي أحد وظائفنا، وقد تكون أهم هذه الوظائف أو من أهمها، ولكنَّها لن تتعدَّى موقعها كفرع لا بُدَّ أن يبقى محكوماً بموجبات الأصل.

الملمح الثاني في ما أسميه المعادل الموضوعي للتريث في الخطاب السياسي، في مرحلة هامَّة من حياة السيِّد الشهيد، تمثَّل في التفاته المبكر إلى أهمية الضمانة العلمية لمصداقية الخطاب السياسي، لقد كان منذ بداية حياته العلمية المبكرة في هذا الوارد، ولعلَّ ذلك ما جعله يقرأ المرحلة ومؤشراتها ومستلزماتها قراءة متأنية، رأى إلى إشكاليات المشروع الثقافي الاستعماري التدميري بلونيه وقد آذنت بانكشاف، فقرَّر أنَّ لغة الدفاع عن الإسلام إذا ما استمرَّت على إيقاعها من شأنها أن تفضي إلى فراغ، فأخذ أهبته للمبادرة، وإن كانت مرحلة الدفاع في الماضي، قد شابها شوب من هجوم، فإنَّه كان ذا طابع تنديدي أو تشهيري، استهدف إيقاظ حالة من الممانعة على قاعدة العصبية النابذة أو الحامية، شكلت معتصماً ضرورياً، فإنَّ هجومية السيِّد الصَّدر كانت ذات طابع تأسيسي ـ على الإسلام دائماً ـ وعلى

المستويات كافّة من المستوى الفلسفي إلى مستوى النظر الاقتصادي، وعندما أسَّس الشهيد في المرحلة التي سبقت تصديه للمرجعية، كان خطابه السياسي يستمدُّ مصداقيته من نصِّه العلمي، فدشن بذلك حالة من الوعي السياسي، كان من شأنها أن توقظ أو تبعث أشواقاً وطموحات عادلة ومشروعة، وأن تلغي تاريخاً من الإحباط والكبت والإحساس بأنَّ الاحتراف العلمي المحايد لم يعد يفي، على غناه وأهميته، بموجبات الاستشعار لفراغ ما... زمن توفره على «الأسس المنطقية للاستقراء» كان قد اطمأن إلى زرعه وأراد أن يرفع من الإنتاجية، وتيرة ونمطاً، فدخل في مرحلة تدبر الجواب الأخير على الأسئلة الأولى. يقول (رضوان اللَّه عليه) ملخصاً همَّه في هذا الكتاب «وهكذا نبرهن على أنَّ العلم والإيمان مرتبطان في أساسهما المنطقي الاستقرائي ولا يمكن، من وجهة النظر المنطقية للاستقراء، الفصل بينهما، وهذا الارتباط المنطقي بين مناهج الاستدلال العلمي والمنهج الذي يتخذه الاستدلال على إثبات الصانع بمظاهر الحكمة، قد يكون هو السبب الذي أدَّى بالقرآن إلى التركيز على هذا الاستدلال من بين ألوان الاستدلال المتنوِّعة والاستقراء للدليل على إثبات الصانع» وفي هذا الكلام استحضار لموضوعة أساس في الجدل المنهجي بين الغزالي وابن رشد،

يعيد من خلاله الشهيد الصَّدر تشكيل ابن رشد على معطيات علمية مستجدة.. وفي هذه المرحلة أصبح الخطاب السياسي لديه أبعد عن المباشرة، أصبح فكراً سياسياً أقل انشغالاً بالمباشر، لقد ذهب في اتجاه التاريخ مستقرئاً وفي اتجاه القرآن مستطلعاً، ولقد أدّى ذلك منسجماً ومتزامناً مع نجاح الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني (قده) والتي وضعت الخطاب الإسلامي أمام أسئلة جديدة ومركبة، وأصبح من الضروري العودة إلى انتزاع دليل المستقبل، الدليل المعرفي للنهوض والشهادة، من خلال النَّص التأسيسي وحركة القرآن في أسرار الكون والتكوين والمعرفة والاجتماع والتاريخ.

لقد بلغ الشهيد الصَّدر ذروة ألقه الرسالي ونكرانه لذاته عندما دعا إلى الذوبان في الإمام الخميني.. على أنَّ الذوبان ليس هو التلاشي، بل هو الاهتداء إلى مكونات الهوية من خلال مثالها التكاملي بين الذات والآخر.. هو الاندماج في البحر طلباً للاعتصام.

ومن قال أنَّ الوحدة إلغاء لأطرافها وعناصرها؟ من قال إنَّ الجزء يستطيع أن يحيا بعيداً عن الكلّ، أو أنَّ الكلّ كلّ من دون أجزائه أو جزئياته، يقول أبو الحسن العامري: «الكلي مفتقر إلى الجزئي لا لأنَّ يصير بديمومته محفوظاً بل لأن يصير بتوسطه موجوداً، والجزئي مفتقر إلى الكلي لا لأنَّ

يصير بتوسطه موجوداً بل لأن يصير بديمومته محفوظاً».

من قال إن قاتليه أحياء؟ أموات ولكنَّهم لا يشعرون.

وها هو حيّ يرزق.. ولكن لا تشعرون.

ولكن بإمكاننا أن نراه دائم الحراك فينا إن استطعنا أن نجلو بصيرتنا وأن نجدِّد إيماننا ونتجدَّد به... بالمعرفة. وبعراق يرقى إلى مستوى طموحه ليصبح مثالاً يحتذى بدل أن يحتذي.

٢٦ شباط ٢٠٠٨



ليلةٌ من عمري في عمر السيّد(*)

كنت في الشهر الثالث من نزولي النجف الأشرف، آتياً من ريف الستينات في جنوب لبنان، حيث كنت أصحو على صوت العصافير وهديل الحمام، وأنام على صوت الجنادب متوسّداً غمراً من أشعة القمر المنسدلة على الشباك المفتوح على أسرار الطبيعة وأعراسها وأجراسها وأنشغل سحابة يومي ببساطات الأهل، علامات الاعتصام بالفطرة. في شهري الثالث ذاك عشت حالة كحالة الوحام على ما يصفنها، اجتاحني شعورٌ بالحموضة التي تعتري الروح إمّا تنازعها نزوع إلى الامتلاء بالجديد عليها وإن يكن بذاته قديماً، والحنين والعودة إلى فضاءات البداهات والبداءات الجميلة، ويعتل الجسد لحال الروح دواراً وسهداً، بينما الوحام إحساس عضوي مباشر تضيق به الروح ريثما تشرق بوعود الجسد..

(*) ألقيت في الحفل التأبيني المنعقد في مركز أهل البيت بلندن في تاريخ ١٥/١٢/١٩٩٦. في الذكرى الأولى لرحيل السيد مصطفى جمال الدين.

أسعفني حدسي وأنا قادم من سلالة مختلفة، وحساسيٌ في دمي العبيط وإثارةٌ من وعي خبّأتها في قميص لسفر، في قراءة الاحتمالات ومؤشرات أُخرى في وجوه بعض أترابي، لمحت في عيونهم تأهباً وجِلاً للشروع بالأسئلة، وكان السيّد «محمّد حسن الأمين» قد تقدّمني في نزوله النجف وتجواله بين حواريها، باحثاً عن فضاءٍ تترادف وتتجادل وتتحاور وتتمايز وتتناغم فيه العتمة مع النور والأمس مع اليوم والغيب مع الشهود، والعلم مع الفن، والذاكرة مع الحُلم، فتستوي المعرفة على نصابها، باباً يفضي إلى بابٍ إلى باب. وأتاني السيّد مدلاً على باب، فقد عثر على عباءةٍ تشف عمّا في صدر صاحبها وتدفئهُ في ليالي الصقيع النجفي، وعِمّةٍ أقرب ما تكون إلى تويج الوردة، إن فصلته عنها التبست بالعاقول أو حسك السعدان، واشتبه التويج بالفطر الأسود الذي يصادر نماء التربة الخصبة ولا يستساغ، ووجهٍ يقطر منه سلاف العمراني(*) إذا أينع، ويخالطه لون البرحي إذا خالص، وجبينٍ رحب كأنّه البردي مبسوطاً بين يدي «حمورابي» يخط عليه هواجسَ العدل والنظام حاشية على متن أوجاع الناظم العادل العدل «علي».. على قامة، لوحة، مزيج، من سروٍ ونخلٍ وقمح، أرأيتم إلى

(*) البرحي والعمراني من أنواع التمر العراقي.

سنابل القمح عندما تمتلئ كيف تميل؟ تعابث العشب الطفيلي حول ساقها، وقد أصبح هشيماً تذوره نسمة رخاء، تلا علينا السيّد مصطفى في القعدة الأولى قصائد عدّة، كان من الصعب عليّ وأنا المتحدر من ذاكرة أُخرى أن ارتاد عوالمها، وأستكشف أعماق الساكن في طبقات عمارتها، من هموم العرب والمسلمين، وأوجاع الباحثين عن الخبز والحرية، وهموم الجيلِ النجفيِ الوسيط، الذي يصر على كسر الصَدَفة ليحرر اللؤلؤة حريصاً على سلامتها.

وبعدما استدرجنا السيّد إلى صدره وحاله وديوانه نزع قشرته، ألقى جبته جانباً، وارتدى خرقته، وأخذ ينقدنا حبات قلبه والحُبَيبات وصور الأحباب والحَبيبات، ونحن من حوله رهط رهيف خليطٌ من حمام ويمام وعصافير كاسية تغط مناقيرها في محلول النثر وعصير الشعر وثمالات الإبداعِ، وتندهش للحُباب يطفو على الكأس، وأُخرى تداري زَغَبها من اللفح مشغولة بالحال وصاحب الحال، ونأكل من كفّهِ، ننقَر أناملهُ، نشرب من حبرِهِ، ونقتفي أثرَه، ونقفي، ويا حضّ من يتفرد، يتفتح الجسد إذ تشرق الروح ونكاد نَشْرق، ونُشْرق بالشوق والشعر.

قرأ «اللحن القديم»، و«خيوط النجوم»، كان السيّد على أهبة زواجه الثاني، وكانت القصيدة درساً فنياً بحيثيّات

مـا اقتـرفه من حبٍّ إبّأن أوار الأربعين الذي يشبُّ فجأة ومرّةً واحدة وبقوة فإن لم تعاجلهُ بوصل عاجلهُ الخمود.

في هـذه السانحة بين الوِرد والوَرد، بين النار واحتمال الترمّد، ضرب الفنّان الجسور ريشتهُ على أناة، ففاز بالقصيدة وموضوعها، باللحن والنوتة والناي، بالشرشفً(*) ومحتواه.

إيـه شمـس الخـريف نامـت مواويلـيَ تعـبى وهـوّمت أطـياري / فلمـاذا أثَرْتها ثم من دلّك يا حلوتي على أوكاري / الدجى جاثمٌ بصدري وفي عينيك قد غلغلت طيوف نهاري /

لـيس من الضروري أن نواطي السيّد على شكايته، وما مـن داعٍ لأن يلـتمس له العذر «لأن الحب مثل الشعر، ميلادٌ بـلا حـسبان، لأن الحب مثل الشعر ما باحت به الشفتان بغير أوان، لأنّ الحب قهّار كمثل الشعر، يعلو في سماء الكون لا تعنو له جبهة، وتعنو جبهة الإنسان»(**).

إذن فمـسوّغات الحـب ذاتـية، وعندما يبدو أنّه بحاجة إلى تـسويغ أو توجـيه لا يكـون حـباً، ولا داعـي لأن يتألفَ الخـريفُ قلـبَ الـربيع بـالكلام، ومـن وظيفة الفنان أن يغير الفـصول، ونحـن، أهـل الـريف، تزدهينا عراضات الربيع، ومزهرياته وتَقَرُّ عيوننا بالحصاد صيفاً ونروى ونرتوي مع ري

(*) في قصيدته (خيوط النجوم).

(**) صلاح عبد الصبور.

الأرض شتاءً، ولكنّنا في الخريف نتفرّغ لنقل الحكمة المدّخرة والخبرة المتراكمة إلى وَرَثَتنا، ونعيد تأهيل السواعد والأرض والبذار، وتكتحل عيوننا بأوراق الشجر في تحوّلها من الأخضر إلى الذهبي تمهيداً لخصب آخر، نوظب تبغنا، في حين تكون الطيور قد باشرت بنزع أثوابها لتفصل ثوباً جديداً، ثمّ أنّ العمر ليس وقتاً فحسب، إنه وقت وموقوت.

لقد فتحت لي قصائد السيّد مصطفى ثغرة في جدار أطللت من خلالها على ما خلفته ورائي، على نية القطيعة، من صبايا ضيعتي، أحببتهن كما يحب الفلاح حقل الذُرة، وعش الحسّون وقفير النحل، وأحببّني كما تحب الفلاحة شتلة التبغ، وشجر البيلسان وأحواض الحبق، وكدت أحزم حقائبي للعودة «إن جسمي ومالكيه بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض».

في وعي لاحق تربى في النجف ليربوِ في لبنان، أعادني إلى فطرتي، تراءى لي الحبّ مفتوحاً على المعرفة، وتراءت لي المعارف في حركة دائبة من القلب وإليه، من دون التِفاف على موقع العقل ودوره إذا ما أصررنا على التمييز الصارم بين القلب والعقل، ويمكن أن نتصالح على القول بأن موقع العقل غالباً ما يكون في القلب فالعقل في قلب الدين، وقلب الدين هو العقل.

ليلـتها اشـتدّت عليّ الحموضة حتى كدت اختنق، فقد أرسـلني الأهـل لأتعلـم وأعلّم حساب المسافات بين الحلال والحـرام وكـنا نـبالغ في وداعتـنا فنعتـبر أن الحقـيقةَ خارجنا ومغايرة لما تعارفنا عليه من سلوك ومشاعر..

من هنا كنا نرى وكأنّ عناوين ثانوية تجعل الحب والفن حـلالاً في قرانا، والفقهاء يسهّلون الأمر على أهل الرساتيق، فيجيـزون للفلاحة كشف ما ينكشف من ساعدها ومن خصلة شـعرها، تفلـت مـن أسـار المـنديل ولا تستطيع إعادتها إلى نـصابها لأن يـديها غارقتان في الطين، وهذا الحلال لا بد أن يكـون حراماً في النجف أو عيباً أو غير لائقٍ بأهل العلم عامة والفقهـاء خاصـة، أما أن يصل العالم إلى التعبير الصادق عن الحب فتلك منزلة موبقة وخياره الوحيد أن يحب من دون أن يعبر أو يعبر من دون أن يحب ويعتذر.

ومـن هـنا يمكـن إدراج كثير من قصائد الحب في باب من أبواب المفاكهة العلمية لأنها كالقبور لا نبض فيها.

أعـادني الـسيّد مصطفى إلى السبيل السوي المعتدل في تـرتيب معادلـة الـروح والجـسد والسماء والأرض، المضمر والمعلـن، الله والإنـسان، الـشعر والـشاعر، وأنا الآن مدين لسيرته وسيرة ثلة من جيله في سيرة كوكبة من جيلي ما انتهينا إلـيه في توظيف نظام الثنائيات وتدوير الزوايا بينها سعياً وراء الجدل الجميل.

وعليـه فـإني أفـتي مستفتياً قلبي عملاً بالمروي مستدلاً بالمأثـور المـستفيض والحكـم، من سنّة السيّد مصطفى فعلاً وتقريـراً وقـولاً جمـيلاً وصمتاً بليغاً بأن الحبَّ حلال، وربّما كـان مـندوباً وربمـا كـان واجباً.. وأن ما هو حرام من الحب ليس حبًّا وأن الإنسان والحيوان والحجر والنبات غير المحب محـالٌ لأنـه نقض للناموس والنظام «كان في مكة حجر يسلّم على رسول الله ﷺ.

«أبو قبيس جبلٌ يحبّنا ونحبه».

«رعته الفيافي بعدما كان حقبة رعاها» أبو تمام.

«هوى ناقتي خلفي» «ويحب ناقتها بعيري».

«غـير أن الـشجر الباكـي علـى أرض المديـنة، عاشـق يسكن قلبي ويغنّي أغنياتي»(*).

والـنقص أو العـيب إنمـا يكـون في مقـام الإثـبات لا الثبوت.

«وإذا أحبَّ أحدكم أخاه فليخبره».

(كلمـة «أحـبك» للمرأة لا تذهب من بالها أبداً) رسول الله ﷺ.

(*) أدونيس ـ تحولات الصفر.

إذن فالتعبير عن الحب مستحب، فكيف إذا ما كان المحبوب نصف دينك أو ثلثه على رواية أُخرى وثلاثة أرباع دنياك على ذمتي!

والغزل الغزل هو الاختبار الحقيقي لقدرة الشاعر على الحب والتكثيف والاقتصاد والشفافية، لأن المرأة هي مظنة الجمال الذي لا ينفد ولا شرط عليه. وإن كان هناك شروط عليها، على الجميلة.

وهل هناك مطرحٌ للجمال العياني غير المرأة بعدما شوّهت هذه الحضارة الفالتة جمالات هذه الدنيا ولم توفر المرأة؟ ولكن المرأة تستعصي على التشويه، غير أنها تكتئب، ويشتعل الشعر خوفاً عليها.

أما الضوابط فدلّوني على الجِلّة من غير الغزلين إذا ما كانوا أكثر عفة من السيّد مصطفى. وهذا الشريف الرضي انضبط، ولكنه لم يحوّل عفته إلى قيد ذهني، كانت قيداً لجسده الشريف ما جعل وجدانه يحتدم ليتحول إلى فضاء للإبداع:

«بتنا ضجيعين في ثوبي هوىً وتقىً

يلفّنا الشوق من فرع إلى قدم»

أنا لا أحقق في فرادات السيّد مصطفى بل أحاول أن أضعه في موقعه المميز من السياق المعرفي الذي يتيح

للعـارف والمتعـرف تعارفـاً وتـثاقفاً يـستكملان به رصيدهما ووعيهما بنمو الحقائق في تاريخها.

إن الفـن والـشعر خاصـة، هو مراودة دائمة للحياة عن أسـرارها يكتـشف ويكشف ويكاشف ويظلّ مسكوناً بهاجس الـسفر لأن هـناك صـقعاً ممنوعاً أو ممتنعاً ـ الله أعلم ـ وعلى هـذا النـصاب يـنمو الشعر ويزدهر ويراكم كشوفه، ومن أهم المـناخات الـتي يـسافر إلـيها الـشاعر متطلـباً دفء المعـرفة وبـردها، مستكـشفاً مفـردات الحـياة والوجـود ونظامها وما تختزن من قيم الخق والجمال وامتلاء بالمعنى، حتى تترادف وتتراصـف في حيـزٍ معـنوي واحـد واسـع غير نمطي، يكاد لسعته وائتلاف الحرية فيه مع الضرورة، أن يبدو لأهل الظاهر أمكنةً أو اصعدةً أو أنصبةً للحقيقة، متعددة متخارجة متفارقة لا شـرفات لها وعليها، تطل على الجامع الذي يجمعها نشأة ومـآلاً فرضـاً وحـراكاً. والفنان الشاعر لا يتأوّل ولا يتقوّل بل يهتدي إلى الجامع ويهدي، يخرج منه ليعود إليه مع الجماعة.

الـوطن الأم والقـرينة شريكة الحبر والصبر مفردتان في كـيان الـسيّد تكـادان تكـونان اختـزالاً فجيعاً وموجعاً له. أين أصـبحت الحبيـبة بعـد هجرتها معتلّةً بالوطن ليعتلَّ فيها وبها الـوطن وكأنهمـا جـسد واحـد أو روحٌ واحدةً كما كانا عافيةً وفـرحاً واحـداً، خوفٌ واحد وشوقٌ واحد وحنين واحد كما كانا أملاً واحداً ووعداً وعناقاً ووصلاً واحداً؟

عـودي فقـد ضـيعت بعـدك ذاتي ونـسيت كـيف أذوق طَعـم حياتي
بـردى يـسرفَ فأجـتويه لأنـني ضـيعتُ في عينيك عـذب فـراتي
وأعـاف ظـلّ الغوطـتين لعلّـني أتفـيّأ الهفهـاف مـن سـعفاتي
يـا أنـت يـا وطـناً حملـت ربـوعه في غـربتي وجمعـته بـشتاتي
عيـناك منـبع رافديـه وملتقـى فـرعيك خـضر مـروجه النـضرات

إذن فالحب هيولى تتعدّد صورها في الشعر وتتوحد فيه وبه، وهـذا السبط يقظـان ـ ابـن بنت الشاعر ولدته أمه في صحراء نجـد بعد حرب الخليج ـ يستهل(*) في المنافي وفي المـناخ ذاتـه ويفـتح الذاكـرة ذاتها ويستدعي اللوحة واللوعة ذاتها، على فارق يفرق بين نجد والأهوار، بين رفحة وسوق الـشيوخ(**) والـشطرة، بـين الغـوطة ومـنابت الـشيح، بـين إجهاض العراق والولادة في المنفى بعيداً عن العمران.

أنت من أنت نبعٌ من الأهوار أودى بجذرهِ الطوفانُ
وفسيلٌ في نخلةٍ كاد لولا الحقد يزهو بعذقه البستانُ

(*) الاستهلال هو أول صرخة يطلقها الوليد عندما يطل على الدنيا.
(**) رفحـة المـنطقة الـسعودية الـتي أسـكن فـيها الفاروق من عسف النظام الصدامي، وسوق الشيوخ مدينة الشاعر في الناصرية (العراق) والشطرة من مدن منطقة الأهوار العراقية.

على هذا المشتبك الإبداعي تختلف المختلفات أو تتماهى. وتقرأ العراق في السيّاب مؤتلفاً على أهل أو حبيبة، على أعماق حولها الطاغوت إلى اشتعالات واستحالات ومقامات وجدٍ ولظى.

أحببت فيك عراق روحي

أو حببتك أنت فيه

وأتى المسا، فلتشعا

في دجاي فلا أتيه

لو جئت في البلد الغريب إلي ما كمل اللقاء

***

ليت السفائن لا تقاضي راكبيها عن سفارِ

***

هي وجه أمي في الظلام وصوتها

يتزلّفان مع الرؤى حتى أنام

وهي النخيل أخاف مه إذا ادلهمّ مع الغروب.

محمود درويش في قصيدته يخبئ فلسطين في ثوب صلاة أمه أو يجدها فيه، ويقابلها تحت سجادتها، يحن إلى أمه من خارج الحدود فيطرب لأن المنفي يتسلل والمنفى يبعث بمهارات أهل الرؤيا إلى إعادة تشكيل المعاني والقيم

والأفكار والمشاعر والصور والأشياء والأوطان، على نهج توحيدي يوائم الخاص مع العام ويلائم المفاهيم مع مصاديقها المتمايزة المنطوية تحت سقف واحد، فتتجلى الوحدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة.

أحن إلى خبز أمي وقهوة أمّي

وتكبر فيّ الطفولة يوماً على صدر يومي

ولعلّها مادية ناظم حكمت هي التي سوّلت له مرةً أن يعاند تكوينه الذّاتي بوعي مفارق فارتكب إثم الفصل التعسفي بين المعنى ومعادلهِ في المعنى، قال:

وطني حيث تكون زوجتي

حمّل زوجته جريرة أمميته الخرافية العابرة للأوطان والأقوام، وقدّم دليلاً على تعسفه عندما طلّق زوجته فأين أصبح الوطن؟ أحياناً يندفع الشاعر فيكسر نظام البدائل، يهوى فيعتدي ويهوي فيتبّعه الغاوون.. وقد كان السيّد أكثر احتياطاً لأمره عندما كان يستشعر المنفى في الوطن لينزع إلى الوطن المأمول، رأى في الحبيبة بعضاً من ملامحه.

لأنت لي الوطن المرتجى وأنت به روعة المقتنى

في مهجري النجف الذي سكنته وسكنني، كنت أمضي ليلي أو ليالي، أو بعض ليالي سارحاً في براري ضيعتي ووجه

أمـي في يقظـتي وفي المـنام، بعـيد الفجـر تـشتبك الأبعـاد وتـشتبه، أضـع رأسـي في حجـر أمّي فتفوح رائحة التراب، وانفـض بقلمي كتلة التّراب فيحتلب لبناً نقياً شهياً يعيدني إلى شـقاوات الطفـولة وصدر أمي، وتداهمني احتمالات الموت بعـيداً ـ فيـصبح القـبر في جبّانة الضيعة مشتهىً كأنه الرحم، وطفقـت أسـأل العـارفين، حـتى بـدا لي الـشعر مقاماً مثالياً للـرؤية والأراءة، كـان لـدي طموحاً لم يستو اقتداراً فلصقت بالـشعراء، قارئـاً يكـتب ذاته ليقرأ غيره، واستوت في وعيي الأطـروحة على نسقها العادل عندما رايت في السيّد مصطفى الـشاعر الإنـسان والـشعر في شعره وحياته معرفةً لا فضلةٌ أو حـال مفـارق أو وقـت للفـراغ والكـسل والتخفف من وعثاء العلم والعمل.

ولكِ الحمد يا شواطئ عينيها فليلي على رمالك ضاحِ

بعـد هـذه المـساجلة لا بد لي من الاعتذار والاعتراف بأني لست معقداً وكل ما ادخره للإبداع هو استعدادي الدائم للدخـول فـيه علـى رجـاء اكتشاف حساسية المبدع وتمثلها، معـتمداً علـى بـضاعتي القليلة وذوقي الذي هو قطاع مشترك مـتكامل مـتوازن بـين العـام والخـاص وأغامر بالشك في أن تكون قد اكتملت لنا مرّةً على المستوى العربي نظريةٌ في النقد الأدبي مـنذ أن أشـار ابـن بـسام في الـذخيرة إلى المعـيارية الأخلاقـية كركيـزة يمكـن التأسـيس علـيها نظـرياً، وربّما لو

حصل كنا وقعنا فيما وقعت فيه الواقعية الاشتراكية من تعميم ومطابقة بين الجمال والحقد الطبقي.

أما ما يطلّ به عددٌ من نقادنا على الآثار الأدبية من نقدات لا ترتقي إلى مستوى النظرية الشاملة فإنه يبقى تعريباً أو توطيناً لمجتزآت من نظرات نقدية غربية لها ظروف إنتاجها التي ربما كانت مماثلةً لظروف إنتاج موضوعاتها، في حين أن الذوقية تكاد تكون الباب الأوسع الذي أطل من خلاله أسلافنا على مختلف الفنون، فلم يقصّروا في الكشف عن عوالمها وأبنيتها وإعادة تشكيلها، حتى صار النقد وكأنه استكمالٌ إبداعي للإبداع الأول.

إذن ليس لدي سلاح نظريّ أشهره، في مضمار السيّد مصطفى وإنما هي ذائقة أذوق بها منه، مصرًّا على شراكته في الصورة وخلفيتها وكثافة ألوانها والنار أو الثلج تحت جلدها وفي نبضها، وامتنع عن أعمال قواعد البلاغة التي تعلمتها من السيّد، لأنها ربما كانت قد أتت من نقصٍ في نشأة السليقة وتربيتها، منعت الوافدين على بلاد العرب ودينهم ولغتهم من إدراك الصورة البيانية بإجمالها لغةً وإيقاعاً، فكان لا بد من تفكيكها، ما كان العربي وكثير من غير العرب في غنى عنه.

وتحولت القراءة النقدية التجزيئية إلى تشريح أو تجريح أو بعثرة قاسية للأثر الأدبي، ما امتدّ في بعض المقاربات

النقدية إلى استعارة الشكلانية المنهجية الصارمة، من حقول علمية مختلفة، جعلت البعض يرى في السيّد مصطفى جمال الدين الواحد الموحد المتوحد المتعدد الأبعاد، اثنين، أو واحداً لا يُرى إلاّ ببعد واحد فقيهاً أو شاعراً، وكأن القسمة الثنائية الأرسطية مقدسة.

السيد مصطفى يكون هنا والآن شاعراً بامتياز يحضر فيه ومعه الفقيه بمقدار، يزيد أو ينقص حسب المعطيات والمقتضيات، ويكون هناك بعد لحظة فقيهاً بامتياز يحضر فيه ومعه الشاعر نسيماً بارداً في حر الأصول ينعشها.. وشعاعاً دافئاً مدفئاً في قر الاستدلال الفقهي أو علم الرجال، يدخل في أوصال الفقيه فيسترخي ريثما يعود إلى «تنقيح المناط وتحقيقه» (مصطلحات فقهية).

أبعد من هذا ذهب السيد مصطفى في فكره وسلوكه.. علمنا كيف يتكامل الفقه بالعلم المدني، وكيف يتكامل الفقيه بالعالم المدني، كيف يكون الآخر شرط الذات وشرقها الذي يشرق عليها فتشرق به فلا تبقى أسيرة غربها وغرابتها وغربتها. في الوطن وفي الغربة.. وألا تحول الوطن إلى مغترب وتحولت الغربة إلى غرابة والغريب إلى غراب.

يا سيد البحور من المتدارك إلى الوافر الجميل، إلى الطويل كقدّك وبالك، ويا حارسها من أوشاب الزحافات والعلل، يا نورس البحار، من بحار الأنوار إلى بحر الغري

وبحـر العلـوم، يـا دغلـة الأهـوار، مخـبأ الأسرار، وخدين الأنهـار، مـن الفراتين إلى بردى، يا حبيب الجنوب، جنوبنا وجـنوبه، جـنوب الـرئة والكـبد، يا خفيض الجناح رحمة، رحمك الله كفاء معناك فينا ومعنانا فيك.



تقاسيم على عجلة الدبابة(*)

هـذه نصوص كتبت مترافقة مع حرب تحرير الكويت وعودة الحاكم الأرعن ونظامه الأهوج إلى رهن العراق ثانية مقابل استمرار «الخائف المخيف في الحكم»(**).

(*) بالإذن من محمد خضير.

(**) بالإذن من زهير الجزائري.

ـ ١ ـ

كوميديا السواد

يـرى الـبعض أن المـستقبل في المـسرح هو للكوميديا التي تقوم في ما تقوم على المفارقة وعدم التسلسل شكلاً بين المقدمـة ومـا يلـيها مـن قـول أو فعـل أو حـركة. خطـورة الكومـيديا، نـصاً ولعـباً وتلقـياً، أنها أحياناً تنفيس. غيمة من ضـحك يخامرها شيء من فرح مرتجل مرة، وشيء من حزن سـريع الـزوال مـرة، وخليط منهما مرة أخرى.. ولكنها تخلو من بخار الغضب، الذي يعيش طويلاً، ويذهب بعيداً، يحفر في القلـب ويـدخل ركناً في الجملة العصبية ويحرض، يدفع إلى التظاهـر أو الاعتـصام أو الأضـراب أو الصوم أو الكفاح المـسلح أو النـضال الـسلمي الـدؤوب، أو أو أو.. لتحريـر الذات واللغة والفن والوطن.. من هنا يبدو أننا كنظارة، نتجه حثيـثاً نحـو الـثلج وصقيع الحياد، الموت، أو نحو الأنية في الانفعـال الـذي ينطفئ في المتعة السهلة.. نخرج من المسرح وندخل في الليل، وفي النوم، في الغياب.

أنام ملء عيوني عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

وفي اليوم التالي، أو العام التالي، أو القرن التالي، أو الوطن التالي، أو الهزيمة التالية، أو الخيانة التالية، نروي لمن لم ير ولم يسمع، مفارقات اليوم الأول بلا دلالات ولا عبر ولا عبرات.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا﴾ (الكهف: ١٨).

أمام التلفزيون، المسرح، ننتظر الصورة، لأن الكلام أقل وأدنى تعبيراً، الكلام مراوغ، يعد بالنصر فتكون هزيمة، يحكي عن الصمود وفي الصورة يظهر الانهيار.. إلى الصورة، إلى المشاهدة والشهود أيها المستمعون الكرام..

في الصورة: قرن من العلم وطهارة المولد والمحتد والذات والذيل واليد واللسان والظاهر والباطن، اسمه السيد أبو القاسم الخوئي، أسير أتى به من النجف الأشرف إلى بغداد على غير مألوف منه ومن أسلافه وأسلاف الآخر ـ حتى هولاكو ـ قرن.. أمام نصف قرن من الجهل واللغة الهشة، وبداوة ما قبل البداوة، البداوة الجديدة، البدو قراط، التي تجمع سيئات البداوة إلى أسوأ ما في الحداثة، لا تستبقي من قيم تلك شيئاً ولا تضيف من حسنات هذه شيئاً ولا شكلاً، وتبدي مزيداً من العنفوان أمام الآخر.. حسناً نحن معك على مضض منك.. ولكن هذا العنفوان المصطنع

لا يلبث أن ينكشف عن عفن.. أنه عنفوان «محمض».. لا يتجسد، إلاّ غارات وكيمياء سامة في حليجة والنجف وكربلاء، وانكشافاً، تعرياً - ستربتيز - في صفوان.. أمام اليانكي، دون ما يغري من مفاتن وفتن.

وفي الصورة، أهل العراق، أهل المروة والنخوة والكرم والحمية والأنفة.. أهل المضايف.. (لازمة مرثياتهم الشعبية: «حشا شاربك نوم الوطية») يتدافعون، يتعاركون، حول شاحنة التموين الأميركية، يتلقفون منها خبزاً ويذهبون وكأنهم وقعوا على كنز.. الله أكبر.. - أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك وتركك بنات الوحي سبايا يقودهن الجوع من بلد إلى بلد - من خطبة السيدة زينب إلى يزيد مع بعض تصرف -.

العراق، بلد السواد، والسواد في اللغة العربية هو الخضرة، هو الخصب، العراق كان البلد العربي الأمثل للخروج من التخلف إلى التقدم بمفهومه الشامل غير الأحادي الجانب، المادي المسكون بالمعنى، بملامح نوعية مميزة تاريخاً وتراثاً وحاضراً، بشراً وأرضاً وماء ونفطاً على الغد. أنه الآن مقاطعة من بنغلادش أو أثيوبيا أو الصومال.. أنقول أن له بألبانيا أنور خوجة أسوة حسنة أو سيئة؟ أبداً.. ولا قياس ولا مبرر ولا داعي ولا سبب إلاّ الحاكم.. بعض

الحكّام لهم دور واحد وحيد: أن يقطعوا طريق التاريخ.. أنهم قطاع طرق ليس إلاّ..

وفي الصورة: توقف الحجر، اصطدم الحجر بلعبة السكود فأصابه السكوت، سكت الحجر بعدما ملأ الدنيا حركة وكلاماً وأملاً.. تنطفئ الانتفاضة، ينطفئ الوهج، في الداخل الداخل، على أمل ضعيف.. أمل بالخارج من الخارج، ولكن الخارج خرج حتى من الخارج، راهن على فارس كان هو يعرف عن كثب أنه مجرد بغل أن أنهزم عض وإذا انتصر لبط ورفس.. ويعود الخارج ليراهن على الداخل، فهل تعاود الانتفاضة انتفاضها؟ أني أحب ذلك وأرغب فيه.. ولكن إذا ما كانت الخيبة خيبة بالآخر، حتى الصديق، كالسوفيات مثلاً - فيأتي الرد من الداخل، أما إذا كانت الخيبة منا.. منا، فمن أين يأتي الرد؟ ربما كان الرد انتحاراً، هيراكيري.. أو نصحو على مفارقة!!

وفي الصورة هذا الحقد - غير المقدس - العشوائي، المتفجر على حدود الأقطار والقبائل والأفخاذ، يجري في كل اتجاه، كنهر فالت من عقاله.. إلى أين؟ هل انتهينا من السادية إلى الماسوشية؟ أو من الماسوشية القطرية إلى السادية القومية؟ هل قتلنا الذئب والضبع حتى نشوي الخراف؟

تفرقت غنمي يوماً فقلت له   يا رب سلط عليها الذئب والضبعا

أنـا أراهن أن جيلنا سوف ينقرض، واسأل الله التعجيل في هـذا الأمـر، هـذا بـاب الأمـل، ومعه ينقرض نظام القيمِ الجديـد الـذي أنتجـناه من خارج السياق مادة وصيغة حاكماً ومـثقفاً تابعـاً (جاريـة) ونعـود، ويعـود مـن بعدنا إلى نظامنا القـديم الحديث والمعاصر والأصيل وهذا حل، فمن أراد أن يـصبر ويـصابر ويرابط فليصبر، ومن أراد فلينافق، فليبتذل، فلـينزِل، ليضع رأسه بينِ قدميه.. وهناك منِ يريدون أن يرووا بدمـع العـين وحبات الحبر الأخضر شجرة العليق المتبقية في هـذه الـصحراء المملـوءة شمـساً ورمـالاً وذكـريات وأشواقاً وأحلاماً.. وبالمضمون عن رسول الله (ص) قال: «أرأيتم يوم تتداعـى عليكم الأمم كتداعي الآكلة على القصعة!! قالوا: أو من قلة يا رسول الله؟ قال: أنها كثرة ولكن كغثاء السيل».

وفي الصورة في الدين، ومثالي لبنان، لم تعد المؤسسة مؤسـسة، لا الرسمية، ولا الأهلية التي كنا نباهي بها. لم تعد مؤســسة ولــو خــربة. وهــي في طــريقها لأن تــصبحِ ســلة «ســلاطعين» كـيفما تحـركت أو حـركت يعض ما فيها أو من فـيها بعـضهم بعضاً.. يخرجون من القلوب إلى الجيوب، إلى صـفحات الجـرائد، ومـن الموعظة إلى الكلام الملتبس، من الكتابة والأستعارة إلى المباشرة الباردة، من الوجدان والدعاء إلى النكـتة، مـن الـدين اللحمـة والسدى إلى الدين التفسيخ والتفكيك، من الدين الاحتجاج إلى الدين التبرير، من الدين

الـتكامل والأكـتمال إلى الدين المصادرة.. إلى المفارقة، إلى الكومـيديا.. ومـن الـنمو العلمـي والأدبي والأخلاقي الهادئ الـسري والطـويل المـدى، البعلـي، إلى الـنمو الـسريع في «الغـرين هـاوس» المحمـيات، البـيوت الـزجاجية، الخـيم البلاسـتيكية، مـن الـتقوى والتواضـع زاداً وغذاء إلى هرمون الأعلام وأدوية الدعاية والمال والتصنيع حسب الطلب. وأكبر ما نخشاه أن يطال التصنيع هذه المرة مقام المرجعية ونظامها، وإلاّ فلمـاذا أدركـنا الذعـر خـشية أن يـصاب الـسيد الخوئي بـسوء؟ وهـو قـريب من الموت والموت قريب منه كما قال، منتهـى المفارقـة، منتهـى الكوميديا أن ننتج مراجعنا بالدعاية كمـا تنـتج المجـتمعات المغلقـة وجهاءهـا وزعماءهـا السياسيين!!

كوميديا، كوميديا، والمسرح في الهواء الطلق ـ مسرح الـشمس ـ والأنكـى أن النفاق لم يعد حصرياً.. هذا منافق أو هـؤلاء مـنافقون، الآن أو غـداً أو إلى مـدة معينة حتى ترتفع الـضرورة، بـل أصـبح النفاق أسلوب إنتاج وناظماً اجتماعياً وفكـرياً ومنهجاً للنخبة، كل النخب من التجار إلى المثقفين، كـل المثقفين.. والنخبة لن تلبث أن تعممه على الرعية تطبيقاً للمأثورة من قول علي (ع) «كما تكونوا يول عليكم».

أمـا مـن شـهداء ليـشهدوا؟ بلـى، ولـولاهم لـساخت الأرض.. أنهم موجودن يقفون عند نقطة ما، تحت شجرة أو

حائط أو قصيدة ولن يلبثوا أن يعيدوا الرواية إلى سياقها ومنطقها.. يمسكون بالسقف حتى لا يسقط فوق رأسنا، يؤجلون سقوطه.. ريثما يستعيد البيت العربي والعراقي أعمدته وجدرانه، أرضه، وسقفه وأبوابه ونوافذه المشرعة على الغد.

شتاء ١٩٩١



ـ ٢ ـ

قراءة في دفتر السيد ميم

مقدمة محايدة: لأول مرة على شرفة مفصل، على قيد باع من مستحول، قرر السيد ميم أن يختزل المدى الحيوي لوجدانه، لملم على قلبه أطراف بيته وأسرته وأقام من شفتيه عيوناً على لسانه، ونوى أن يتوخى الدقة في حساباته على غير عادته، وسبحان مقلب القلوب! وغداً أو بعد غد، إذا ما انجلى الغبار عن ذهب فلن يعدم السيد ميم فرصة لاصطناع الفرح للكسب، وإذا ما كان قد تعود أن يكون خاسراً مع الرابحين فلربما استطاع هذه المرة أن يكون رابحاً مع الخاسرين وما ذلك على الله بعزيز، والسيد ميم تعلم كثيراً من شطارات مؤمني ما بعد الفتح ومن خيبات مؤمني ما قبل الفتح ـ أولاد السيد ميم يشكون في مصداقية كلامه هذا! ويراهنون على أنه لن يستطيع إلى ذلك سبيلاً ـ وغداً أو بعد غد ـ يتابع السيد ميم ـ إذا ما انجلى الغبار عن غبار فلن يعدم فرصة في الاختباء وراء حجر عربي في خرابة عربية أو التشبث بشتلة تبغ أو شجرة دفلى على ضفة نهر عربي ينضب صيفاً ولكنه يتدفق شتاء، ينحسر في الهزيمة ويفيض على

موعد نصر آخر أو هزيمة أخرى وأخرى وأخرى.. ويبقى مفتوحاً على غده موصولاً بأمسه موجوعاً موعوداً واعداً متعامداً.

ولأول مرة ـ يقول السيد ـ ميم ـ يطاوعني لساني فيقتصد.

يقول السيد ميم:

في اليوم الخامس للحرب استيقظت مبكراً، لاحظت أن الزمن يعاني اضطراباً معوياً وارتفاعاً طفيفاً في الحرارة، ويسير في اتجاهين، إلى الأمام مرة وإلى الوراء مرة، حتى خيل إليّ أنه بعد أسابيع ربما أصبح التاريخ كله يوماً واحداً فارغاً من الزمان أو مكتظاً بالزمان.

غسلت وجهي بالماء البارد والصابون، لذت لي برودة الماء وتساءلت في سري: ماذا لو أوقدنا فحماً أو حطباً للتدفئة في تموز القادم؟ وحده السياب قد يعترض لأن في ذلك إجحافاً في حق غلغامش (تموز).

أما أنا ـ يقول السيد ميم ـ فقد وجدت ذلك منطقياً وممكناً.

واضح أن السيد ميم هنا يريد أن يتكلم عن سوريالية سياسية..

ويقول: دائماً كانت هذه السوريالية قائمة قاعدة في تاريخنا الحديث، وأن لم ترتق يوماً إلى مصاف الإنتاج الأدبي.

ربما يكون ذلك قد حصل في فنون أخرى كالرقص مثلاً، ولكن السيد ميم غير مؤهل للحكم في هذا المجال، مجال الرقص التعبيري أو الاستعراضي أو السياسي أو الصوفي أو الفكري أو الأدبي أو الصحافي أو هز البطن أو الدبكة أو الباليه. السيد ميم يحاول الآن أن يجترح هذا الارتقاء أو يرتكبه، واختيار الرفيق قرمط مثالاً لا حصراً، سببه مركب ضعف نفسي وجسدي لدى السيد ميم ليس إلاّ.. فهو يختاره لأنه أقل المصاديق خطراً، إلاّ إذا عاد الجيش الأحمر وقلب الموازين.. وهذا مديح للرفيق قرمط على غير قصد من السيد ميم.. ولربما اعتبره الرفيق قرمط تجريحاً، هذا شأنه، فإذا اعتبره كذلك فالسيد ميم يوافق ويعتذر، وإن لم يقبل السيد قرمط عذر الرفيق ميم يكون السيد ميم معذوراً في قول ما لا يقال، وليكن ما يكون، فالسيد ميم عدل من نظرته إلى علاقته بالتاريخ، لم يعد على قناعته الكاملة بأن التاريخ يتوقف عليه أو أنه يتوقف على التاريخ، فليذهب كل منا بحاله إلى حاله وكفى!!

تناول السيد ميم كأساً من الشاي الساخن صباح اليوم الخامس للحرب الثالثة وأستمع إلى نشرة أخبار، فبلغت يقظته ذروتها ورأى فيما يرى النائم مهرة حبلى.. رأى فيما يرى النائم امرأة ترمي نهديها للماء وتقول: فليتقدم من يخطب امرأة الحرب فيخرج الدلفين رأسه من الماء ويقول: يا

واقفة عند حدود الليل انتظري جيلاً آخر ينجب منك النصر الموعود(*).

ورأى فيما يرى النائم البابا أوربان الثاني يعتلي منبر الحسينية في قريته جبشيت.

لقد أثار البابا أوربان الثاني انتباهي وفضولي وحفيظتي وغضبي ودهشتي وذاكرتي ومخاوفي وقرفي وإعجابي وتعجبي وشكوكي وظنوني عندما استشاط غضباً وهو يحدق في يزيد بن معاوية ويتوعده على فعلته الشنيعة بغزو المدينة المنورة وإباحتها لجيشه وهدم الكعبة بالمنجانيق، ويزيد غارق في الضحك يراقب قرده «ميمون» وهو يبول في جيب سترة زياد بن أبيه، في حين كان الحجاج بن يوسف غارقاً في نومه وشخيره يعلو ويعلو فاستحسن خالد بن عبد الله القسري أن يكشف عن عورة الحجاج فأماط عنها اللثام والحجاج مسترسل في نومه وشخيره وخطابه.

لقد ذهبت كثيراً في منامي.. فلأقف عند حد.. ها أنذا واقف فمن يحركني؟

سأبقى واقفاً ما لم يدفعني أحد إلى الوراء أو الأمام أو اليمين أو اليسار.. فإذا ما دفعني أحد فسوف أعود إلى يقظتي وأخلاط أحلامي واقف على رأسي.

(*) من فاضل العزاوي بتصرف.

في اليوم الخامس للحرب، كنت عائداً من النبطية إلى بيروت التي أحبها لأسباب منها أن فيها سيارات تعيدني إلى النبطية. وإذا ما احترق النفط أو ارتفعت أسعاره كثيراً فإن هذا الجدل وهذه السيرورة سوف تتعطل.. كنت ممتلئاً فرحاً بمطر غزير طال انتظاره وتأخر عن موعده كثيراً فتأخر معه العلت والعكوب والزعتر والشومر.. ولكنه وصل.. تصورت أن الأرض من غدها سوف تتحرر من عطشها وأعدائها وتعود حرة وخضراء.. وسائق السيارة ـ سيارة الأجرة ـ كان متقدماً في السن وهادئاً فقد زوج جميع أولاده وبناته فإذا مات كيميائياً أو طبيعياً أو جرثومياً أو نفسياً أو نووياً أو روحياً أو وطنياً أو جوعاً أو قومياً أو برداً أو صبراً أو مللاً أو ياساً، فإنه سوف يموت مطمئناً.. كان يغبطني وأنا أحسده. كأنه، حسبما توحي عيناه، يعرفني ويفهمني، وهو سعيد لتواضعي بركوبي إلى جانبه في سيارة أجرة.. ويريد أن يطمئن إلى نهاية الحرب كيف تكون؟ نصراً ما.. لأحد ما.. ليفرح، أو هزيمة ما.. لأحد ما فيحزن..؟ وللسيد ميم صديق يريدها نصراً ما ليتدبر أمره مع المنتصر أو هزيمة ما ليتدبر أمره مع المنتصر أيضاً.. والاثنان سائق السيارة وصديق السيد ميم حائران، مع أن فرقاً شاسعاً يقوم بين حيرة كل منهما وحيرة الآخر.

قال سائق السيارة في أول الطريق موجهاً كلامه إلى السيد ميم: عشرون دولة على دولة واحدة؟

قلت: أشم رائحة بنزين في السيارة، هل ملأت خزانها لتوك؟

قال: لا، ملأتها بالأمس.

في آخر الطريق قال السائق: حتى الآن العراق صامد ولكن الحرب صعبة..!

قلت له: سلمت يداك.. هنا من فضلك..

ترجلت ومشيت - لم يصدقني.. أنا صدقت نفسي، وبذلت جهداً لتصدق زوجتي، وفي النهاية صدقتني وهذا اعتبره انتصاراً كبيراً، لأنها منذ عشرين سنة تصدقني وينكشف العكس، فرحت كثيراً لأنها لم تتب عن تصديقي مما يعني أنني مؤهل لمستقبل شخصي مرموق على تقدير النصر كما على تقدير الهزيمة، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

١٩٩١/٢/١٥

ـ ٣ ـ

قراءة في دم وحليب ووطن

أو أنت معتوه؟ معتوه! ـ دمي.. دمي هو المعتوه.. أعياني دمي، لا يتكيف، لا يتأقلم، لا يحسب، لا يجامل.. يفور، يفور دمي، يبحث عن مكان مرتفع في الوطن الممتد المدد من إلى، ولا يجد.. يعود إلي خائباً كاسفاً متوتراً، يبحث عن مكان هش في جلدي ليخرج، لا يخرج، يتجمع في مآقيَّ، يهبط إلى أناملي ورؤوس أصابعي، يسيل كلاماً، كلاماً قاتلاً.. ويخاف علي ومني كل العارفين ببواطن الأمور، كل المنجمين الذين يرون بعيداً، إلى مرمى حجر أو ظن، بعيداً، من الخليج إلى النشيج، من المالسوين إلى سلوية سامراء، من خليج تونكين إلى خليج الخنازير، ومن نهر دانغ إلى نهر دجلة والدجيل.. ولا يرون قريباً إلى قلوبهم، إلى ما تحت جلودهم.. يخافون علي من دمي ولساني «.. أحببنا كلماته، أكثر مما أحببناه، فتركناه يموت لكي تبقى الكلمات».

ـ دمك الموتور لعلّه دم حرام.

ـ كان حلالاً وكان سائغاً، عذباً فراتاً، صار حراماً ملحاً أُجاجاً.. ولا يد لي ولا ضلع «والموصوف بالسيئة، الواصف لك بها، الذاكر لك بالسوء، إن بقي على حاله حتى إذا احتضر، وشاهد أمارات العذاب، وعاين وحشة هيئات السيئات، تمنى الرجوع، وأظهر الندامة».

(ابن عربي)

ـ ألا ترى للدم الحديث أصلاً في تراث الحليب البلدي؟

ـ ولدتني أمي، ذات حصاد من ذات صيف من ذات عام، بطلقة واحدة، وماتت بطلقة واحدة، كانت الأولى واعية والثانية طائشة، وربما كان العكس أصح، مع حبي لأمي ولكنها استراحت.. تنفست ثلاثة أيام بلياليها، وصباح اليوم الرابع (دغشة باللبناني، وغبشة بالعراقي) مع نجمة الصبح، أتتها أمها وقالت لها: قومي يا بنتي يا مسكينتي ووحيدتي وجميلتي إلى حقلك، حقل زوجك الذي صار نصفه الجنوبي مهراً لك، قومي لئلا تعيرك نسوان الضيعة غداً، ويوغرن صدر حماتك، فتقول حماتك لزوجك: أرأيت يا ولدي لو كنت تزوجت بنت خالك التي لم تذهب إلى المدرسة العصرية، لما ظلت سنابل قمحك مشرعة مباحة للريح والعصافير مرتعاً للثعالب ومثابة لبنات آوى.. خافت أمي أن يطلقها أبي أو أمه أو أخته.

وكانت زهيدة المهر على أساس أن أفضل النساء أخفهن مهوراً، وهذا يجعل الزواج يسيراً ويسهم في حل مشكلات الحروب الداخلية والخارجية والديون الداخلية والخارجية كذلك، ولكنه مع استمرار التخلف والتبعية واستيراد العلاقات والأزمات يجعل الطلاق أكثر يسراً.. إذن يجب أن يرتفع المهر مرحلياً، حتى نستعيد وعينا، وبعد ذلك نفعل ما نشاء.. «يا مولاي، في عصر ملتاث قاس وضنين/لن يصنع ربي خارقة أو معجزة كي ينقذ جيلاً/من هَلْكى/قد ماتوا قبل الموت». قيل لنا يوماً أن أفضل الأوطان أغلاها مهوراً، كان الدم غالياً يغلو ويغلي.. وبقينا نعمل بهذا القانون ردحاً من زمن، أعطينا الأوطان كل شيء لأنها كل شيء، فأعطونا الأوطان وعندما أردنا مقاربتها تمنعت وامتنعت علينا، فلم تلد وتبين أنها لم تولد..

وانتشر العقم.. وها هو الآن النظام الجديد قادم على صهوة حمار وحش فلربما انقلبت المعايير (متى كانت غير مقلوبة؟) لتصبح أفضل الأوطان أرخصها مهوراً، على أساس من حساب قوة العمل المبذولة وفائض الإنتاج وفائض القيمة.. تبطل الحاجة إلى الدم، يتوقف العرض والطلب، تصبح الكرامة أمراً زهيداً، يبذل عوضاً للوطن، فيُعطى الواحد منا وطناً (بالدور) ويُعطي كرامة، وفي الليلة الأولى يكتشف أنه لم يعطَ شيئاً ولم يُعطِ ـ تعادل بدون أهداف ـ

ربحنا!! شدت أمي بطنها بحبل من قنب شدته على بطنها، وذهبت غدوة مع الندى قبيل الشمس إلى حقل الحنطة «حزمينا الحنطة حَدْر خْصُوْرها» (مظفر النواب).

تركتني مقمطاً في السرير (المهد) الخشبي الأزرق.. الطفل في السرير الخشبي، بالقماط كلما أحس أن القماط قد أرتخى قليلاً حرك يديه ليوسع مدى يديه. وتعود أمه، فتشد القماط، حتى لا يخرج يديه مقدمة لخروجه.. ولكنه يخرج.

وفي التاريخ القديم خرج علي بن أبي طالب (ع) من مسجد الكوفة فتبعه المصلون فالتفت إليهم في بعض الطريق وقال: أبكسم حاجة؟ قالوا: لا، قال: من لم تكن به حاجة فلينصرف فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال، مفسدة للقلوب، تفسد قلوب الأتباع بالمذلة والهوان وتفسد قلب المتبوعين بالأنانية والكبرياء.

تركتني أمي في السرير مع قطعة من راحة الحلقوم - قطعة واحدة من الفجر حتى الظهر، ملفوفة بقطعة من الشاش الأبيض مربوطة إلى جسر السرير الأزرق مدلاة إلى حلقي.

توقف والدي عن الحصاد ظهراً وقال اذهبي يا خديجة إلى طفلك وأنا أتابع الحصاد وحدي.. لا تنسي أن تعدي لي مخيضا إن تيسر..

كان وجهها فاتراً من التعب والشمس والصبا. وألقمتني

ثـديها وهـي على هـذه الحـال، ورحت أعب الحليب وهو ينهمـر في حلقـي كالمطـر ويدفـق كالنهر وينبجس كالدم في حـرب أهلـية لا طائل تحتها ولا فوقها ولا وراءها ولا أمامها ولا عـن جنبـيها ولا علاقـة لأطـرافها بهـا.. وأصابتني حمى الأمعـاء، مرة في موسم الحصاد، ومرة في قطاف التبغ ومرة في قطـاف الـزيتون ومـرة في تعشيب حقول القمح والشعير، فتساقط الزغب الناعم عن جدران أمعائي، ذلك الزغب الذي يمـتص الـدم وينقيه ويرسله إلى الخلايا التي تحتاجه.. أصبت بفقـر الـدم علـى كثـرة دمـي المـسكين بل لكثرته قياساً على الـنفط.. وهكـذا أيهـا الأخـوة كـان دمـي مـركباً من الشمس والـتعب والعـرق والـصبر والـصبار والـشوك والشوق والتبغ والحنطة والحب.

ـ ألن تكف عن هذا النرجس؟ كلما ساورناك على باب مشاغلنا ذهبت إلى نرجسك ورحت بعيداً أو عميقاً في حكاية الذات، ألا تكسر هذه المرآة!! ذبحتنا!

ـ يـا أخـي ورفيقـي العزيـز عندما يفلت الموضوع من يـديك ووعـيك لا بـد أن تـتورم ذاتـك فـيك وتـصبح بـؤرة للإسـقاط، ترى الزمان والمكان مجتمعاً فيك.. أمن غير خيبة قـال ذلـك العارف المندهش: أنا الحق؟ وراح أهل العرفان، أهـل الـذوق، أهـل الحقـيقة، يـتحدون حيناً ويحلون حيناً..

عـندما يعطـل الـناموس، لا يبقـى لـنا إلاّ أن ندعـي الحقيقة ونذهب عميقاً في الذات نحوها.

وقد تكون مدعى وحسب، وهما ولكنها تسلي.. عندما يتلاشـى الموضـوع تقـيم الفرضـية مقامـه فـتقوم، وتتحد أو تحـل، في الـناس في الـوطن، في الله.. «أنـا الدولة» «أنا من أهـوى ومـن أهـوى أنـا» والسياب يقول: «أحببت فيك عراق روحـي، أو حببـتك أنـت فـيه» ويقول التركي ناظم حكمت: «وطني حيث تكون زوجتي» ويقول مصطفى جمال الدين:

يـا أنت، يا وطناً حملت ربوعه في غـربتي وجمعـته بشتاتي..
عيـناك منـبع رافديـه وملتقـى فـرعيك خضر مروجه النضرات

وقال رسول الله (ص): «كان حجر في مكة يسلم علي».

ــ دعـني مـن التداعـي فإني أحاول أن أقوم.. أين أنت الآن؟ هـل هـذه في نظـرك هي اللحظة المناسبة التي اكتشفها لينين بن أبي جهل في صلح بريست ليتوفيسك؟

ــ دعـني أخلط وأخلط.. فدمي يصلني آواخر الشهر أو أواخـر الفـصل أو أواخـر الوطن، يصلني ولا أصل، يصلني إلى وطـني ولا أصـل إلى الـوطن ولا يـصل إلى الوطن.. أني مقطـوع مـنقطع مقطـع.. سـوف أسـتقيل من دمي لحظة لألم شـتات هـذا الجـسد، وأضـع إكلـيلاً مـن الشوك على درب الخلـيفة.. وفي آخـر الحـزن ينـبت العشب.. وهناك قطرة من

نـدى نـسيتها لـنا الشمس بين البرعم ولحاء اللوز.. قد تكون موعداً لفرح.. «يا طالع الشجرة، هات لي معك بقرة، تحلب وتسقيني، بالملعقة الصيني».



همسة إلى قرن من الوجدان والوهج والإبداع والفوضى إلى شاب نجفي عمره تسعون.. إلى الجواهري.

أقـــول لنفـــسي إذا ضـــمها وأتـــرابها محفـــل يزدهـــى
تـسامى فإنـك خبير الـنفوس إذا قـيس كـل على ما انطوى
وأحسن ما فيك أن «الضمير» يـصيح مـن القلـب أني هـنا

الجواهري أواسط عام ١٩٤٧

لا تزعل يا أبا فرات فإن بين الشعر ـ الفن ـ والسياسة ـ الحرفة ـ ما بين الصورة الفنية الجميلة وبين التفسيخ والتفتيت القاسي الـذي مارسـه البلاغيون ـ تقنيو البلاغة ـ على شعرنا مـنذ القـرن الخـامس حـتى آخـر مملوكـي وآخـر فرنجي في بلادنـا.. مـا الـذي دهاك حتى تضع نفسك وروحك بين يدي الـسكاكي وقدامـة وأبي هلال؟ لو كان عبد القاهر أو الراغب أو أبو حيان أو الشبيبي أو الشرقي أو الحبوبي أو فهد ـ فهدك ـ أو فيكـتور غـارا أو بابلو نيرودا.. لو كان هؤلاء أو بعضهم حاضـراً لهـان، أو لمـا كـان الخطب.. أو قل لكانت السياسة

شعراً والشعر سياسة وكنا انتهينا للحظة، ليوم أو اثنين أو ثلاثة، لعراق جديد، من هذه الثنائية، ينتهي التعدد والتوازي عندما يصبح التخالف تنوعاً وتنويعاً يأتي من الأصل..

من حقنا عليك أن تغضب عندما ترى السلم منكسراً.. سلم السياسة عندك هو عروض الشعر وهو سلم الموسيقى وهو النسق الجميل في سعفة النخل وشجرة «الرازقي».. اهدأ يا أبا فرات.. فمرة يسبقنا الأهل ونلحق بهم، نلتحق، ومرة نقودهم، أو هكذا يبدو.. ويبدو الآن أنهم طليعتنا. (بعد وكت نلحق)..

اقرأ يا أبا فرات معي شعر الجواهري:

أجب أيها القلب الذي لست ناطقاً إذا لم أشاوره ولست بسامع

وحدث فإن القوم يدرون ظاهراً وتخفى عليهم خافيات الدوافع

يظنون أن الشعر قبسة قابس متى ما أرادوه وسلعة بائع

وأذكرك لأعزيك بنص ماركسي لم تقرأه لأن تقدميتك المصبوغة بالأحمر، يحول لونها، الطلاء، عند أول نعي كربلائي، ولأن تقدميتك لم تكن تقدمية كتب ونصوص.. هي تقدمية الفطرة والعفوية والغضب والانحياز التكويني للعدل والوطن.. ولذلك ما زلت تقدمياً ـ على الرغم من البيروسترويكا ـ وما زلت شاعراً.. حتى لو لم تقل شعراً..

وما زال الكثيرون رجعيين وغير شعراء على الرغم من الكتب المترجمة التي يستظهرونها ـ كما استظهر زميل لك مثلاً ألفية ابن مالك ولم يستطيع أعمال حروف الجرف ـ ما زال الكثيرون دون عتبة الشعر على الرغم من المطولات، دواوين وقصائد وأيديا وألسنا ـ جرابات ـ يقول ماركس معلقاً على احتلال بريطانيا للهند: «أن إنكلترا التي تستهدف غايات مغرضة في هذا البلد كانت على الرغم من كافة جرائمها أداة غير واعية للتاريخ وكان عليها أن تنجز هناك رسالة مزدوجة، تقويضية وإنشائية هي القضاء على المجتمع الآسيوي العتيق من ناحية وإرساء أساس مادي لمجتمع غربي في آسيا من ناحية أخرى» أسألك على فارق العمر والشعر بيننا: ألاّ ترى أن النظام الجديد يقع في مدى النص الماركسي وعمقه؟ ثم ألاّ ترى إلى ما آلت إليه الهند من تقدم وازدهار وديمقراطية وقارتها بالكستان وبنغلادش إن شئت ومن كل جهة؟ فلماذا الزعل؟ ألاّ قبحاً وترحاً لوجه المستعصم، خليفة ورفيقاً قائداً، والذي اضطرنا برعونته أن نعود إلى التذكير بالأصول والمسلمات.. والضروريات والبديهيات.. وما خفي عنا وعنك فهو أعظم. والسلام.

١٩٩١/٤/١

ـ ٤ ـ

قراءة في ذاكرة السيد ميم وأوجاعه

بزغ فجر العالم الجديد.

(بزغت السِّنُّ ـ بَزْغاً وبُزوغاً: شقت اللحم فخرجت، والطبيبُ الجلْدَ ـ بَزْغاً: شرطه فأسال دمه). (والفجر انكشاف ظلمة الليل عن نور الصباح وهما فجران: أحدهما المستطيل وهو الكاذب، والآخر المستطير المنتشر في الأفق وهو الصادق، ويقال: طريق فجْر أي واضح).

قبل سويعات، كان الغرب قد دخل في الشرق، كما يدخل الوتد في الجدار، والخيط في ثقب الأبرة، وكما يلج الليل في النهار، وكان الشرق قد دخل في الغرب، كما يدخل المكيل في المكيال وعود الشجر في اللحاء.. وبزغ الفجر من مكان ملتبس، هجين، مولَّد، ملاطي، خلاسي.

يمكن أن يقال له شرب أو غرق أو شر بغرق أو غرقشوب أو شرقغرب أو غربشرق.. ويمكن أن لا يقال له شيء لأنه لا سابقة له في التاريخ أو في الاستعمال اللغوي ليقاس عليه..

ـ وغرب القوم: ذهبوا، وأغرَبَ الرجل الأسمر ولد له ولد أبيض وأغْربَتِ المرأة السمراء أتت ببنين بيض.. والغَرْب الذهب والفضة.. وشرق وجهه أحمر خجلاً، وشرق الدم بجسده ظهر ولم يسل، وشرقت الآلة غَصت بوقودها ـ مُحدَث ـ والأرض جفت من عدم الري.. والأشراق انبعاث نور من العالم المحسوس إلى الذهن به تتم المعرفة.

قالت الحاجة نون جدة السيد ميم عندما سمعت هذا الكلام.. «بنحكي عن شكي عن بكسي عن دبس شديد بعلبكي.. قمت دغشي لَحُط للتبن جحشي لقيت الحيط بينقر بالحرامي.. ضربتو وضربني..) لم تكمل وانصرفت إلى دجاجتها التي تعاند الديك فيقول شعراً، والحاجة نون لا تحب الشعر لأنه ذهب ساقها وسُمَّاقها.

وانتصب النور الأزرق، عموداً، أصله في الأرض.. أرضنا هذه التي تتكلم لغتنا، وتحبنا ونحبها وأحياناً لا نحبها وتبقى هي على حبها لنا أو إيانا، نشتريها تحبنا، نبيعها تحبنا، نهجرها نهملها ناسرها تحبنا، نعشبها، نحرثها نزرعها نحررها تحررنا، تحبنا، ولكثرة ما تحبنا نعود فنحبها، ولكثرة حبنا لها نقايضها بالسلام، تقدم عرضاً أو نقبل عرضاً، عندما نقدمه يرفض عندما نقبله يُسحب، يُعرض البائع والمشتري عن عَرَضنا، يضرب بعَرَضنا عُرض الحائط وعُرض البحر.

وفرعه في السماء ـ عمود النور ـ سمائنا، إذ لا بد لكل أرض من سماء، تساويها مساحة كما يساوي غطاء القِدرِ القِدْرَ أو يفيض عنه وعليه قليلاً حتى يحتويه ويحفظه ويحتفظ بحرارته وأسراره.. وتوازيها فلا يبغيان.. حتى لا تصبح الأرض سماء فتستحيل الحياة على وجهها وظهرها وبطنها وفخذيها وقدميها، فإذا ما انعدم التعدد، تسود المِثْلية ـ والشذوذ مِثْلي ـ وفي التنوع الخِصْب.. ويصبح الوجود تكراراً وتصبح الأرض علبة كبريت والناس والأشياء والزهر والثمر والنحل والنمل أعواد ثقاب.. كما أراد لينين وستالين من بعده وخالد بكداش أن يفعلوا بالعالم، وحينئذ تنعدم الحركة والإبداع والحب ويهرب الناس جوعى بالآلاف سباحة من تيرانة إلى برونديزي.. وحتى لا تصبح السماء أرضاً فتصبح عرضة للدنس ولا يعود هناك لأهل الأرض مطهر ولا مجال للتسامي والشفافية والشعر والدراما والبكاء والضحك والخير والإحسان والرحمة والأمل والخطيئة والتوبة ـ.. والله أعلم، والعهدة على الناقل، وما آفة الأخبار إلاّ رواتها والشعوب إلاّ حكّامها والأنظمة إلاّ مثقفوها.

ثم ما لبث العمود الأزرق أن طفق يذهب عرضاً ذات اليمين وذات اليسار معاً، في نفس اللحظة وبنفس السرعة والوضوح والكثافة والجدارة والخبث والشطارة.

وما هي إلاّ سويعة من زمن ـ زمني يا أخت هواي عدم

ـ حتى مالت الزرقة إلى بياض داكن، كأن فيه دخاناً آتياً من حرائق غابرة (الغابر الموغل في الماضي والموغل في المستقبل) «ولما انقضت الأربعون يوماً ـ يقول صاحب البداية والنهاية ابن كثير ـ بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلاّ الشاذ من الناس والقتلى في الطرقات كأنها التلول وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد وتغير الهواء إلى بلاد الشام فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون».

وطلعت الشمس ونزلت فطلعت فنزلت، ثم طلعت ثم نزلت، ثم نزلت ثم نزلت.. وإذا ما نزلت نزلنا وإذا ما طلعت نزلنا، وعندما التقينا بين غيمة من حزن وسحابة من دخان بكت وبكينا فكفكفت وكفكفنا ثم ضحكت وضحكنا وقضينا لبانات القلب مع قليل من الهوى وكانت شاحبة زادها الشحوب سحراً.. وتعانقنا، اعتنق الواحد منا الآخر بعدما اتفقنا على أن لا نتأثم أو نأثم.

وبقينا على هذه الحال سحابة من نهارنا.. كأن الصاعقة لم تصعق وكأن العاصفة لم تعصف وكأن فلسطين قد اقتربت وكأن الأندلس قد عادت ففتحت ذراعيها وطالعتنا نافورة الماء في حمراء غرناطة بعد إغلاق «الهورس شو» في حمراء بيروت وهدم مقهى الفيشاوي على فم خان الخليلي وأمتار

من باب الفتوح في القاهرة. وإخلاء شارع أبي نؤاس من آشجاره.

وعندما أصبحت الشمس رأد الضحى، ذهبت عن عيني غشاوة ولبست قلبي غشاوة فقرأت رسالة هولاكو إلى الرفيق المستعصم بالله وفيها:

«احذر الحقد والخصام، ولا تضرب المِخْصَفَ بقبضة يدك - المِخْرَز - ولا تَلطخ الشمس بالوحل فتتعب».

صه يا هولاكو:

على أعقابنا جيد حسان نحاذر أن تقسم أو نهونا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا

ولكن الرجل - هولاكو - كان قد قتله الغرور وسوء تقديره لعاقبة الأمور وما كنا أعددنا له من حيلة ووسيلة فقال مخاطباً رفيقنا الفارس المستعصم بالله العباسي أبا حلا: «وحينما أقود الجيش إلى بغداد مندفعاً بسورة الغضب فإنك لو كنت في السماء أو في الأرض فسوف أنزل من الفلك الدوَّار وسألقيك من عليائك لأسفل كالأسد ولن أدع جيشاً في مملكتك وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار».

واستدعى الخليفة فريق عمله وعقد مجلس أزمة «من بينهم القاديانة مسؤولة الحريم - الجواري - التي تعين له كل

لـيلة الجارية التي يبيت معها بعد أن تكون قد أعدتها له مشطاً وصـبغاً وتعطـيراً وابراداً ودناً وأكؤساً وطعاماً، غالباً ما يكون حـوتاً صـغيراً مطـبوخاً بالـسمن والعسل والزعفران مع أمعاء الـدجاج محشوة بنخاع العصافير تقدمها للخليفة في حجرتها علـى أطـباق مـن ذهـب تذهب صباحاً إلى مقصورة القاديانة ثـواباً علـى تـدبيرها، تقدمها على سماط وتجلس بعيداً تنظر إلـيه يأكـل ويـرمقها بـين لقمة وأخرى بطرفه فتراقب أين تقع عيـنه مـن مفاتنها فإذا كان مكشوفاً بالغت في كشفه وإذا كان مستوراً كشفته.. وبينهم كبير الطباخين ـ الشيف ـ وكان خراج خراسان لا يفي باحتياجات مطبخ وإليها ـ.. إلى آخر المنظومة مـن أهـل التفويض والتنفيذ من الحكمدار إلى الدويدار، إلى الـسلاحدار إلى الـدربار إلى الـسياف إلى الساقي وغيرهم من الكـوادر العلـيا والمـتقدمة الوسـيطة واليزك ـ مسؤولي الأمن العـيون الهداهـد العـسس ـ» وطلـب منهم تقريراً مفصلاً عن معـنويات الجمهـور والجمـورية والقـوات المـسلحة وقواعد الـصواريخ والمجانـيق والعـرَّادات والمـسائل اللوجستيكية.. فأفهمـوه أن كلـه تمـام وأن حبه للأمة والوطن والمواطنين قد اثمر في قلوبهم عشقاً له يخشون على تقدير النصر أو الهزيمة أن يـصل إلى حـد التأليه فضحك بحبور واهتز طرباً ووعدهم بـأن يعـالج الأمـر عـند حدوثـه كـأن يأكـل أمـام الجمهور ـ سـندويش ـ في الـشارع العام ظهر أول يوم من أيام النصر أو

يـذهـب إلى المـرحاض ويبقي الباب مفتوحاً أمام الجمهور أو يـبول في الـشارع أمامهم أو يخرج إليهم وهو سكران يستفرغ مـا في بطـنه على ثيابه أو لحية الوزير ـ وزير الأعلام أو وزير الخارجـية أو وزيـر الـدفاع ـ أو يخـرج ومعه زوجته التي من عائلـته أم ولي العهـد.. ويـتعارك معهـا أمـامهم ويـرونه وهو يهرب منها وهي تلاحقه بالقبقاب على رأسه لأنه منصرف إلى جـواريه ولا يتعاطـى معهـا إلاّ بـروتوكولياً وفي المناسـبات الـرسمية.. أراد كاتـبه أن يذكـره أن الهـنود يرون البقرة ملوثة بـروثها ورغم ذلك فهم يعبدونها ولكنه خاف أن ينقص أجره عـند الـسلطان ويكثر ثوابه عند الله. فبلع لسانه وعقله ودواته وقلمـه وضـميره واتكـل على الله وكتب كتاب الخليفة جواباً علـى كـتاب هولاكـو قال: «.. ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغـرب ومـن الملـوك إلى الـشحاذين ومـن الـشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالبعث والدين كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي.. أنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحـسم الأمـور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران واضع كـل شـخص في موضعه وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب.. وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد.. وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تـتوان لحظـة ولا تعـتذر، إن لي الـوفا مـؤلفة مـن الفرسـان

والـرجالة مـن الحـرس الجمهـوري والقوات الخاصة.. أنهم يثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان».

واقتـربت طلائـع هولاكو وأخذت طائراته تدك البيوت والجسور والناس والـصحارى والفلـوات والنخـيل وحقول الأرز والحـنطة وغابـات الـبردي ومقهـى الـبرلمان في شارع الرشـيد ومحـلات لـبن أربـيل ومكتبات شارع المتنبي وقاعة الكـندي وابـن الـنديم وسـاحة الـسعدون وتمـثاله وأطـلال المدرسـة النظامـية وأطراف الكاظمية وجسر المسيب وساحة المـربد وقـصر الأخيـضر.. وطارت طائرات الخليفة إلى بلاد الـري وهمدان وقزوين.. كأنها طيور مهاجرة تبحث عن مكان تـبني فـيه أعـشاشها وتفقـس أفراخاً، طائرات كثيرة يدخرها جـبار للعبه وفراغه وتصحيح المسيرة في الداخل من الداخل على الداخل.

وأرسـل الخلـيفة وزيـره إلى بـلاد الصقالبة مروراً ببلاد الـديلم والكـرج وأرسل إلى هولاكو كتاباً قال فيه: أن الملك قد أمر أن ابعث إليه بالوزير، ها أنذا قد لبيت طلبه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته».

وفـشلت المـبادرة، وأعلـن هولاكـو فـشلها وعـدم اسـتجابته لهـا.. وكتب إلى الخليفة يقول: «إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب همدان، أما الآن فنحن على باب بغداد».

قلـت لـصاحبي وهـو مـن محـبي القيصر قيصر روسيا القديم

والوسيط والجديد.. إن القيصر متفاهم مع الخان هولاكو فضحك صاحبي ووافق فانتصرت..

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة، جاءها سهم وهي ترقص بين يديه فانزعج الخليفة وفزع فزعاً شديداً. ونادى الصحاف وعبد حمود. وعند المساء خرج هولاكو إلى منزله وأمر الخليفة أن يفرز جميع النساء اللاتي باشرهن هو وبنوه وابن عمه الكيماوي ويعزلهن عن غيرهن ففعل فكن سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصي.. وقتلوه رفساً وهو في جوالق (أكياس) وقيل في حفرة.. انتهى النص وانتهى الخليفة.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى واجتمعوا تحت الثرى.. وانتشرت فيهم الكوليرا والإسهال الشديد وحالات التسمم لقلة الماء وتلوثها وفقدان الغذاء والأدوية وحليب الأطفال وصاروا إذا ما خرجوا إلى الشوارع تلصق بوجوههم كتل رمادية لزجة وعندما قرأوا الآية الكريمة ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ والحديث «الساكت عن الحق شيطان أخرس» وامتشقوا

أحـزانهم وآلامهـم وغـضبهم وخيـبة آمالهم وانهمروا مطراً، ماء، أنهاراً، إلى جانب الفرات ودجلة.. حتى لا ينضبا، حتى لا يسرقا ثانـية.. عـادت المدافع التي غادرت مواقعها لتتخذ من بيوت الطابوق الأحمر والسعف أهدافاً لها والكيمياء التي أعـدت لتغـسل وجـه القـدس عـادت لـتلوث وجـه الـنجف وكـربلاء.. ووقـف الذي استباح ظل علي والحسين والعباس ذات يـوم ـ وقـف علـى جـثة العـراق آخـذاً بيد يزيد يرفعها ويلوح بها إلى التاريخ والجغرافيا ـ انتهت خطبتي.

على أمواتك المتناثرين بكل منحدرٍ سـلام جال فيه الدمع والوجدُ

علـى المتـبدلات لحـودهم والغاديـات قـبورهم طـرقاً
وطيب رقادهم أرقا.

يحن إلى النشورِ.. ويرقب موعد الربِّ

١٩٩١/٣/١٨

ـ ٥ ـ

قراءة في دفتر السيد ميم وذاكرته وأحواله

صبحني صاحبي مُغْضباً متعجباً.. قال: ألم يلفتك أن كويتياً قبل العلم الأمريكي بشهوة؟ قلت: لا.. قال: لماذا؟ قلت: لأني لا أصدق التلفزيون. قال: تضحك علي؟ قلت: بل على نفسي. قال: ومتى ينتهي الضحك؟ قلت: في المدى المنظور لن ينتهي. قال: طيب والكويتي الذي طالب إسرائيل باحتلال الأردن لتأديب الفلسطينيين الذين يعتدون على إسرائيل التي تدافع عن نفسها؟ قلت: لا أصدق. قال: على من تضحك. قلت: إني أبكي. قال: إذن.. قلت: انتصرت أنت فأنت وصدام حسين منتصران.. وأنا المهزوم الوحيد. قال: هذا لا يستوي في المنطق. قلت: بل يستوي. قال: لا يستوي. قلت: يستوي رغماً عن أنفك، لماذا تستضعفني وتريد لكلامي وحده أن يستوي في المنطق وعلى المنطق؟.. وكيف يستوي كلام ذلك المهزوم الذي يعلن نفسه منتصراً؟ قال: هذه مشكلتكم، أنتم أهل اللغة العربية تذوبون أدباً وخبثاً وبلاغة فتنزلون التضاد منزلة التناسب وتقولون للأعمى يا

بصير وللمرؤوس يا رئيس وللمملوك يا ملك فما ذنب المهزوم إذا سمى نفسه منتصراً؟

كان صاحبي قد تغلب علي وكسر عيني وقلبي فمضى يقول: ما بال العراقي وهو ابن الفراتين وحمورابي وأسرحدون وغلغامش وبغداد وسامراء والنجف وكربلاء وثورة العشرين.. ما باله يقبل يد الجندي الأمريكي بلهفة؟ ويرقص الدبكة و(التشوبي) و (يهوس): يعيش جورج بوش، تعيش بربارا بوش.. كاسراً عروض العامية العراقية وعمودها شعراً لاعناً عرض الذوق العربي!!

قلت: غلبتني فافتح معي ذاكرتك وادخل ذاكرتي، واختزن مفاتيح لأسرار الذات العربية المضروبة من الداخل.. ألم تر الفارس العربي الملهم قبل بدء المعركة وفي أيامها الأولى يخرج في شوارع بغداد أمام عدسات التلفزيون - سي ان ان - خصوصاً - يمد يده لبسطاء الناس يقبلونها، ويضحك!! هذا الكعك من ذاك العجين.. تعجب من هؤلاء المستذلين المذلولين ولم يأتك أن مؤتمراً حاشداً عقد في بغداد حضره كبار المهندسين وعلماء الهندسة لدراسة الجوانب الهندسية في فكر الرئيس! ومؤتمر آخر عقد في جامعة بغداد حضره كبار علماء الاجتماع والعلوم الإنسانية وترأسه رئيس قسم العلوم الإنسانية في الجامعة لدراسة مساهمات الرئيس في نظريات علم الاجتماع الحديث!!

ومؤتمـر آخـر عقد في جامعة المستنصرية حضره كبار الأدباء والفـنانين والـنقاد لدراسـة مـنابع الإيحـاء الفني في شخصية الـرئيس!! علـى مـن نعـتب؟ وعلـى مـن نغـضب؟ وممـن نغضب؟.

سـجل: خـرج الفلاح العراقي زمن الملكية من مضيف شـيخ العشيرة الإقطاعي وهو يضحك مستبشراً، فسأله قريبه: شـبيك؟ ـ أي شـيء بـك ـ قـال، الـشيخ ـ الإقطاعـي ـ تفل بوجهي ـ بصق في وجهي ـ!! ويوماً كان أحد مشايخ الاقطاع ملتـصقاً بقفـص قبر العباس «رض» في كربلاء ملحاً مستغرقاً في الـدعاء. فجـاءه رسول من العشيرة يبلغه عن خطأ وقع فيه أحد الفلاحين.. فلم يقطع الشيخ دعاءه وأشار إلى عنقه بيده.. مـررها تحـت عـنقه.. قـال لـه بالإشـارة: اذبحـوه.. فـذهب وذبحوه.

هـذا كـان في العهـد الملكـي.. ولكـن الفارس الثوري التقدمـي أعاد الاعتبار للعهد الملكي، ملكاً وسياسة وسلوكاً وإقطاعـاً.. نحـن نعـيد النظـر في حماسنا لكثير من الحوادث والأحداث!!



بزغ فجر العالم الجديد والنظام الجديد فقرر السيد ميم أن يـتجدد، أن يأخذ موقعه في السياق الجديد سريعاً حتى لا

يفوته القطار فيضطر للمشي على قدميه ولا يصل. وإذا وصل متأخراً لم يجد أحداً أو شيئاً في انتظاره.

صرت له أمه زوادته، هندباء معمولة بالزيت والبصل والحامض، ربطها إلى زناره.. وقبض قبضة من تين يابس، دسها في جيب سترته ومضى إلى ديزني لاند.

ركب القطار السريع في ديزني لاند.. أو الأسرع أو الطائر.. أنه شيء آخر.. ومات من الرعب، ولكنه رأى جيمي واليزابيت يميل أحدهما على الآخر بعنف وغنج ثم ينفصلان ويتباعدان بعنف وغنج مماثل ويضحكان لنفسيهما وحاليهما مرة وعليه مرة أخرى متشبثاً بثيابه دائراً في فراغ لا يبدأ حتى يبدأ.. ولم يمت وعندما أدرك أنه حي شاركهما الضحك لهما وعلى نفسه.

وعندما توقف القطار الذي لم يكن قد ابتعد إلاّ أمتاراً عن نقطة انطلاقه، سجد السيد ميم شكراً، رأته اليزابيت ساجداً شاكراً صاحت: تورك، وفركت أذنه بالسبابة والأبهام وقالت له: جدتي مثلك تحب الله.. جذبته من يده، ركضت أمامه وركض وراءها. قالت أثناء الركض، أنا أحب الجمل.. المرة الثانية سوف تأتي لي بجمل.. ضعه في جيبك.. كان شعرها يتطاير في الهواء فيلفح وجهه ويدخل بعضه في حلقه وبعضه في عينيه.. خطرت أمه في باله فطردها من باله.. هذه الأماكن لا تليق بها.. وهي لا تليق لها.. خاف أن يضبطه

جيمـي منفـرداً باليزابيت ويسوء ظنه به في هذه الغربة ولكنها تـوقفت فـتوقف.. سـألها عـن جيمـي فأشـارت إلـيه راكـضاً نحوهما وبيده ألواح من الشوكولا، أخذت ليز نصيبها وقبلت جيمـي في فمـه وأعطـت الـسيد مـيم نصيبه وقبلته في خده، فـأحس بالـضيق والألم في قدمـيه والحاجة إلى التبول ولكنه تذكـر أنه ما يزال على وضوئه وقد ضاق وقت الصلاة فاعتذر مـنهما وودعهمـا واستقل طائرة أجرة عائداً إلى قريته وعندما أدركـه الغـروب فـوق الأطلـسي أرادا أن يصلي صلاة العصر فـنادى علـى المـضيفة وسـألها عن القبلة فأدارات له خدها.. قبلها خوفاً من التهمة بقلة الذوق وحاول التوضيح فسألها عن الاتجـاه الـذي تقع فيه المملكة العربية السعودية فقالت: أنهم نقلوها.

عندما هبط في مطار القرية لسعه البرد فاستبدل بسرواله القـصير سـروالاً فضفاضاً.. وأثناء ما كان مشغولاً بذلك نزعاً وارتـداء لاحـظ أنه لم يتحرج من شيء ولم يلتفت إليه أحد.. ألقـى التحية على أهل الضيعة فلم يردوا وتضايق بعضهم من ذلـك، فانتـبه إلى أن عاصـفة الـصحراء والصحراء قد انتهت وأن العلـم الجديـد والـنظام الجديـد قـد أبصر النور فبردت أعـصابه ولكـنه قـدر أن بعـض الأمـور الصغيرة كالحب مثلاً بمعـناه الريفـي الـشرقي القـديم لا بد أن تكون له بقية باقية.. كانـت هذه رغبته.. وتوقفت عربة المترو فصعد ووقعت عيناه

في عـيني الـسيد أحمد علي حسين العمار ولكن عيني أحمد لم تقعا في عينيه.. حياه فرد بهزة من رأسه.. سأله: كيف حال أم حـسين؟ قال: ماتت قبل يومين.. ثم نهض تاركاً مقعده إلى داخل الحافلة وجلس بحيث لا يراه السيد ميم.. فلم يره..

١٩٩١/٤/٦



- ٦ -

قراءة لما يحدث في ما حدث

أرسل بدر شاكر السياب بهذا الوصف المتقطع للوضع في العراق تحت القصف المتواصل.

أفاد السياب أن جيكور، قريته، الواقعة في قضاء أبي الخصيب في الجنوب، قد قصفت أكثر من مرة وأصابتها قذائف زنة الواحدة منها تعادل زنة بيت بكامله (البيوت هناك صرائف من القصب والسعف).. وسقط الجسر الخشبي على نهر بويب، وعندما رآه السياب يسقط خاف أن يسقط النهر فعاد إلى قبره في البصرة ومن هناك، اتكأ على كبده وكتب:

«جيكور/ستولد جيكور.. ألنَّوْرُ.. سيولد والنُّور.. جيكور ستولد من جرحي.. من غصة موتي من ناري.. سيفيض البيدر بالقمح.. والجرن سيضحك للصبح».

هات حدثنا عن بغداد يا أبا غيلان: «مدينتنا منازلها رَحى ودروبها نارُ».

«عيون المها بين الرصافة والجسرِ.. ثقوب رصاص رقَّشت صفحة البدر».

- «يؤخذون بالمؤامرة التي فكروا فيها، لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه.. كل أعدائه ينفث فيهم، قال في قلبه لا تزعزع، من دور إلى دور بلا سوء، فمه مملوء لعنة وغشاً وظلماً، تحت لسانه مشقة وإثم يجلس في مكمن الديار، في المختفيات، يقتل البريء،.. قال في قلبه إنَّ الله قد نسي، حجب وجهه، لا يرى إلى الأبد.. على أنهار بابل هناك جلسنا.. على الضفاف في وسطها» مزامير داود (١٠).

«في الضفة الأخرى.. يكاد العراق/يومئ يا أهلاً بأبنائي/إنا مع الصبح على موعد رغم الدجى يا عراق/».

يقول السياب، رأى الناس في البصرة، من خوخة في جدار مسجد التنومة، الجواهري يعتلي كومة من حدوج الإبل ويخطب في الناس قائلاً:

كما فرق الشمل المجمع حادث فقد يجمع الشمل المفرق جامع
وما طال عصر الظلم إلاّ لحكمة تنبئ أن لا بد تدنو المصارع

لم يجد الجواهري أحداً يصفق، لأن جميع الأيدي والأكف كانت مقطوعة وأكثر الرؤوس كذلك، إلاّ رأس الرمح ورأس الرجاء الصالح ورأس الحسين، كلما قطعوه عاد

والتحم.. فاستأنف الجواهري يغريه صمت البصرة وسكون الناصرية ونوم الديوانية، والبحتري طالعاً من الكوفة، صحبة الخليل بن أحمد، إلى أنقرة لعلّ مصطفى أتاتورك يغار على اللغة العربية والعروض، فنصحهما ناظم حكمت بالعودة حتى لا يكون مصيرهما مثل مصير جمال الدين الأفغاني.

قال الجواهري:

«سلام على هضبات العراق وشطيه والجُرف والمنحنى
على النخل ذي السعفات الطوال على سيد الشجر المقتنى
ودجلة تمشي على هَوْنها وتمشي رُخاءً عليها الصَّبا
تريك العراق في الحالتين يسرف في شحِّه والندى»

وعلق أبو آلاء على كلام الجواهري قال: منذ تسعين عاماً ونيّف، وأبو فرات، يسعى ليل نهار باحثاً عن حتفه وقبره، ولم يصل، سيموت نائماً، ونحن ما زلنا في انتظاره نحضر له وجبة من (المسكوف مع الرطب البرجي والخضيري ـ لسبب يعرفه ـ وقدراً من اللبن المطروق).

فليأت قبل أن يأتي إليه قبره، لا يجوز أن يبقى القبر هكذا يبحث عن صاحبه، وله هنا في البصرة متسع على كثرة من ماتوا، فلا يجز عن إذا أتاه خبر بأن مقبرة وادي السلام قد ضاقت بأمواتها.

بالمناسبة، يقول السياب، أمس رأيت صلاح عبد الصبور يتمشى في شارع أبي نؤاس صحبة بشير الحافي، نظر صلاح إلى سمكة بنية، تحاول أن تنقذ نفسها من حفرة موجلة في قاع الفرات تحت جسر الشهداء ولا تفلح، تنزلق على الطين فتنام لحظة على جنبها الأيمن مغمضة عينها اليسرى، ثم تعاود المحاولة فلا تفلح، فتعود لتنام على جنبها الأيسر مغمضة عينها اليمنى، وبعد لحظة تستيقظ وتحاول مرة أخرى فلا تفلح، فتنام على ظهرها وتغمض عينيها لحظة، ثم تنهض وتحاول مرة أخرى فلا تفلح، فتقف على رأسها وذيلها إلى أعلى وتفتح عينيها.. لاحظ صلاح أنها حزينة رغم أنه لم يعد للصيادين والشباك وجود.. حدق فيها صلاح ملياً وقال:

«هذا زمان السأم.. نفخ الأراجيل سأم.. لا عمق للألم، لأنه كالزيت يطفو فوق صفحة السأم.. لا طعم للندم، لأنهم لا يحملون الوزر إلاّ لحظة ويهبط السأم».. وهوى جسر آخر وعلا دخان.. فتفرق الصحب أيدي سبأ.. كان صلاح يركض وهو يردد من شعره:

«يا صاحبي إني حزين/طلع الصباح فما ابتسمت/ولم ينر وجهي الصباح/.. ورجعت بعد الظهر في جيبي قُروش/فشربت شاياً في الطريق.. ورتقت نعلي/.. يا تعسها

من كلمة قد قالها يوماً صديق/مغرى بتزويق الكلام/كنا نسير/كفي لكفيه عناق/والحزن يفترش الطريق/قال الصديق/يا صاحبي: ما نحن إلاّ نفضة رعناء من ريح سموم/أو منية حمقاء/والشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم».

يرجو بدر شاكر السياب من كل محبيه أن يعيدوا قراءة حماسة أبي تمام والمتنبي وتحولات الصقر لأدونيس وأمل دنقل ووليد جمعة حميد والراعي النميري وفيدريكو غارسيا لوركا ويذكر لأدونيس هذا الكلام الملتبس:

«والسماء على الجرح ملصوقة/والضفاف/تتهامس تلتف/بيني وبين الضفاف/لغة/بيننا حوار/حضنته الكراكي/طافت به كالشراع/بيننا.. وافراتاه كن لي جسراً وكن لي قناع/».

«سحر تاريخك انتهى/ادفنوا وجهه الذليل وموروثه الأبلها/واعذري واغفري يا قرون الغزالات/يا أعين المها/».

يقول السياب: حسين مردان وجان دمو يهديان سلامهما إلى السيد مصطفى جمال الدين ومظفر النواب ووليد جمعة حميد، ويقول جان لوليد: لقد طارت الحمامات من جدارية فائق حسن في ساحة الطيران ومات

بائع الفشافيش في الباب الشرجي وهرب خوشابا من البتاوين إلى الجبايش ولكنا نذكر قولك: «ووليد المشهداني يتردى اليوم في موقعة أخرى/ويصغي للدوي الهرم المصعوق في أروقة الرأس/ولا يدري لماذا؟ فلقد قالوا: عليك الآن أن تفتح درباً تحت سطح الأرض يفضي للسماوات العريضة/غير أن الكلمات المستدقات الحروف/لم تعد تحفر غير القلب/إذ داخت/ولن تستنشق الليلة موسيقى الليالي/».

«واعلموا رحمكم الله، أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الأدهان، فتاهم عارم، وشائبهم آثم وعالمهم منافق.. أبا آلاء.. كيف هي مشاعرك:

«ردي ردي عن عيني اللي نحر جفاك وما ضيعت ودي
ردي ردي أنا من دم ولحم مو من صخر كبدة لعندي
ردي ردي أنا مش أول زند يزرع نخل ويحصد بردي
ردي ردي أنا خلاني الوقت ناعور، بس اترس وبدي»ـ

والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل، وما هو بالهزل، إنهم يكيدون كيداً، وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً».

«ألم يـسيروا في الأرض فينظـروا كيف كان عاقبة الذين مـن قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها».

١٩٩١/٢/٢٨



الانبعاث العراقي الجديد(*)

كنا في حاجة لأدلة، لا على الجرائم النكراء التي ارتكبها نظام الاحتلال الوطني في كردستان العراق بذريعة قوموية ساقطة تجربة وفكرة.. بل على قدرة هذا الشعب الشريك في التوحيد وفي المنجز الحضاري ثقافة وتحريراً يمتد من حطين وصلاح الدين إلى مصطفى جواد واللغة العربية محظيته الأثيرة، إلى مام جلال الرئيس العراقي الذي يتقن فن الملابسة الجميلة بين الكردية والعروبة انتماءين تكامليين وتركيباً يرقى إلى مستوى المثال والأمثولة، إلى الرئيس مسعود الذي من موقعه يحفظ الخصوصية الكردية ويرفعها إلى مستوى الشرط النهضوي للعراق الذي يسير بصعوبة كأنها صعوبة الولادة نحو الاندماج وتفريع اللامركزية على المركزية إتاحة للفرصة في النمو المتكافئ والمتناظر، بحيث تزدهر الأطراف بالحرية وينمو المركز بالديمقراطية وتترسخ المواطنة نصاباً جامعاً والحوار الدائم خياراً

(*) ألقيت في ختام أسبوع المدى الثقافي في أربيل نيسان ٢٠٠٧.

والاعتدال منهجاً والوسطية موقعاً والتسوية الدائمة أسلوباً والكتلة التاريخية المتعددة المتحدة على وطن ودولة جامعة حاضنة راعية رادعة وقادرة بقدر ما هي عادلة وعادلة بما هي قادرة وتقدمية مبرأة من مرض العقائدية والشوفينية والشمولية، تأخذ بالتنوير والتنمية الشاملة أطروحة المعاصرة موصولة بالأصل تستقبل غدها وتستشرفه من دون أن تنقطع عن ماضيها أو تغرق فيه، تضيف إليه بدلاً من أن تتعيش عليه وتنقي الذاكرة من الأشواك وتعالج أورامها.. كل ذلك كان قد مر بما استقر في الذاكرة وكمن في خلفية المشهد، أعني الملا مصطفى قائداً ورائداً، يقف الآن مرفوع الهامة في حلبجة وحاج عمران بين حزن جميل وفرح مشروع بما تحقق ويمسح الكيمياء والبارود عن الروح والتراب الصنوبر في معادلة الحياة ومعنى الوطن (أما الزبد فيذهب جفاء..) لقد ذهب البعث المفصل على قياس صدام العابث حتى غدا يشاكل الموت ويضارعه موتاً.. وبقي الانبعاث فعلاً ذاتياً كردياً وعربياً وتركمانياً، مسيحياً وإسلامياً، شيعياً وسنياً.. عراقياً كما العراق.. مبتدأ وخبراً، شكلاً ومضموناً.. بقي الانبعاث وعداً أخضر خضرة هذه الجبال الأوتاد، أحمر قانياً كالدم الحرام الذي يهرق باسم الله وتنتشي بجريانه والولوغ فيه شياطين الجن والإنس ممن يصفون النار طريقاً إلى الجنة،

ويلغون الدين بالدين، ويمحون الوطن المتحقق بالأمة المفترضة أو المتخيلة، ويصادرون الدولة بالسلطة ويختزلون الاجتماع بالجماعة ويلغون الديمقراطية بالانتخاب.

لقد كنا بحاجة إلى أدلة ملموسة على أن الوعد قد دخل في زمان تحقيقه وأن الثقافة المحلية هي مكون أو مساحة محررة ورحبة وعميقة في منظومة الثقافة العراقية، وأن الوحدة الوطنية ناظم وضامن للتبادل والتكامل الذي يمنع الإلغاء والإقصاء والاستئثار.. ومن هنا نحن ذاهبون إلى أهلنا مفعمين بالرجاء والبشارة بأن ليل الشمال والوسط والجنوب، دجلة والفرات والزابين وشط العرب والأهوار، إلى فجر صادق، لأن العراق لن يعود إلى ماضيه بل هو ذاهب إلى غده، غد الجميع بالجميع من أجل الجميع.

شكراً لفخري كريم الذي يحسن الإدارة والابتسام وفريق عمله مديات المدى الذي أتاح لنا ثقافة إضافية ونوعية وأتاح لنا أن نتعارف ونتحول إلى مرايا ترينا الكل في واحد والواحد في الكل، سلاماً لأربيل الواعدة وللسليمانية الماجدة، وشوقاً إلى رائحة الشلب في المشخاب والشامية ورطب البرحي وتمر العمراني وخلال الزهدي ونخل السماوة والغراف وطير المجرة وحمامات ساحة الطيران وجدارية فائق حسن وشارع المتنبي والعباس.

المحتويات


مدونة جبل عامل
JABAL AMEL BLOG